جان جاك روسو

أبناؤنا وبناتنا

تقديم ومراجعة

د. خالد محمد غازي

الكتاب: أبناؤنا وبناتنا

الكاتب: جان جاك روسو

تقديم ومراجعة: د. خالد محمد غازي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

روسو، جان جاك

أبناؤنا وبناتنا / جان جاك روسو، تقديم ومراجعة/ د. خالد محمد غازي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ٧١٥ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٧٩٣٣ / ٢٠٢٣

أبناؤنا وبناتنا

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

جان جاك روسو، هو مؤسس الأدب الرومانسي، وأحد أعمدة فلاسفة الأنوار، أفكاره كانت المحرك الأول للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، أحد ناشري الحب العذري، ومخترع السيرة الذاتية الحديثة، ولد جان جاك روسو في ٢٨ يونيو عام١٧١٢م في جنيف بسويسرا لأسرة فرنسية بروتستانتية والده إسحاق روسو من طبقة متوسطة ويعمل صانع ساعات، والدته سوزان برنارد روسو من الطبقة العليا، والتي توفيت بعد ولادته بتسعة أيام بسبب الحمى، عاش حياة قاسية حتى قال عنها "كان مولدي أول أيام تعاستي".

غرس فيه والده حب الموسيقى والمعرفة والقراءة، وهرب والده من جنيف لتجنب السجن، فتولى خالة مسؤولية تربيته، ثم هرب أخوه الأكبر فظل وحيدًا، واعتمد على تعليمه في الصغر على قراءة حياة بلوتارخ وعظات كالفين في الحديقة العامة، فطُرد من الدير بعد أن كان يدرس فيه لعامين؛ وذلك لاتهامه بسرقة مشط من إحدي السيدات، فأرسله خاله للعمل ككاتب عدل وفشل في هذا العمل، فوجهه لتعلم النقش على المعادن، وبسبب قسوة معلمه لم يتعلم سوى الغش والكذب والسرقة، وبدأ حياة تشرد في عمر السادسة عشرة، وسجل بدقة أحداث هذه الفترة في سيرته الذاتية "الاعترافات"، وقال فيها:"من الصعب للغاية التفكير بنبالة عندما لا يفكر المرء إلا في كسب لقمة العيش".

تنقل بين عدة أعمال، فعمل خادمًا في بعض البيوت، في إحدى القنصليات بإيطاليا، وعمل بشكل ثابت في نقل نوت الموسيقى، ترك جنيف عام ١٧٢٨م إلى أنسي في جنوب شرق فرنسا، وعاش فترة من الضياع والتجارب الفاشلة، حتى التقى بالبارونة الفرنسية "لويز دى وارنز"، وهي أرملة غنية وقع تحت تأثيرها، وانضم إلى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وأرسلته إلى مدرسة كاثوليكية جيدة؛ فتعلم اللاتينية والفنون الدرامية، ودرس أرسطو، وعمل في هذه الفترة بالتدريس ووظائف السكرتارية والموسيقى.

انتقل إلى باريس عام ١٧٤٢م، ليصبح موسيقيًا وملحنًا، وقدم نظامه الجديد للتدوين الموسيقي إلى أكاديمية العلوم التي رفضته على الرغم من توافقه مع الطباعة، وعمل سكرتيرًا للسفير الفرنسي في البندقية من عام ١٧٤٣ إلى عام ١٧٤٤م وأُجبر على الفرار إلى باريس لتجنب الملاحقة القضائية، التقى فى عام ١٧٤٥م مع ماري تيريز ليفاسور خياطة شابة متعلمة عاش معها وأنجبت منه خمسة أطفال تُركوا جميعا بدار الأيتام في باريس بعد الولادة بوقتٍ قصير، وصادق الفيلسوف الفرنسي دينيس ديدرو وساهم بالعديد من المقالات في موسوعته.

ووصف تلك الفترة التي عاشها في باريس، قائلًا:"كانت الحياة في باريس، بين قوم أدعياء محبين للمظاهر، لا تروق لي .. كان تعصب الأدباء وتحزبهم، ومنازعاتهم المخزية، وافتقارها إلى النقاء الذي يتجلى في كتبهم، والمظهر المترفع الذي يخدعون به المجتمع .. كل هذه كانت بغيضة إلى

نفسي! وما أقل ما وجدت من رفق وسلامة قلب وصراحة في الاتصال بالناس، لاسيما أصدقائي".

التقى بمجموعة من مشاهير الأدباء والفلاسفة وحصل على التشجيع المادي منهم، شارك في مسابقة لكتابة مقال يجيب على السؤال التالي: هل ساعد تقدم العلوم والآداب على إفساد الأخلاق أم على تطهرها؟ للمساهمة فى إحياء النشاط فى الفنون والعلوم طرحتها أكاديمية "ديجون"، وكانت نقطة التحول فى حياته، فتقدم بمقال بعنوان: بحث علمي فى العلوم والفنون، ففاز عام ١٧٥٠م بالجائزة المالية والشهرة، عُرضت أوبراه الشعبية "كاهن القرية" عام ١٧٥٢م أمام الملك لويس الخامس عشر.

ألف عدة مقالات وأبحاث ظهرت لاحقًا بشكل كتب ومنها بحث فى منشأ وأسس عدم المساواة، وكتابه "العقد الإجتماعى" في عام ١٧٦٢م هو علامة فارقة فى تاريخ المؤلفات السياسية وهو المحرك الأول للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، وأكثر إنجازاته فى مجال التربية هو كتابة الضخم" إميل" أو التربية، ثم تراجعت صحته فتوجه للريف للراحة وكتب هناك "اعترافاته"، وظل هناك حتى وفاته بالسكتة الدماغية في ٢ يوليو عام ١٧٧٨م، ولم يصدق الناس أن يموت ميتة طبيعية وأشيع أن هناك لغزاً أو مؤامرة وراء وفاته بل وما زالت هناك بعض النظريات التي تخرج إلى العلن كل حين وآخر، ومنها أن فولتير منافس روسو وكاترين الثانية خططوا لقتله، ودُفن بمقبرة العظماء بباريس.

والكتاب "أبناؤنا وبناتنا" يحوي خلاصة الفكر التربوي لروسو،

وجوهر فلسفته يتمثل في المذهب الطبيعي، حيث كان يعتقد أن كل المشاكل النفسية والمشاعر البائسة التي كان يعاني منها الناس تعود إلى الابتعاد عن حالة الطبيعة، فلقد أصرّ جان جاك روسو على العودة إلى الطبيعة كأسلوب قوي لإصلاح عالم المشاكل، فلم تكن المؤسسات تستطيع إجباره على العادات والتقاليد المتداولة والمتعارف عليها بذلك الوقت، فقد كان خاليًا من آثار الاستعمار والتقاليد والاستبداد، فقد كانت فكرته عن "حالة الطبيعة" هي مجتمع زراعي بسيط دون شرور، حيث كانت جملته الشهيرة (الجملة الافتتاحية لكتاب إميل عام ١٧٦٢) هي: "كل شيء حسن لأنه يأتي من يد الطبيعة، لكن كل شيء يتدهور في يد الإنسان".

ويحوي كتاب إميل – وهو ضمن محتويات هذا الكتاب– الفكر التربوي عند روسو، حيث إميل كلمة فرنسية وتعني التربية أو التعليم، وهو كتاب من تأليف جان جاك روسو ومن أعظم أعماله أيضًا، ويحتوي على خمسة إصدارات تعتبر نظريات وأساسيات التربية، وتتلخص نظرية التربية من خلال "أطروحة إميل" فيما يلي: المرحلة الأولى: هي الطفولة، والتي تبدأ من بعد الفطام أي من عمر العامين، وفي هذه المرحلة يضع عددًا من المبادئ، والتي تعطي الأطفال مزيدًا من الحرية الحقيقة وقوة أقل، والسماح لهم ببذل المزيد من الجهد لأنفسهم، فيتم تعليمهم منذ الطفولة لتحديد رغباتهم في حدود سلطتهم؛ فإنهم بالكاد سيشعرون بالرغبة في أي شيء ليس في وسعهم. المرحلة الثانية: هي "عصر الطبيعة"، تبدأ هذه المرحلة من

عمر ٢ لعمر ١٠ أو لعمر ١٢، في هذا العمر يتلقى الطفل تعليمًا يُسمى التعليم السلبي (لا تعليامً أخلاقيًا، ولا تعليمًا شفهيًا)، في هذا التعليم له قاعدة مهمة وهي أن لا تدخر الوقت بل اخسره، ويجب ترك العقل دون إزعاج حتى تتطور مكنوناته؛ أي أن التعليم في هذه المرحلة هو تطوير الصفات الجسدية وخاصة الحواس، ولكن ليس العقول. المرحلة الثالثة: هي مرحلة ما قبل المراهقة (من عمر ١٢ لعمر ١٥ سنة)، شبه روسو الطفل في هذه المرحلة بالمتوحش النبيل في العقد الاجتماعي، تزداد قوة الطفل بسرعة أكبر بكثير من احتياجاته، أما النشاط لدى الطفل في هذه المرحلة فيأخذ شكلًا عقليًا، لذلك هناك قدرة على الاهتمام المستمر، وفي هذه الحالة يجب على المربي أن يستجيب وفقًا لذلك. المرحلة الرابعة: هي مرحلة البلوغ (من عمر ١٥ لعمر ٢٠ سنة)، يعتقد روسو أنه بهذا العمر يكون العقل متطورًا، وسيكون قادرًا على التعامل مع المشاعر الخطيرة للمراهقة، ومع القضايا الأخلاقية والدين. المرحلة الخامسة: مرحلة الشباب (من عمر ٢٠ إلى عمر ٢٥)، هنا المهمة النهائية هي تعليم الزوجين الشابين الحقوق والواجبات الزوجية.

وقد أكد روسو في كتابه "إميل" أن الطفل محروم من الحرية، وأنه يولد ويعيش في أحضان العبودية، في حين أن الأجدر به أن يتمتع بالحرية لكي تكبر فيه الطفولة". حكمتنا في مجموعها مزاعم حقيرة، وكل مواضعاتنا ضروب من الخنوع أو الانحصار أو الضيق؛ فالإنسان المتمدن يولد ويعيش ويموت في رق العبودية، حين يوثقونه بقماش، وحين يموت يسموون عليه تابوتا.

ومن خلال ذكر روسو لتربية الأشياء فإنه قسم التربية إلى ثلاثة ضروب "ومن بين ضروب التربية الثلاثة، نلقى تربية الطبيعية خارجة عن إرادتنا، وأما تربية الأشياء فلا تتدخل تحت تربية سلطاننا إلا بمقدار، وأما تربية الناس فتلك دون سواها مطبوعة بنا بحق، بيد أننا لسنا مسيطرين عليها إلا افتراضًا، فمن ذا الذي يتطاول فيطمع أن يهيمن الهيمنة جلها على أقوال كل من يحيطون بالطفل وأفعالهم".

من هنا يبين روسو أن فعل التربية، يتداخل فيه ما هو إنساني وما هو طبيعي وما هو شيئي؛ أي أن لكل ضرب حدوده بحيث أن التربية الطبيعية خارجة عن سيطرة الإنسان، إذ هي خاضعة لشروط بيولوجية وفيزيولوجية بينما فعل الإنسان في التربية يمنح له هامش من الحرية للتربية وتدجين وإدماج الفرد، أما تربية الأشياء، فهي مزيج بين الخبرات التي نكتسبها في ممارسة فعل التربية، ومحايتتنا للأشياء.

يوضح روسو أن نجاح التربية مرهون بتضافر هذه الضروب كلها وتكامل أدوارها في هذا الفعل "وما اعتبرت التربية فنا، فهي توشك أن تستعصي على النجاح، فأسباب النجاح المحتومة ليست بيد أحد، وكل ما يستطاع بالجهد أن نقترب من غايتنا قليلًا أو كثيرًا، ثم يستأثر الحظ بتمام الوصول وما هي هذه الغاية ؟ إنها بعينها غاية الطبيعة، وقد سبق البرهان على هذا. وحيث أن ائتلاف ضروب التربية الثلاثة لا معدى عنه لاكتمالها، فيجب أن توجه هذين الضربين اللذين لنا عليهما بعض السلطان إلى مضاهاة الضرب الذي لا سلطان لنا عليه، ويقصد به ضرب

الطبيعة الذي يُعتَبر خارج سيطرة الإنسان ؛ إذ يرى أن ائتلاف ضربي فعل الإنسان (التربية) وتربية الأشياء رهينين بتدارك العجز الذي يسبب فيه ضرب الطبيعة.

والحرية عند روسو هي المعبر الوحيد في التربية، للوصول إلى تعاقد سياسي (العقد الاجتماعي). "والحق أن "إميل" والعقد الاجتماعي مترابطان بأوثق العرى: فهما يدرسان مظهرين اثنين لمسألة واحدة، فإميل تلميذ روسو يتعين عليه أن يعيش في المجتمع، ولكن لا بدّ من الاهتداء إلى نظام للتربية يتيح له أن يحتفظ بكل براءة الحالة الطبيعية وفضائلها وبكل طيبة الإنسان الفطرية، كذلك يتعين على الناس أن يجتمعوا، لكن لا بدّ من الاهتداء إلى شكل للاجتماع يحتفظ للأفراد المساواة والحرية اللتين كانتا حاصلتين لهم بالطبيعة".

لقد تبين الآن الخيط الرابط بين المشروع التربوي لروسو والمشروع السياسي؛ إذ لا يمكن الحديث عن المواطن دون الاهتمام بمسألة التربية. "لقد نوه روسو بهذه العلاقات في كتاب "إميل" يعني الحالة الطبيعية لا يتبع الإنسان إلا الأشياء، لا للبشر، وهذه التبعية لا تضر بحريته: فكيف السبيل إلى صون هذه الميزة في الحالة الاجتماعية؟".

مقدمة المؤلف

الطفولة بحر خضم تتخبط فيها الناس في أمواهه وأمواجه، ولخلو أذهاننا من دقائقها تزداد شئونها تعقيدًا في إفهامنا وينظر الكتاب إلى الموضوع من ناحية واحدة، هي أنهم ينشدون الرجولة في الطفل دون أن يدركوا خطوات المرحلة التي تصل به إلى عتبة الرجولة.. ولهذا وجهت عنايتي، وأرجو أن يؤتي بحثي ثمرته المرجوة.

وأول ما ينبغي هو دراسة التلاميذ دراسة دقيقة؛ لأنهم ألغاز غامضة، وسيساعدك هذا الكتاب على كشف الحجاب عن هذه الألغاز. أما ما يُسمونه الناحية المنهجية من المسألة، فليست سوى تبار الفطرة، الذي يستغلق فيه الأمر على القارئ. وقد أتعرض للنقد، ربما عن حق.. فإن مسحة الخواطر التي تسنح للمتأمل أو الحالم بها قد تغلب على مسحة الدراسة، وأنا لا أتحدث عن آراء غيري بل عما أراه أنا، فليس في مقدوري أن أنظر إلى الأمور بعيون غيري.

وليس معنى ذلك أنني أتعصب لآرائي، أو أنني أزهو بعلمي وأستعلى.. ولكنني لا أستطيع أن أتخلى عن آرائي. وإذا كنت قد إنتهجت أسلوب التأكيد أو التقرير فلا يحمل ذلك محمل الإملاء بل لأنني أتكلم بما أعتقده باسطًا آرائي في صراحة وحرية، لا أطمع في أن يكون لها على الناس سلطان. ويكفيني أن أشفع آرائي بالأسانيد حتى أُهيىء للناس فرصة تقدير الأمور، والحكم لي أو علي.. وجدير بالذكر أن أقول أن

عزوفي عن التعصب لآرائي لا يستوجب مني كتمانها عن الناس؛ لأنه من الضروري أن يميزوا بين الحق والباطل، إذ يتوقف على ذلك هناء البشرية أو شقاؤها.

وكثيرًا ما قيل لي ألا أطلب من الناس غير ما يستطيعون، وذلك لا يعني سوى التخلف والركود.. أو أن يفعلوا ذلك الخير الذي يتفق وما هم سادرون فيه من شر، بيد أن مطلبًا كهذا أشد خطأً من مطلبي؛ لأن الخير حين يتطور إلى الشر فإنه يُمسخ، ويبقى الشر دون علاج. والسير بالأمور من أبسط النواحي المطروقة أجدى من متابعتها عن طريقٍ مبتور، فذلك أنفى للتناقض؛ لأن من العسير أن يسعى الإنسان نحو غايتين متناقضتين في وقتٍ واحد.

فإليكم أيها الآباء والأمهات أزجى القول:

يجب أن نجعل نصب أعيننا في كل أمر نهم به، صلاح المشروع، وما في تنفيذه من يسر.

وليس من شك في أن الخير الذي ينطوي عليه الموضوع كفيل بيسر علاجه عمليًا.. بمعنى أن التربية التي نشير بها توائم العاطفة البشرية وطبيعة الإنسان.

وسر التنفيذ يخضع لإعتبارات خاصة، عارضة وصغيرة فمنهج معين من التربية يصلح في بلد دون آخر وفي طبقة دون أخرى، ولذلك يتفاوت حظه من التوفيق تبعًا لعوامل شتى.

بيد أنني لن أجعل للتخصيص مجالًا في أبحاثي وآرائي ولغيري أن يسلك الطريق الذي يشاء، ولكنني أفحص الموضوع بصفة عامة.. وحسبي أن تصلح آرائي للناس كافة، تصل بهم إلى أقصى ما يتمنونه لأنفسهم وخير ما يقدمونه للغير.. ولهذا أرجو لنفسي التوفيق.

الكتاب الأول

عموميات

أحكام الطبيعة

انفرد الخالق بالكمال فأبدع فيما صنع.. وما يأتيه البشر مآله إلى زوال. يسعى الإنسان إلى تحدي الطبيعة بإنبات زرع في غير أرضه أو إستنباط ثمار من غير شجرها، غير مبال بأجواء أو عناصر أو مواسم، ويجد من طبيعة عبد فيخصيه!.. فهو يقلب الأوضاع ويمسخ الأشياء ويشوهها، ولو كان أخاه في البشرية!

بيد أنه بغير ذلك كان المال حربًا أن يكون أشد وبالًا؛ لأن الجنس البشري لا يستقيم في حال وسط. ولذلك فإن من باعد فيما بينه وبين سجيته منذ نشأته خليق أن يكون أكثر الناس مسخًا؛ فالسلطان والقدوة والضرورات وشتى الظروف الإجتماعية قمينة أن تخنق في الإنسان فطرته.. دون أن تعوضه عنها.. كأنها نبتة في عرض الطريق تملؤها أقدام السابلة غدوًا ورواحًا!

وإليكِ أيتها الأم الحصيفة الحنون أوجه الكلام، بأن عرفتِ كيف تنأين عن مواطن الخطر وتظللين النبتة الباثقة وتحميها من عاديات الأوضاع البشرية.. عليك أن تتعهدي تلك النبتة قبل أن تذبل وتذوي؛ فإنها لن تلبث أن تكون لكِ قرة عين.. ارعي روحها بالحنان الذي ينبثق من قلبك دون سواك، ولا تعتمدي على غيرك في تعهد تلك النبتة.

تختلف أشكال النبات بالزراعة.. ويتشكل البشر بالمنبت والبيئة.

فمَنْ وُلِد قويًا لن يفيد من قوته دون رعاية، بل ربما تصبح مصدر ضرر له إذا أعوزته تلك الرعاية؛ فإنه ليس في وسعه أن يدرك أو يفطن إلى حاجاته.

إن التربية هي العمود الفقري الذي لا تستقيم من دونه الحياة؛ لأن الطفل يُولد ضعيفًا مجردًا من الإرادة لا يفقه شيئًا، فهو في حاجة إلى العون والتمييز.. وللتربية مصادر هي الطبيعة والناس والأشياء، فنمو جوارحنا الداخلية هو تربية الطبيعة، وما نتعلمه ونفيد منه هو تربية الناس، وما نكتسبه بإدراكنا وخبرتنا هو تربية الأشياء.

فلكل منا إذن موجهات ثلاثة، ومن تتضارب لديه موجهاته لن يفيد منها بل تسوء تربيته ولن يكون على إنسجام مع نفسه.

وتربية الطبيعة لا إرادية بالنسبة لنا.. وتربية الأشياء نتأثر بها بمقدار. أما تربية الناس فهي التي تخض لإرادتنا وإن كانت سيطرتنا عليها على سبيل الافتراض؛ لأنه من الذي يمكنه أن يهيمن على أقوال وتصرفات كل من يحيطون بالطفل؟

ولما كانت التربية فنًا، فهي تكاد تستعصي على النجاح؛ لأن أسبابه المحتومة ليست بمتناول اليد. وما نستطيعه هو أننا نسعى إلى تقريب أنفسنا من غايتنا، قليلًا أو كثيرًا، وبعد ذلك يتولى الحظ إتمام المرحلة.. وما هي هذه الغاية؟

إنها غاية الطبيعة، وقد سبق إثبات ذلك.. وبما أن اكتمال ضروب التربية الثلاثة لا يتأتى إلا عن ائتلافها لبعض سلطاننا إلى الضرب الثالث الذي لا سلطان لنا عليه.

وإذا كانت كلمة الطبيعة غامضة بعض الغموض، فإن في الإمكان إلقاء بعض الضوء عليها.. إنها تحمل معنى العادة، ولكن كثيرًا من العادات تنشأ قسرًا، فلا تقضي على نظم الطبيعة. ومن أمثلة ذلك، إذا أُجبر نبات على تغيير إتجاه نموه فإنه يسير في الإتجاه الجديد، ولكن نمو الساق يستمر في إتجاهه الأصلي. وهذا ينطبق على الناس في عاداتهم، يرتدون إليها بعد زوال ما يقحم عليهم.

إننا نولد وفينا حبس، نتأثر وننفعل بمختلف ما يحيط بنا. ومنذ أن نستشعر بوعي إحساساتنا ونحن نقبل على بعض ما يصدر عن تلك الإحساسات، ونعزف عن بعض آخر، تبعًا لما يلائمنا أو يسوءنا، وتبعًا للميل إليها أو النفور منها. وبمعنى أدق تبعًا للفكرة التي تنشأ في أذهاننا عن السعادة أو الكمال.

وتتسع دائرة هذه النزعات كلما نما العقل واستنار، وصارت له قوة الإدراك.. بيد أن تلك النزعات تتأثر بمعتقداتنا وعاداتنا، قبل ذلك التغير القسري، وهذه النزعات هي ما اصطلحنا على تسميتها ب «طبيعتنا».

ومُرَدْ جميع الأشياء إلى تلك النزعات الأولية، وهذا أمر سهل لو أن ضروب التربية كانت متباينة فحسب، ولكن ما الحيلة حين تتعارض؟.. حينما تكون تربية شخص من أجل سواه، فالتوافق هنا عسير أو متعذر.. فيحتاج الأمر إلى جهد في التربية، وهنا تجعله الطبيعة إما إنسانًا أو مواطنًا ولكنها لا تجمع بين الاثنين.

والشخص الطبيعي يعيش لنفسه، فهو وحدة عددية وهو كل..

يرتبط وجوده وكيانه بنفسه وبنظرائه، أما المواطن فهو وحدة ثنائية: هو ووطنه، وقيمته ليست في ذاته، بل بنسبته إلى الهيئة الاجتماعية.

النظم الاجتماعية السليمة هي التي تؤدي إلى تغيير طبيعة الشخص، فتجرده من أنانيته، وتمنحه شعورًا بالذوبان في المجتمع، فلا يرى نفسه قائمًا بذاته مستقلًا بها بل جزءًا من كل.. يحس بإحساس الكل.

وقديمًالم يتميز المواطن الروماني بشخصيته بل برومانيته، بل في ذاته وبحب وطنه. و«ريجوليوس» بطل قرطاجنة خير مثال لذلك، حتى أنه اعتبر نفسه أجنبيًا عن روما، فأبى أن يأخذ مكانه في مجلس الشيوخ الروماني. واستنكر تفكيرهم في إنقاذ حياته، وعاد منتصرًا ظافرًا ليلقَى حتفه في ميتة شنيعة.. ذلك سلوك نادر في زماننا هذا.

ومثال آخر نجده في «بيداريتس» حين خُذل في الفوز بعضوية مجلس الثلثمائة في إسبرطة، فلم يحزن ولم ييتئس.. بل فرح وابتهج؛ لأنه أعتقد أن الثلثمائة الذين اختيروا وفازوا إنما هم خير منه، وهكذا يكون المواطن الصالح!

أما أروع مثال فتقدمه لنا امرأة إسبرطية، أم لخمسة بنين، كانوا جميعًا في ساحة الوغي.. فجعلت تنتظر أنباء المعركة، وجاء من يحمل الأنباء، فسألته وقلبها واجف فقال لها:

– سقط بنوك جميعهم صرعى!

فأنبته وصرخت في وجهه:

– أعن ذلك سألتك أيها اللعين المنكود؟

فأردف يقول:

– لقد حالفنا النصر!

وما أن سمعت الأم ذلك حتى أسرعت إلى المعبد متهللة مغتبطة بما سمعت، وقدمت قرابين الشكر.. حقًا هكذا يجب أن تكون المواطنة.. المثالية ولا شك!

إن من يعطي الأهمية للعواطف الطبيعية في النظام الإجتماعي لا يفقه شيئًا، ويظل متناقضًا مع ذاته، متأرجحًا بين ميوله وواجباته، فلا هو إنسان ولا هو مواطن.. لا خير فيه لنفسه أو لسواه.

ولكي تبرز شخصية المرء ويكون مثاليًا في كيانه، ينبغي أن يتفق عمله مع قوله، فيكون بذلك على بينة مما يفعل، ويفعل في حزم ومثابرة. فهل لي أن أرى شخصًا من هذا الطراز؛ لأتبين إن كان إنسانًا أو مواطنًا، أم يجمع الاثنين؟!

وتنجم عن هذه الأشياء المتعارضة صورتان متناقضتان للتربية إحداهما عامة في شيوع والأخرى فردية منزلية.

وجمهورية أفلاطون تنير لك الطريق إن أردت أن تعرف أصول التربية العامة.. فليس هو بكتاب في السياسة، كما يتوهمه من يحكمون على الكتب بعناوينها، بل هو أروع سِفْر في التربية أخرجته يد بشرية.

إن التربية الدنيوية ليست تربية بمعنى الكلمة؛ لأنها تهدف إلى غايتين متناقضتين، فيفوتها إدراك الاثنتين. ولا ينبت منها سوى الرياء، فيتظاهر الناس بأنهم يعملون للغير، بينما هم في الواقع يعملون لأنفسهم، وهذه أمور شائنة معروفة وفي الوقت نفسه جهد ضائع.

ويتولد الصراع في نفوسنا من هذا التناقض، يدفعنا حافزان من الطبيعة ومن الناس، يتقاسمانا فيختلط علينا الأمر ولا يؤدي بنا إلى غاية منشودة، وهكذا نظل طيلة حياتنا دون أن نحصل على الاستقرار وإسداء الخير لنا وللناس.

أما التربية المنزلية أو تربية الطبيعة، فماذا يفيد الناس من شخص رُبي لذات نفسه؟ ولو أمكن جمع الأهداف بالقضاء على التناقض في النفوس، لاسترحنا من العائق الذي يحول بيننا وبين السعادة.

وماهي الوسائل التي تخلق لنا ذلك الإنسان الطبيعي النادر؟ إن مقاومة التيار أمر ميسور، تحتاج إلى شيء من التحايل. وإذا كان التيار قويًا، وعقدنا العزم على الثبات، فلا بدّ لنا من الاستعانة بالمراس، والخطر كل الخطر في فقدانها، فالهلاك في ذلك.

والناس سواسية في الحالة الطبيعية، وهدفهم المشترك أن يكونوا رجالًا، ولا يعنيني اختلاف الوجهات التي يتجهون أو يسعون إليها، على تشعب نواحيها، فالطبيعة تهيئة للحياة الإنسانية. والحياة عامة في المهنة والهدف الذي أسعى إلى تلقينه، ولا يعنيني أن أخرج قاضيًا أو ضابطًا أو قسيسًا أو طبيبًا أو محاميًا أو مهندسًا، بل إنسانًا كما ينبغي أن يكون رغم تقلب الأيام ووطأة ظروفها.

أهم ما في الأمر دراسة البيئة الإنسانية، فيها تكون التربية بالممارسة أكثر منها بالتلقين، والإنسان يبدأ في التعلم منذ مولده، بمعنى أن التربية تبدأ معنا. والحاضنة أول معلم لنا، ومن الخطل أن يتناوب الطفل عدد من المربين، هذه ترضعه وذلك يلاعبه وهذا يؤدبه وذاك يثقفه، بل ينبغي لخير الطفل أن يتولاه مرشد واحد يحسن رعايته.

لذا يجب أن يتسع أُفقنا، فنستهدف في التلميذ الإنسان المجرد المعرض لجميع عوارض الحياة البشرية، ولو أن الناس كانوا يولدون مرتبطين بأرض وطنهم أو طقس بلادهم، ولو أن حظ كل واحد من الحياة لايعتريه التبدل، لكانت طريقة التربية وفق حال ذوبة صالحة؛ لأن الطفل الذي رُبي على وضع معين لن يتزحزح عنه، فلا يتعرض لأكدار وضع غيره، ولكن الحظوظ ليست ثابتة والقرن الحالي تعمه روح القلق. فمن الحماقة أن ينشأ طفل على أساس حالة ثابتة وظروف لا تتغير، فإذا اختلفت حاله هلك، وليس المقصود بتعلمه احتمال الآلام، بل ترويضه على تمرس إحساسات الألم.

ينبغي على المرء أن يصون نفسه قبل أن يصون طفله، فيروض نفسه على إحتمال ضربات القدر ومواجهة البؤس والنعيم. ومن العبث أن يتحوط للهرب من الموت نفسه، فما من الموت مفر، بل ينبغي أن نغرس في الطفل كيف يتحاشى التهور، والحياة عنصر نشاط وتسخير للجوارح والحواس والوظائف الحيوية.

ولا تقاس الأعمار بالسنين، بل بممارستها.. فكم من معمر، مات وكأنه لم يكن وكان خيرًا له لو مات حين ولد.

أخطاء

إن معرفتنا التي نُسميها على سبيل التفخيم حكمتنا، إن هي إلا مزاعم باطلة وأراجيف تافهة، وكل أوضاعنا أنماط للخنوع أو الضيق أو القيود. فالإنسان الذي يوصف بالمدنية يولد ويضمه تابوت حين يموت، وما بين الاثنين فإنه يرزح تحت شتى النظم والقيود في الحياة.

بذلك القابلات رءوس الأطفال أثر ولادتهم، ويزعمن أنهن يصلحن تلك الرءوس.. وهو زعم باطل وافتراء جريء؛ إذ حاشا للخالق أن يسيء التكوين، فنلتمس نحن التهذيب من خارج على أيدي القابلات ومن داخل على أيدي الفلاسفة.

والحقيقة أن الطفل حين يولد يحتاج إلى بسط أطرافه وتحريكها، بعد ذلك التجمع والإنقباض في أحشاء أمه.. فكيف نوثقه بالقماط فنحد من حركته؟ وحتى الرأس لا نعفيها من ملبس أو رباط.. كأنه بغير ذلك لن يحس أنه خرج إلى النور. وهكذا تتقيد الأعضاء الداخلية للجسم الذي يسير نحو النمو، فلا يستطيع حرية التحرك الضرورية.

ولهذا السبب يعتري الأطفال ضيق يعبرون عنه بالبكاء والتذمر، ويبذلون جهودًا تستنفد قواهم وتعطل نموهم. وجدير بالذكر أن التضييق على أطراف الطفل ولفه بالقماط يعوق الدورة الدموية كما يعوق النمو الطبيعي، فيتسبب عن ذلك تغيير في التكوين والبنية. ومن الملاحظ أن

أطفال الناس الذين يدركون مغبة تلك العادات يشبون أصحاء أقوياء ذوي أعضاء مرنة متناسقة، أما من يلجأون إلى الأقطمة فإنهم يفعلون ذلك عن زعم لديهم أن الحركة تضر الطفل فيصاب بعرج أو حدب.. ناسين أنهم يشوهونه بذلك الضغط، وظنًا منهم أنهم يحُولون بين أطفالهم وبين أذى محتمل من حركاتهم.

ومن العجب أنهم غافلون عن حقيقة لا ريب فيها، وهي أن الضغط الذي لا يتناسب مع جسم الطفل اللين المرن له أسوأ الأثر في مزاجه.. فأول ما يحسه في مستهل حياته هو الألم؛ لأن الأقطمة تحد من الحركة اللازمة له، فيعبر عن ألمه بالصراخ والبكاء.

فيمَ بكاء الطفل؟.. ألستم تكرهونه على ذلك بهذه القيود التي تعذبه فلا يجد شيئًا حرًا سوى صوته فيجار بالشكوى؟ إنني لا أدري كيف تفشت هذه العادة وانتشرت.. فالأمهات يتنكرن لواجبهن الأسمى ويهملن أطفالهن، وشعور الحاضنة نحو الطفل ليس كشعور الأم، فبكاؤه لا يهمها واعتلال صحته لا يهمها. ولعل الأمر يرجع إلى أن الطفل الحر يحتاج لليقظة والرعاية، أما المكبل فلا يحتاج إليهما.

وهل تدري الأمهات اللاتي ينصرفن إلى لهوهن أي معاملة يلقاها أطفالهن وأي عذاب وهوان وإهمال!

يزعم البعض أن الأطفال الطلقاء ربما تسببوا في إلحاق الضرر بأنفسهم، وهذا سخف وهراء، ولم يقم على ذلك دليل؛ لأن الطفل أضعف من إيقاع الأذى بنفسه، وحتى لو أتى حركة عفوًا نبهه الألم فيرتد

فورًا. وإني أعتقد أن الطفل إذا تُرِك على ظهره طويلًا، وهو مكبل بقماطه، لمات وهو على هذا الوضع لعجزه عن الحركة.

والظاهرة التي تبعث الأسى في النفس هي تخلي كثير من الأمهات عن إرضاع أطفالهن بأنفسهن، بينما أنه أقدس واجباتهن وفي إعتقادي أن ذلك يضر الطفل إلا إذا كان لدى الأم ما يستوجب ألا ترضعه، كأن يكون بها مرض يخشى على الطفل من إنتقاله إليه. وليست المسألة مسألة ثدي يرضع منه؛ فأي ثدي لدى الطفل سواء، ولكن حنان الأم هو الجوهر في الموضوع لا يستعاض عنه. والمرأة التي تضن بلبنها على فلذة كبدها وتمنحه ابن غيرها امرأة شريرة ومرضعة غير صالحة، وقد يفيد إرضاعها إذا استشعرت الحنان لرضيعها.. ثم إن الطفل بحكم علاقته بمرضعته ينعطف إليها ويحبها أكثر مما يحب أمه. وهذا سبب من أسباب كراهية الأمهات للحاضنات، فيطردهن ويمنعنهن من رؤية الطفل كي ينسى، ولا يخفى أن ذلك يترك أسوأ الأثر في نفس الطفل؛ لأنه يعلمه الجحود حتى بأعز الناس إليه.

وحريّ بالأمهات أن يلتزمن بواجباتهن التي خلقن لها؛ لأن الحرمان من لبن الأم مصدر لجميع الشرور.. ووجود المرضعات ينفر الأزواج، فهن بمثابة المفتاح لفك أواصر الأسرة وحل رباطها؛ لأن كل فرد من أفراد الأسرة –حتى الأم– ينصرف لشأنه، فلا يتحابون.. وبذلك يلتمسون البهجة خارج جدران البيت.

أما إذا أقبلت الأمهات على إرضاع أطفالهن، ففي ذلك صلاح الحال والأخلاق تلقائيًا؛ إذ تتقد العواطف وتزكو روح المحبة، ويجتمع

الشمل ويكون للحياة البينية سحر وجاذبية هما أفضل ترياق للأخلاق، فتمسى ضجة الأطفال محببة لا مبعث ضيق، ويحل الإعزاز محل النفور ويزداد رباط الزوجية توثقًا، فترتد النساء أمهات والرجال آباءً وأزواجًا.

إننا إذا افتقدنا الأم افتقدنا الطفل، فالصلة بينهما متواصلة والواجبات متبادلة.. وحيث تكون الإساءة من جانب يكون الإهمال من جانب آخر؛ لأن الطفل يحب أمه قبل أن يعرف أن هذا واجب. وما لم يجد نداء الدم تأييدًا بالتعود والرعاية، فسرعان ما يخفت ويموت مبكرًا، وبذلك نكون قد خرجنا على الطبيعة.

ومن ناحية أخرى، نرى أمهات يبالغن في واجباتهن فيتخذن من أطفالهن معبودًا، ينمين فيهم الضعف، ويدللنهم وينشدن إعفاءهم من نواميس الطبيعة ليجنبنهم الآلام. وهن لا يدرين أنهن بشفقتهن تلك يهلن على رءوسهم النكبات؛ إذ يشبون على الضعف ولا يستطيعون مواجهة الحياة في جلد.

وليس أجدى من إتباع نواميس الطبيعة فهي التي تنير السبيل؛ لأنها تعمل على تمريس الأطفال بالأحداث، وتعلمهم منذ النشأة كيف يكون الألم.. فالأسنان لا تنبت إلا بالحمى، والسعال يكاد يخنقهم، والديدان تضنيهم، والكائنات الطفيلية تعرضهم للكثير من الأخطار حين تقسو عليهم.. تمهد الطفولة الأولى سلسلة من الأمراض والأخطار والتقلبات.

تلك هي سُنة الطبيعة، فلماذا نتنكر لها؟ أليس التفكير في تصحيحها تقويضًا لعملها.. تخبرنا التجربة أن الأطفال المرفهين عرضةً للموت أكثر

من سواهم. فمن الخير تمرين الأطفال على احتمال المتاعب لأنها ستواجههم يومًا ما. ومن الخير تقوية أجسامهم بتعريضها للأجواء المختلفة وبالجوع والعطش والتعب.. فالطفل أكثر احتمالًا من الرجل.

وتزداد قيمة الطفل بتقدمه من العمر لأنه يكون بحاجة إلى مزيد من الرعاية.. فمن الخير أن نسلحه ضد أخطار الشباب، وحياته تكون أثمن وأجل بتعريضه لمخاطر يستفيد منها قوة ومناعة. ومن الحماقة تجنيبه الآلام في طفولته؛ لأنها تتضاعف كلما تقدمت به السن.

كُتِب العذاب على الإنسان منذ الأزل.. وما أسعد من لم يعرف في طفولته سوى آلام الجسد؛ لأنها هينة إذا قيست بغيرها، وقلما تدفع إلى التخلي عن الحياة ولكن الويل كل الويل من عذاب الروح الذي يدفع إلى اليأس وإلى الهلاك؛ لأنه أشد الآلام التي تأتينا من قبل نفوسنا إرهاقًا.

إن الطفل يستهل حبه بالبكاء منذ أن يولد.. ويقضي طفولته المبكرة في البكاء، وندله أحيانًا أو نهدهده ونترضاه كي يكف عن البكاء، وأحيانًا نتوعده وننهره أو نضربه كي يهدأ.. أو نأتي ما يرضيه أو نطلب منه ما يرضينا، أو نخضع لنزواته أو نخضعه لنزواتنا، دون أن نتخذ موقفًا وسطًا، فهو إما آمر أو مغلوب على أمره. وبذلك تكون أولى المعاني في نفسه إما التحكم أو الخنوع.. فهو قبل أن ينطق بالكلام يأمر بالإشارة، وقبل أن يتعلم العمل يطيع ويستكين. وقد نعاقبه أحيانًا قبل أن يعرف فيمَ أخطأ، بل وقبل أن يخطيء.

وهكذا تتولد في الطفل منذ النشأة والبداية بذور الشر التي تتأصل فيه حين يشب عن الطوق، ثم بعدها نملأ الدنيا بالشكوى منه.

الأب والمربي

إن السنوات الأولى الست أو السبع من حياة الطفل، يقضيها بين أيدي النساء وتدليلهن وتوجيههن حيث يكون خلالها فريسة لنزواتهن ونزواته.. ويعلمنه لغوًا لا يفقه له معنى أو أمورًا لا نفع فيها، ويخنقن فيه الاستعداد والفطرة بمستحدث الأفاعيل، فتتكون فيه عجينة مصطنعة، ثم يلقين به إلى مربٍ يتم ذلك الاصطناع فيتجه به إلى شتى النواحي فيما عدا معرفته لنفسه وإدراكه لمواهبه وحسن إفادته من الحياة سعيًا وراء السعادة.

وليس عجيبًا والحال هكذا، أن يشب الطفل طاغيًا جبارًا وخانعًا ذليلًا في آنٍ واحد، محشوًا بالعلم ومجردًا من الفهم، واهن النفس والروح ضعيف الجسم والبنية. وسرعان ما تنكشف سوآته في خضم الحياة فيظهر خوره وتتجلى نقائصه ورذائله.. فهو بذلك نموذج للخساسة البشرية ونمط من أنماط المسخ والضعة. إنه بذلك ليس البشير السوي المرتجي، ولكنه من صنع أيدينا وجهالتنا.

وإذا أردنا الاحتفاظ بالصورة الفطرية للطفل يجب أن نحفظها عليه منذ أن يرى نور الدنيا.. وواجب الأم وواجب الأب أن يلزماه وألا يغفلا عن رعايته إلى أن يستوي رجلًا.. فهذا هو الطريق القويم.

ومثلما تقوم المرضع بواجب الأم والمربي بواجب الأب يجب أن يكون التوافق تامًا بين قيامهما بمهمتيهما في النظام وفي المنهج. وفي رأيي

أن أقل الآباء تسامحًا وثقافةً يمهدون للطفل تربية أفضل مما يمهده أفضل الفلاسفة أو الأساتذة؛ لأن الإهتمام يغني عن البراعة.

ولكن ما الحيلة في الشواغل والمناصب والواجبات.. نعم، الواجبات التي لا شك أن أهونها شأنًا واجب الأب نحو ابنه.

وإذا عرفنا كيف كان «أغسطس» إمبراطور ألمانيا وعاهلها الأعظم يقوم على تعليم أحفاده بنفسه شتى العلوم وفنون الرياضة، لعجبنا لأمر من يتذرعون بمشاغلهم فيهملون أبناءهم.

وليس أبعث للزراية من أم تترفع عن إرضاع طفلها، وأب ينأى عن تربيته وتعليمه، مع أنه ليست هناك صورة أروع من صورة الأسرة التي يجتمع فيها الشمل ويسود التوافق.. فإذا نقص منها عنصر فسدت، وأدركها التفكك، ولحقها الإنحلال. وإن كانت صحة الأم لا تساعدها على إرضاع ابنها، وشواغل الأب تحول دون تربيته ورعايته، فمصير الأولاد إلى المراضع ومآلهم إلى المدارس يتلمسون في البيت الحب والدفء والحنان، ويشعرون بإنعدام روابط الأسرة حتى أن الأخ لا يهتم بأخيه أو أخته.

وتعجز الأسرة من أن تتيح للأبناء تذوق عذوبة الحياة، إذا إنعدمت الألفة والمودة بين الوالدين. وعندئذٍ يرتمي هؤلاء الأبناء التعساء في بؤر المباذل وأوكار الرذائل يستعيضون بلذاذاتها الخبيثة عن الهناء الذي يفتقدونه.

إن الأب حين ينفق على أبنائه إنما يؤدي ثلث واجبه، فهو مطالب بتقديم رجال لنوعه، وأعضاء صالحين لمجتمعه، ومواطنين مخلصين لبلده..

فمن يتقاعس عن ذلك فقد قصر وأجرم. وبالمثل، بل أكثر إمعانًا في الجرم، من ينهض بالبعض دون البعض. والأب الذي يعجز عن النهوض بواجبات الأبوة ليس جديرًا بتلك الأبوة، فليس هناك عذر يعفيه من ذلك الواجب المقدس، والويل كل الويل لمن يقصر أو يتقاعس لأنه سيصلى من عذاب الضمير الذي لا يرحم، مالا طاقة له بإحتماله.

وما الحيلة في أمر رب الأسرة الثري الذي تستنفد شواغله وأعماله معظم وقته، وتضطره تلك الظروف –في إعتقاده– إلى إهمال شئون بيته؟!

إنه يكل إلى غيره شئون واجباته الأبوية، فهل يؤجر بالمال من يؤدي هذه الواجبات المقدسة، وهل يؤديها بالعاطفة التي يؤديها بها الأب؟.. إنه في الواقع لا يأتي بعوض عن الأب أو المربي أو المعلم، بل يستأجر خادم يتوهمه أستاذًا، لا يكتسب منه الفتى سوى شمائل الخدم.

لا بدّ من الاختيار

واجب الأب حين يتخير لابنه مربيًا يقوم على تنشئته أن يتحرى في ذلك المربي جميع المزايا التي تتيح له النهوض بهذا العمل الخطير على أكمل وجه في نزاهة وإخلاص، وعاطفة صادقة، وعلو همة، وكفاية في العقل، واستشعار بالأبوة في القلب.

ولإيضاح هذه الصفات وبيان طرق التربية، سأفترض وجود تلميذ وهمي، وأفترض في نفسي جميع هذه المزايا التي تؤهلني لأن أنهض على تربيته وإرشاده وتدبير أمره منذ ولادته إلى أن يستوي رجلاً كاملًا يعتمد على نفسه. وهذا النهج يبدو مجديًا مع شخص لا يأمن جانب الزلل، حتى لا يشتط في أحلامه ويضل في آرائه. وسيكون واضحًا هل يتماشى في مذهبه مع أطوار الطفولة النامية والاتجاه الطبيعي للقلب البشري أم لا؟

إنني أوضح الأمر على ما فيه من صعاب وعقبات، مكتفيًا بإيراد المباديء التي لا يتسرب الشك إلى أحد في صدقها وواقعيتها، أما ما يحتاج منها إلى برهان فقد طبقتها تفصيلًا على تلميذي «إميل»، لأسهل له سبيل العمل بها على ضوء تلك التفاصيل، وسأترك للقارئ بعد ذلك تقدير مسعاي ومدى توفيقي.

وقد كان اقتصادي في الكلام عن «إميل» قبل الآن لأن مبادئي الأولية عن أصول التربية رغم تناقضها للمبادئ السائدة، تدخل في نطاق

البديهيات التي لا يرفض أن يسلم بها إنسان. وسيتبين فيما بعد أن تلميذي «إميل» الذي آخذه بتوجيه يختلف عن التوجيهات السائدة، ليس طفلًا عاديًا كسائر الأطفال، وأنه لا بدّ له من نظام خاص به لكي يزداد ظهوره على المسرح، ولا أفارقه إطلاقًا إلى أن يستقل بنفسه.

قلت أنني أفترض في نفسي جميع المزايا التي يجب أن تتوفر في المربي المثالي، وأشير هنا إلى رأي مخالف لما درج عليه الناس، وهو أنه ينبغي أن يكون المربي شابًا لأن الشباب جذوة وحكمة. وأنا أريد بذلك أن يكون هو نفسه طفلًا لو كان هذا مستطاعًا، وألّا يجد حرجًا في مصاحبة تلميذه وكسب محبته وثقته بمشاركته في لهوه ومباهجه.

وأنا على خلاف الرأي القائل بأنه يجب أن تكون للمربي خبرة سابقة، ففي إعتقادي أن الشخص لا يستطيع أن يقوم إلا بتربية واحدة في حياته.. كما أنني لا أهضم مبدأ التمرين قبل الممارسة، وإن كان المران أو الخبرة معوانًا على الإتقان. وغني عن الإيضاح أن الشقة بعيدة والبون شاسع بين من يتعهد فتى أربع سنوات فقط، ومن يتولاه ويرشده مدى خمسة عشر عامًا.. البعض يعهدون بأولادهم الى المربي بعد أن يولدوا، أما أنا فأريد للطفل مربيًا قبل أن يولد.

بوسع المربي الأول أن يستبدل تلميذًا بآخر كل بضع سنوات، أما المربي الذي أشير اليه فعمره لن يتسع إلا لتلميذٍ واحد.. فأنا لا أعرف تنوعًا في مراحل التربية والتعليم، بل أعرف علمًا واحدًا يلقن للأطفال، هو علم واجبات الإنسان، إنه علم لا يقبل القسمة ولا يتجزأ. ولهذا أميلُ إلى

إطلاق لفظ المربي على المعلم أو المؤدب؛ لأنه سيتولى الإرشاد أكثر من تلقين العلم. ومن الأصول التي يجب أن يلتزم بها ألا يقدم الوصايا أو النواهي، بل يمهد لها ويوجه التلميذ إلى الكشف عنها.

ولئن كانت خطورة المهمة تقتضي حسن اختيار المربي والتدقيق في ذلك الاختيار، فمن الانصاف أن نترك للمربي اختيار تلميذه، لاسيما وأننا نتوخى المثالية في الاثنين، دون نظر إلى نبوغ التلميذ أو ذكائه أو أدبه، فنحن سنظل نجهل كل شيء عن ذلك حتى نهاية مرحلة التربية. وسنتوخى تربية التلاميذ العاديين جدًا، متوسطي الذكاء، وسأفترض ذلك في «إميل».. فالتلاميذ العاديون خير مثال يحتذى في تعليم نظرائهم، بعكس من يتمتعون بذكاء خارق.

ولا شك في أن الأجواء المعتدلة لها أحسن الأثر على التعليم، وللتأثير المناخي المتطرف بالغ السوء في هذه الناحية.. ولهذا نجد أن ابن الإقليم المعتدل حين ينتقل إلى إقليم متطرف المناخ، لا تشتد عليه وطأة المناخ الجديد؛ لأنه كان في مناخ وسط معتدل.

فإذا افترضت أني أريد لتلميذي أن يكون صالحًا لتحمل كافة الأجواء، فإني أفضل أن يكون من أهل البقاع المعتدلة.. إذ يبدو لي أن تكوين المخ في المناطق المتطرفة أقل كمالًا منه في المعتدلة، فالزنوج والإسكيمو ليسوا في توقد الأوربيين ذهنًا.

وهناك ظاهرة غريبة هي أن أهل الشمال يستهلكون الكثير بينما مواردهم ضئيلة وأرضهم جدباء، وأهل الجنوب ضعيفو الإستهلاك مع أن

مواردهم وفيرة وتربتهم غنية سخية. وينجم عن ذلك أن الشماليين ذو نشاط ومثابرة، بينما يغلب الخمول والاسترخاء على الجنوبيين.. كذلك نجد في كل مجتمع فروقًا كالتي بين الفقراء والأغنياء، فالفقراء يلوذون بالأرض الجدباء الشحيحة والأغنياء يمرحون في الأرض الخصبة السخية، وتربية الفقير أمر مفروغ منه، فظروف بيئته تفرض عليه تربيتها بينما يفرض المركز الاجتماعي على الثري تربية لا تلائمه من ناحية ذاته ولا من ناحية مصلحة المجتمع.

والمفروض أن تعد التربية الطبيعية للإنسان كي يصلح للحياة في جميع الظروف البشرية، فمن الخطأ أن نربي الفقير تربية من سيكون في بحبوحة من العيش، وبالعكس لا نربي الثري تربية من سيعيش فقيرًا.. بيد أن الأولى أسوأ من الثانية؛ لأن المُشاهد أن من يثرون بعد إدقاع أقل ممن تصيبهم الفاقة بعد ثراء. ومن الأفضل أن أختار تلميذي من طبقة الأثرياء لنصقل منه رجلًا لو أعوزته عناية المربي لما كان ذلك من تلقاء نفسه.. ذلك لأن الفقير يربي نفسه للمستقبل الذي يُنفق مع طبقته تلقائيًا.

ولا يضيرني أن يكون «إميل» من أصل عريق؛ لأنني بذلك أنقذ فريسة بريئة أطهرها من أباطيل موروثة.. ولأفترض أنه يتيم، فماذا يعنيني من أبيه أو أمه ما دُمتُ سأنهض بأعبائهما وأتولى حقوقهما.. ويتحتم عليه ولا شك احترامهما ولكني أنفرد بطاعته دون سواي، فهذا هو الأساس الذي أشترطه لقبول رعايتي له. كما أحب ألا يفرق بيننا إلا بمحض إرادتنا، وهذا شرط جوهري لأني أريد أن يندمج التلميذ مع مربيه كأنهما شخصٌ

واحد لهما نظامٌ مشترك موحد.. فإذا استشعرا أنهما سيفترقان يومًا ما دب الإحساس بالغربة فيهما توًا. والألفة ثابتة إذا نظر إليها على أنها خالدة. ويتولد عن الشعور بالفراق أن كلًا منهما سينظر إلى المستقبل من وجهة تختلف عن وجهة الآخر، وبذلك لا يصفو الجو.

وإذا كان الرباط بين التلميذ والمربي ليس متينًا، فإن الأول سينظر إلى الثاني على أنه يشي بطفولته.. وينظر الثاني إلى الأول على أنه عبء ثقيل يتلهف إلى الخلاص منه، فينجم عن ذلك أن تصاب همة المربي بالقصور ويضعف إنقياد التلميذ. أما إذا نظرا إلى علاقتهما على أنها مستمرة خالدة، فإنهما سيتحابان.. وبذلك يكن كل منهما ألغَ عزاز للآخر وتزول بينهما الكلفة، فلا يخجل التلميذ من الإنقياد لصديقه الذي سيلازمه أمد الدهر. كما أن المربي سيتعهد تلميذه في همة وإخلاص، فلا يضن عليه بشيء لأنه سيسعده يومًا أن يرى ثمرة جهوده.

ويجعل بنا أن نفترض أن الولادة كانت سهلة، وأن الطفل بديع التكوين ذو بنية قوية. فالوالد لا يختار ولده، وليس له أن يفاضل بين أفراد الأسرة، فجميع أبنائه سواسية، عليه أن يعدل بينهم في رعايته وبره وحنانه، لا فرق بين وسيم وقبيح أو بين هزيل وصحيح.. لأن الزواج عقد تدخل فيه الطبيعة طرفًا ثالثًا. والأطفال ودائع يؤدي عنها الأب حسابًا إلى من منحته إياها وهي الطبيعة الخالقة.

وأن من يقبل رعاية تلميذ هزيل أو ذي عاهة يمسي ممرضًا، وتضيع جهوده هباء لأنه يعني بحياة لا جدوى منها، مقضي عليها، فيعرض نفسه

للوم ذات يوم. وليس بوسعي أن أتعهد تلميذًا هزيلًا عليلًا حتى وإن عمر إلى الثمانين، فما جدواه لنفسه أو لسواه، وكل همه ليس إلا التفكير في صحته وإعتلاله، وعلة جسمه تعوق تربية روحه.. وأنا بذلك كأني أزرع في صخرة صلدة لا تنبت، ولا أرى إلا أن أرثي لمن يقبل أن يتولى مثل هذا العليل الذي لا يفكر إلا في تجنب الموت.

فمن الواجب أن يكون الجسم سليمًا قويًا حتى يحسن طاعة الروح، فالتابع الصالح يجب أن يكون متين البنية.. والتطرف يثير الشهوات، وينهك الجسم، ويضنيه على طول المدى. والتقشف يؤدي إلى النتيجة نفسها عن الطريق مضاد. وكلما ضعف الجسم اشتدت حساسيته وسلطانه، وكلما كان قويًا كان أكثر طاعة وانقيادًا. ومن الملاحظ أن الشهوات الحسية تغلب في أجسام المخنثين، فيزداد انفعالهم بعجزهم عن إشباع تلك الشهوات.

والجسم الهزيل يؤثر في الروح ويضعفها، وهنا يتدخل الطب بسلطانه الذي أرى أنه أبلغ ضررًا من الأمراض التي يزعم شفاءها. وأنا شخصيًا أجهل كنه ما يفعله الأطباء، وأعتقد أنهم لا يبرئوننا من أمراضنا، بل يصيبوننا بأمراض أشد وبالًا كالجبن والسذاجة والغفلة والفزع من الموت. وهمهم ينصب على الأجسام، ولكنهم يقضون على الشجاعة والإقدام. وما الفائدة من تنشط جثث كانت هامدة.. إننا بحاجة إلى رجال، يعجز الأطباء عن مدنا بهم.

وفي رأيي أن الطب موجة شائعة الذيوع، وأنه ملهاة الخاملين وأهل

البطالة، لا يدرون ماذا يصنعون بأوقاتهم فينفقونها في صيانة أجسامهم. ولو أنهم كانوا خالدين لكانوا أشقى أهل الدنيا لأن حياتهم حينئذٍ لن تكون ذات قيمة فلا يهتمون بها ولا يلقون إليها بالًا. ويلجأ الناس إلى الأطباء كي يشعروا بالانشراح حين يصب هؤلاء في آذانهم عبارات الطمأنينة نحو سلامة صحتهم.

ولن أخوض طويلًا في أمر بطلان الطب وزيفه، ولكني أنظر إليه من الجانب الأدبي والأخلاقي، ولا أستطيع أن أغالب اعتقادي في أن الطب كالسفسطة في البحث عن الحقيقة. ويزعم الناس أن المريض يُشفى بالعلاج، ناسين أو متناسين أنه في مقابل كل مريض يُشفى يموت على أيدي الأطباء مائة آخرون!

وأنا لا أنكر أن العلم الذي يغذي العقل ويثقف النفس، والطب الذي يعالج المرض، شيئان جميلان بغير شك.. ولكن يجب علينا أن نعرف في الوقت نفسه أن العلم الذي يضل والطب الذي يهلك شيئان قبيحان، فعلينا أن نفرق بين الطيب والخبيث وبين الغث والثمين.. وهذا هو بيت القصيد فلو عرفنا كيف نتجاهل الحقيقة لما غدونا ضحية للأكاذيب، ولو عرفنا كيف نأبى الشفاء الذي يتعارض مع الطبيعة لما أمكن أن نموت بيد الطبيب. وهذان بلا شك أمران جديران بعنايتنا لأن فائدتهما عظيمة إذا أتبعناهما، وإن كنت لا أنكر أن الطب نافع لبعض الناس، إلا أنني أعتقد أنه ضار بالنوع البشري بصفة عامة!

يقال: أخطأ الطبيب أما الطب فلا غبار عليه ولا عيب فيه.. فهل لم

يصدر هذا عن ذاك.. إذن أهلًا بالطب دون الطبيب، والويل لنا أن جاءا معًا، فالخوف من خطأ اليد أفدح من الأمل المعقود على الفن.

إنه فن خادع ذلك الذي جعل لأمراض النفوس أكثر مما للأجسام، إذ لا خير فيه لهذه، ولا لتلك، فهو يشيع الذعر في نفوسنا مما يشفينا، ويذكرنا بالموت ويجعلنا أكثرإحساسًا به، ويضني النفوس وينال من الحياة أكثر مما بدعها هادئة مطمئنة. وأكثر من ذلك فإنه يعوقنا عن أداء واجباتنا بسبب الفرع الذي يشيعه فينا، فلا شيء يهز الكيان أكثر من معرفة المخاطر.

واذا أردت أن تلتمس رجالًا ذو بأسٍ وشجاعة، تجدهم حيث لا يوجد أطباء، وحيث لا يفكر الناس في الأمراض وعواقبها أو في الموت، فالإنسان مفطور على التجلد وعلى مواجهة الموت في سلام.. وليس الأطباء والفلاسفة والكهان سوى أدوات دمار، توهن القلب وتولد في الإنسان الإحساس بدنو الموت.

فأنا أحتاج إذن لتلميذ بعيد عن هؤلاء الثلاثة، وإلا فلا جدوى من جهودي معه.. إنني أريد أن أستقل به وحدي لا يشاركني في تربيته أحد. وها هو ذا الحكيم «لوك» يوصي بعدم إعطاء العقاقير للأطفال لا للوقاية ولا للعلاج وقد درجت أنا على عدم استدعاء طبيب لنفسي، وهكذا سأفعل مع «إميل» إلا إذا تعرض لخطر محقق، فعندئذٍ لن يكون في وسع الطبيب أن يصيبه بما هو شر من الموت الذي يتهدده!

وقد يتعلل الطبيب بأنني لجأت إليه بعد فوات الأوان إذا قُدر للطفل

أن يموت، بيد أنه يزهو بنفسه إذا قُدر للطفل الشفاء. وهذا لا يهمني، وأنا لا أشي باستدعاء الطبيب إلا في لحظة اليأس. وعلى الطفل أن يتعلم كيف يمرض إذا لم يعرف كيف يشفي نفسه، فكثيرًا ما يكون ذلك أبعد نجاحًا؛ لأن فن المرض هو فن الطبيعة، ويتعذب الحيوان ويتألم في صمت حينما يمرض، بيد أننا لا نرى حيوانات عليلة قدر ما نرى رجالًا معتلين!

وكم قضى أناس بالخوف والقلق والعقاقير، وكانوا حريين أن يبقوا وأنهم وكلوا إلى الزمن مئونة علاجهم وأحب أن يكون تلميذي على وفاق مع الطبيعة إذ يقال أن الحيوانات أقل تعرضًا للأمراض لهذا السبب.

وفي اعتقادي أن علم الصحة هو الجانب الوحيد المفيد من علم الطب، وأنا أَميل إلى اعتباره فضيلة أكثر منه علمًا.. فالاعتدال والعمل خير طبيبين للإنسان، فالعمل يشحذ الشهية والاعتدال يعصم من الإفراط فيها. ويجب أن نتحرى النظام الذي يتبعه أصح الشعوب أبدانًا وأطولهم أعمارًا لكي نتبين أصلح النظم للحياة وللصحة. فإذا وجدنا أن استخدام الطب لا يأتي بتلك النتائج، عرفنا أنه فن لا نفع فيه؛ لأنه يستنفد الوقت والرجال فيما هو هباء. وأعني بالوقت الذي ينفق في تعذيبنا والذي ينفق في تعليم الطبيب فنًا لا خير فيه.. والشخص الذي يعيش عشرة أعوام بلا طبيب خير ممن يعيش ثلاثين عامًا فريسة للأطباء.. ولما كنت قد جربت الحالتين فإن كلامي في هذا الموضوع عن خبرة ودراية!

لهذه الأسباب أريد تلميذًا صحيحًا قويًا، وتلك هي المبادئ التي سأسير عليها معه للإبقاء على صحته وسلامته.. ولست بحاجة لأن أنوه

بفائدة التمرينات الرياضية والبدنية، فهذا أمر لا ينكره أحد ولا يختلف فيه اثنان. وليس أدل على ذلك من أن أطول الناس أعمارًا هم الذين مارسوا كثيرًا من التمرينات البدنية، وأقبلوا على العمل غير مبالين بالتعب.. وسأتكلم عن ذلك بإسهاب عندما أتناول الموضوع من ناحية التطبيق عمليًا.

المرضع

إن حياتنا واحتياجاتنا توأمان، بمعنى أنهما يبدآن معًا في وقتٍ واحد. ولهذا يجب أن يكون للطفل مرضع منذ ولادته. وخيرًا يكون الأمر إذا قامت أمه بذلك الواجب ولها عندي في هذه الحالة تعليمات أهيب بها أن تتبعها في دقة وأمانة حرصًا على طفلها، وتقديرًا للشخص الذي ستعهد إليه قريبًا بهذا الكنز الذي لا تعدله كنوز المال.

أما إذا اقتضى الأمر اختيار مرضع غريبة فيجب تخيرها بعناية، وليس هذا بالأمر اليسير لأنه يتحتم في المرضع أن تكون مستوفية لجميع الشروط الصحية. ولما كان الأغنياء مطمعًا للناس، فقد درج هؤلاء على غشهم فيما يتعاملون به معهم. ويكل الثري اختيار المرضع للطبيب، وهذا بدوره يتخير من تسخر عليه بالعطاء مقابل تزكيتها دون نظر إلى الشروط الواجب توفرها، لذلك سأختار بنفسي مرضع «إميل» تدفعني الغيرة عليه.

وأجعل اهتمامي به عمر ونوع اللبن، فاللبن في أول إدراره يكون أشبه بالماء، وذلك لحكمة سامية.. فالمقصود به في أوله أن يكون غسيلًا لأمعاء المولود، وتزداد كثافته عندما يصبح الطفل أقدر على هضمه.

لهذا يستحسن أن تكون المرضع حديثة العهد بالأمومة هادئة تتمتع بصحة جيدة؛ لأن الكدر والانفعال يفسدان اللبن.. كما أن حسن الطبع لا يقل أهمية عن حسن التكوين، لذلك يجب في المرضع أن تؤدي عملها

بإخلاص وأن ترعى الوليد ليلًا ونهارًا، وأن تكون نظيفة أمينة تجعل الحنان رائدها.. فإن قصرت أو أهملت ساءت حالة الطفل الأعزل العاجز عن دفع الأذى، وفي اعتقادي أن اختيار المرضع لا يقل أهمية عن اختيار المربي.

وجدير بالذكر أنه ينبغي أن تهيأ جميع وسائل الراحة للمرضع، وأن تتناول من الأغذية ما يصلح صحتها ويكثر من إدرار لبنها، ولكن دون تغيير كبير في أسلوب حياتها. والفلاحات يعتمدن في طعامهن على الخضر أكثر مما يعتمدن على اللحوم، وهو نظام يبدو أنه أجدى عليهن وعلى أطفالهن.. فإذا جاءت مرضع من الريف لتكفل رضيعًا من أهل المدينة، قدم إليها ذووه أطباق اللحم على غير عادتها ظنًا منهم أن ذلك يعينها على أداء عملها على الوجه الأكمل. ولكن الذي يحدث أن ذلك له أسوأ الأثر في الأطفال، ويجعلهم معرضين للإصابة بالديدان أو المغص.. ذلك لأن المادة الحيوانية في اللحم تحفل بالديدان بعكس المادة النباتية.. واللبن مادة نباتية وإن كان نتاجًا حيوانيًا كما أثبت التحليل ذلك!

ومن المُشاهد أن لبن الإناث من الحيوانات آكلة الأعشاب ألطف وأطيب مذاقًا من لبن الإناث آكلة اللحوم، واللبن الأول أقل عرضة للتعفن. أما من ناحية الكمية فالنشويات تزيد الدم فلا بدَّ أنها تدر اللبن. وأعتقد أننا إذا فطمنا الطفل على أطعمة نباتية، وكانت مرضعته تتغذى بأطعمة نباتية، لا يمكن أن يصاب بديدان الأحشاء!

ومن الجائز أن الأطعمة النباتية تدر لبنًا سريع التحمض بيد أنني أرى أن هذا اللبن لا يضر الصحة.. فاللبن الرائب والمخيض طعامان جيدان،

وكل لبن يصيبه التحمض في المعدة، فإن لم يتحمض لا يكون نافعًا.

وإني لأرى أن الأفضل ألا نغير من الطعام الذي تعودته المرضع، بل نتوخي زيادة الكمية واختيار الصنف. والطعام في حد ذاته لا يؤذي، ولكن طريقة صنعه هي التي تؤذي؛ لذا يجب الإقلاع عن قلي الطعام أو تخميره.. كذلك أشير بعدم وضع الزبد أو الملح أو اللبن على النار، وأن تملح الخضر المطبوخة بعد وضعها على المائدة. والطعام الذي لا ملح فيه ولا دهن يجعل حرارة المرضع معتدلة ويكثر من إدرار لبن كثيف، فمن الخطأ إذن أن نقول أن الطعام الحيواني أجدى للمرضع من الطعام النباتي.والهواء النقي عامل عظيم الأهمية والفائدة في تكوين بنية الطفل ولاسيما في سنيه الأولى؛ إذ ينفذ من مسام جلده الغض فيكسب الجسم قوة.

وكما أشير باندماج الطفل بمربيه، كذلك أشير باندماجه بمرضعته في كافة ظروفها الطبيعية.. وسبق أن أوضحت ما في ذلك الاندماج من فائدة.

لم يخلق الله البشر ليحتشدوا في أوكار، بل لينتشروا في جنبات الأرض الواسعة يزرعونها ويحصدون ثمارها.. فإذا تكدسوا في مكان فسد حالهم، فالمرض والرذيلة يجدان في المدن المزدحمة مرتعًا خصبًا.لم يخلق الإنسان ليعيش حياة القطعان، فإذا احتشدوا كالماشية ماتوا.. ذلك لأن أنفاس الإنسان تقتل أخاه الإنسان!

يتهافت الناس على المدن فتزدحم بساكنيها، ثم تفتك بهم حين تتفشى الأمراض، ويشيع الانحلال وتصاب السلالة بالهزال، وليس من

سبيل إلى تجديد حيويتها إلا عن طريق الريف.. فإليه ادفعوا بأولادكم كي يتجددوا في الحقول المترامية وينعموا بالهواء النقي، ويعوضوا ما استهلكه من عافيتهم هواء المدينة الفاسد!

العناية التمهيدية

درج الناس على أن يستحم الطفل متى ولد بماءٍ دافئ.. بيد أنني أرى أنه لا داعي لتسخين ماء الحمام الأول، وكثير من الشعوب تدفع بأطفالها على أثر ولادتهم مباشرة إلى مياة الأنهار أو البحار.

إننا نجني على أطفالنا –قبل ولادتهم– بالرفاهية الشديدة، وبما في والديهم من رخاوة ونعومة، فيولدون ضعفاء لا يتحملون المباغتة في الظروف الطبيعية التي تتكفل باستعادة صحتهم، ورويدًا رويدًا نعود بهم إلى الحالة الطبيعية، فنبدأ بالحمام الذي يحسن –بل يجب– أن نكثر منه لأن سرعة اتساخ الأطفال تستلزم ذلك. وإذا عمدنا إلى طريقة مسح أجسادهم دون استحمام نأذي جلدهم، وشيئًا فشيئًا بمرور الأيام نقلل من درجة حرارة الماء حتى يتعودوا على الاستحمام بالماء البارد صيفًا وشتاءً.. بيد أنه يجب مراعاة الدقة في التدرج بنقصان درجة الحرارة.

وعندما يتعود الطفل على الاستحمام بالماء البارد، فلا ينبغي العدول عنه، بل يستمر على ذلك طول حياته، ففائدة ذلك ليست من ناحية النظافة فحسب، بل لأنها تكسب عضلات الجسم مرونة تتحمل بها الجهد والحرارة والبرودة. وعندما يكبر الطفل وينمو سأعوده بالتمرين على الاستحمام بين الحين والحين في ماء ساخن في درجات الحرارة التي يطبقها.. ثم في درجات البرودة المختلفة وعندما يلهث الطفل بأنفاسه الأولى لا توثقوه بالأقمطة المشدودة، ولا تدفنوا رأسه في الطواقي.. بل ينبغي أن

تكون اللفائف واسعة فضفاضة تتبع لأطرافه حرية التحرك، من أقمشة خفيفة لا تعوق الحركة ولا تحول دون نسمات الهواء. ومن العادات الممجوجة عند أهل المدن أنهم يخنقون أولادهم بهواء البيوت الراكد المحبوس وبالأدوية الثقيلة، وما علموا أن الهواء الطلق لا يؤذي أطفالهم بل يكسبهم قوة، بينما الهواء الحار الذي لا يخلو من تلوث يضعفهم ويصيبهم بالحمى التي تفتك بهم وتقضي عليهم.

ويجب أن يكون مهد الطفل واسعًا حتى تتيح له الحركة في سهولة، ويكون له سياج يقيه خطر الوقوع منه. وعندما يشتد عود الطفل يترك لنفسه حيث يحبو ويدرج في الحجرة، وليتمتع بكامل حريته كي تنمو أطرافه يومًا بعد يوم. وأخيرًا قارنوا بين هذا الطفل وبين طفلٍ آخر في مثل سنه ولكنه حبس في قماطه.. وسيذهلكم بلا شك البون الشاسع بين الطفلين.

وستضيق المرضعات بهذا الرأي من جانبي.. لأن الطفل المشدود إلى القماط لا يجهدهن كالطفل الطليق الذي يحتاج إلى يقظة لا تغفل. كما أن قذارة الطفل الطليق أكثر، وحاجته إلى التنظيف أشد.. فعليكم بمراقبة أولئك المرضعات ومشاركتهن في خدمة الطفل ونظافته ورعايته. وعلى المربي أن يشترك بنفسه في ذلك كله؛ لأنه بذلك سيتعلم القواعد الأولى للتربية على يد الطبيعة نفسها. ويجب عليه أن يراقب المرضع على الدوام حتى لا تأتي مع الطفل ما يناهض تيار الفطرة، عن جهالة أو عن لؤم!

لا بدَّ من التدرج

سبق أن ذكرت أن تربية الرجل تبدأ منذ مولده، فهو يتعلم قبل أن يتكلم، بل قبل أن يفهم، فالتجربة له أول معلم.. ومتى عرف مرضعته، فقد عرف الكثير.. وأنه ليأخذك العجب إذا تتبعت معارف الرجل منذ ولادته. ولو أننا جعلنا المعرفة قسمين، أحدهما مشاع والآخر خاص بالعلماء، لكان الثاني ضئيلًا بالنسبة للأول. ولكننا لا ننظر إلى المعارف العامة؛ لأنها تتكون دون تفكير فيها.. بل قبل أن تصل إلى سن التعقل، ولا تظهر قيمة المعرفة إلّا بمراعاة التباين بين درجاتها.

والحيوانات أيضًا تكتسب كثيرًا من المعارف؛ لأن لها حواسًا تتعلم كيف تستخدمها، واحتياجات تتعلم كيف تحصل عليها وتكفيها. فهي تتعلم الأكل والمشي والطيران.. حتى صغارها فإنها تتأرجح في بداية محاولتها المشي إلى أن تتعلمه. وأساسًا على ذلك، فإن كل شيء بالنسبة للمخلوقات الحية، التي تحس، رهنٌ بالتعلم. ولو كان للنباتات حركة في المكان لوجب أن تكون لها حواس تكتسب بها معارف، وإلا كان مصيرها الانقراض.

وأولى إحساسات الطفل انفعالية، فلا شيء عند الطفل يخرج عن محيط اللذة والألم. وينبغي ألا نعوّد الطفل على عادة ثابتة كالحمل على ذراع واحدة، أو نجعله يستعمل يدًا أكثر من الأخرى، وألا يتعود الأكل أو النوم في أوقات معينة، أو يعجز عن البقاء بمفرده ليلًا أو نهارًا.

اتركوا له الحرية كي يتعلم القدرة على استعمال قواه تبعًا للعادة الطبيعية، وبذلك يكون سيد نفسه.. يفعل ما يفعله بمشيئته متى صارت له مشيئة. ويجب أن نتخير الأشياء التي نطلعه عليها متى بدأ في التمييز، وكل جديد يثير الاهتمام بالطبع.. ولشعوره بالضعف يخشى ما لا يعرفه، فإذا عوَّدناه على رؤية الأشياء دون أن يتأثر، قضينا على ذلك الخوف. والأطفال الذين لا تعشش العناكب في بيوتهم، يخافون تلك العناكب إذا وقع عليها نظرهم.. وقد يلازمهم ذلك حتى بعد أن يكبروا، بيد أن أطفال الفلاحين لا يخافونها لأنهم تعودوا رؤيتها.

ولما كان اختيار الأشياء للطفل كافيًا لجعله خوافًا أو مقدامًا، فلماذا لا تبدأ تربيته قبل أن يتكلم ويفهم؟.. أريد أن يتعود الطفل كل جديد، حتى الحيوانات القبيحة المقززة، لكن في هوادة وعن بعد حتى يألفها، وحينما يرى غيره يلمسها فإنه هو أيضًا يلمسها.. فذلك سيجعله لا يفزع من رؤية الوحوش حين يكبر. ولما كان جميع الأطفال يخافون الأقنعة، فسأبدأ بإطلاع «إميل» على قناع لطيف المنظر، ثم أدعُ أحدًا يضعه على وجهه وآخذ في الضحك، ويحذو الحاضرون حذوي ويضحكون.. فلا شك أن الطفل سيضحك مع الضاحكين. وشيئًا فشيئًا أعوده على رؤية مختلف الأقنعة حتى بشعة المنظر منها، فعندئذٍ لن يفزع بل على العكس سيضحك. ولن أخشى بعد ذلك أن يفزعه أحد بقناع، وهكذا أيضًا إذا أردتُ أن أعوده على سماع ضجة الأسلحة، أتدرج معه في سماع ضوضائها ورؤية شرارات انفجارها شيئًا فشيئًا وعندئذٍ لن يهتز لسماع طلقة البندقية أو المدفع.

وقلما يخاف الأطفال من سماع الرعد إلا إذا كان دويه فظيعًا يصطّك في عنف بجهازهم السمعي. وهم لا يخافونه إلا ودخل في روعهم أنه يقتل أو يؤذي، فإذا بدأ الذهن يفزعهم، فالعلاج في العادة التدريجية حتى يزول الفزع.

وفي باكورة الحياة تكون الذاكرة والمخيلة غير نشيطتين، فلا يتنبه الطفل إلا لما يؤثر في حواسه.. فإحساساته هي أولى مواد معارفه، وتقديم المحسوسات في نظام وتدرج هو بمثابة إعداد الذاكرة للإدراك. ولما كانت المحسوسات هي محور انتباه الطفل منذ البداية، فيكفي أن نبين له بوضوح العلاقة بينها وبين ما تحدثها. والطفل يميل بالفطرة إلى المس وتحريك كل شيء، فلا تعارضه في ذلك لأنه بهذه الوسيلة يتعلم ويتدرب.. فباللمس يحس بالحرارة والبرودة والصلابة والرخاوة، وبالتحريك يحس بثقل الأجسام وخفتها.. كما يميز الحجوم والأشكال والخصائص المحسوسة بالنظر أو باللمس أو بالتجسس أو بالإصغاء، ولاسيما بمقارنة النظر باللمس حينما يقدر بالعين الإحساس الذي يأتيه من أصابعه. والشم أيضًا الحواس نموًا لدى الأطفال.. فحتى العام الثاني لا يلوح أنهم حساسون للروائح العاطرة منها أو الكريهة.

وبالحركة نتعلم وجود أشياء ليست هي نحن.. وبحركة أجسامنا ندرك معنى الامتداد، وليس عند الطفل الحديث فكرة عن ذلك؛ لذا نراه يمد يده بطريقة واحدة ليقبض على شيء في متناوله أو بعيد عنه، فتبدو إشارته كأنها أمر يصدره إلى الشيء كي يدنو منه، أو إليك كي تحمله إليه، بيد أن الأمر

ليس كذلك لأنه لا يستطيع إمداد ذراعه أكثر من طولها. ولذلك يحسن التنقل به من مكانٍ إلى آخر ليتعلم من ذلك تقدير المسافات.. وعندئذٍ يجب تغيير المنهج، فبمجرد تخلصه من خداع الحواس، يتغير هدف مجهوداته.

والطفل يعبر في إشارات عن الضيق الذي يشعر به بسبب احتياجاته، ومن هنا صراخ الأطفال وبكاؤهم. وسبق القول بأن إحساساتهم انفعالية، فعندما تكون مرضية لهم يسكنون إليها ويستمتعون بها، وعندما تكون مؤلمة لهم يعبرون عن ذلك بلغتهم الخاصة طالبيين البرء. ولذلك نراهم في يقظتهم لا يستمرون في حالة عدم اكتراث، فهم إما ينامون وإما يصرخون.

وجميع لغاتنا السائدة مبتدعات فنية.. وقد طال البحث في هل هناك لغة طبيعية عامة بين الناس جميعًا؟ نعم هناك مثل هذه اللغة.. إنها لغة الأطفال التي يتكلمون بها قبل أن يتعلموا الكلام، وهذه وإن لم تكن لفظية، إلا أنها صوتية مفهومة.. ولكن استخدامنا للغاتنا أدى بنا إلى إهمال تلك اللغة ونسيانها؛ فعلينا أن ندرس الأطفال لنتعلم تلك اللغة على أيديهم. ولا شك أن الحواضن والمراضع أساتذة في تلك اللغة؛ لأنهن يسمعن ويفهمن ما يقوله لهن الرضعاء، وتدور بينهن وبينهم المحاورات الطويلة. بيد أن الكلمات التي ينطقن بها في محاوراتهن لا جدوى منها.. فالأطفال لا يفقهون معنى الكلمات، بل نبرة الصوت وطبقته.

وإلى جوار لغة الصوت نجد لغة الإشارة، وهي تعادلها نشاطًا وتأثيرًا، ولا تصدر الإشارة من يدي الطفل الضعيفتين، وإنما تَرتسم على وجهه.

وللطفل قدرة عجيبة على التعبير بوجهه الذي تتغير معالمه بين لحظةٍ وأخرى، فنقرأ فيه الابتسام والرغبة والفزع.. تظهر وتتلاشى في سرعة فائقة وكأنك ترى وجهًا بعد وجه.. وعضلات وجوههم أشد ليونة وأكثر مرونة بالقياس إلى عضلات وجوهنا.. ومع ذلك لا تكاد تنطق عيونهم الخابية بشيء، ولعل التعبير بها يقتصر على العواطف التي يعبر عنها بالنظرات.

والمرحلة الأولى من حياة الإنسان مرحلة ضعف وعجز وعوز، لذلك كانت أصواته الأولى شكاية وبكاء.. ويشعر الطفل بحاجاته وليس لها إليها سبيل، فيستدر المساعدة بالصراخ.. وإنه ليبكي حين يكون جائعًا أو ظمآن، وكذلك حاله حين يشعر بالبرد أو الحر، وأيضًا عندما يريد أن ينام فيبكي طالبًا من يهدهده.. فلغته واحدة في جميع الأحوال؛ لأنه لا يشعر إلا بنوعٍ واحد من عدم الارتياح هو ما في أعضائه من نقص دون تمييز بين مختلف الاحتياجات، فجميعها تبدو له في صورة الإحساس بالألم.

وتتولد العلاقة الأولى بين الإنسان وبين كل ما يحيط به من البكاءالذي يتوهم البعض أنه ليس جديرًا بالإهتمام.. وهنا تنشأ الحلقة الأولى من سلسلة النظام الاجتماعي بأسره. إن بكاء الطفل تعبير عن أنه غير مستريح وأنه بحاجة إلى شيءٍ ما، ولا يستطيع أن يكفي نفسه تلك الحاجة.. فنسعى نحن بحثًا عن تلك الحاجة لنكفيه إيَّاها. فإن لم نفعل أو لم نستطع فإنه يستمر في البكاء، فنترضاه ليسكت ونهدهده ونغني له كي ينام، وإن أصرَّ على البكاء ضقنا بذلك وهددناه.. وبعض المراضع لا يتورعن عن ضرب الطفل، ويالها من دروس يتلقاها المسكين في مستهل حياته.

وهالتني حادثة وحشية إن دلت على شيء فعلى القسوة وإنعدام الضمير، فقد ضربت مرضع الطفل الذي ترضعه فيبكي ثم سكت على الفور، فظننته أنه خاف منها وجال بذهني أنه سيشب خائفًا.. بيد أن ظني خاب، فقد كان المسكين مختنقًا من شدة الغيظ والقهر حتى لقد فقدَ أنفاسه وأصبح لونه يضرب للزرقة، ثم إذا به ينفجر في صرخات حادة تترجم عن اليأس والغضب، ونبراتها تعبير صوتي واضح عن انفعالاته.. فراعني أمره وخشيت أن يموت من شدة الانفعال!

وكلما خامرني الشك في أن عواطف العدل والإحساس بالظلم فطرية في قلب الإنسان كان هذا الحادث كافيًا لإقناعي بوجودها. وأنا على يقين من أنه لو أن شيئًا ثقيلًا سقط مصادفةً على يد ذلك الطفل، لكان ذلك أهون وقعًا على نفسه من تلك الضربة الهينة من يد مرضعته التي نهرته بها!

وواجبنا أن نستعمل الكياسة إزاء ما يبديه الأطفال من الاستعداد للغضب والسخط والاحتجاج.. لذا يجب أن يحال بينهم وبين الخدم الذين يثيرون غضبهم وأعصابهم ويستنفدون صبرهم؛ لأن مثل هؤلاء الخدم يكونون أشد خطرًا عليهم وفتكًا بهم من تقلبات الجو التي تؤثر في أجسامهم الصغيرة. إن الجهاز العصبي عند الأطفال شديد الحساسية.. وما دام الطفل لا يجد مقاومة من إرادة بشرية، فلن تتوتر أعصابه أو تعتل صحته.

وصيحات البكاء الأولى للطفل تشبه الضراعة، فإن أهملناها أو لم نفطن إليها تحولت إلى أمر واجب الالتزام بعد أن كانت طلبًا للعون، وعندئذٍ يتولد فيهم معنى السيطرة أو النفوذ. وهذه نتائج أخلاقية ليس

للطبيعة دخل فيها، وإنما سببها طريقة معاملتنا للطفل عندما يصبح صراخه وعيدًا، لذلك ينبغي تمييز السريرة الخافية وراء حركات الطفل وصيحاته.

والطفل حين يمد يده إلى شيء دون أن يتكلم، اعتقادًا منه أنه يصل إليه؛ لأنه لا يحسن تقدير المسافة، يكون مخطئًا.. فإذا شكا أو صرخ، فمعنى ذلك أنه لم يخطيء في تقدير المسافة وأنه يأمر الشيء بالاقتراب منه أو يأمر أن يُحمل إليه. ولعلاج الحالة الأولى يستحسن تقريب الشيء منه في بطءٍ شديد، وفي الحالة الثانية ينبغي تجاهل سماع صراخه لتعويده الإقلاع عن عادة الأمر. وإني لأرى إذا رغب الطفل في شيء أن يحمل الطفل إليه لا أن يحمل الشيء إليه، لكي يعتقد أن ذلك هو سبيله إلى الشيء.

والطفل لا ينزع إلى الشر إلا لشعوره بضعفه.. وتحطيمه لما يقع في يده ليس عن سوء نية، ولكن لحاجته إلى الحركة والانفعال. وليس لدى الأطفال قوى فائضة عن حاجتهم، بل على العكس فإن قواهم لا تكفي جميع مطالب طبيعتهم، لذلك ينبغي أن تتاح لهم حرية استخدام قواهم ما داموا لن يستطيعوا إساءة استخدامها في إيذاء أحد.. تلك هي الوصية الأولى.

أما الوصية الثانية، فهي أنه يجب أن نساعدهم ونمدهم بما ينقصهم من حيث الذكاء والقوة ما فيه الكفاية لاحتياجاتهم البدنية.

والوصية الثالثة، أنه يجب أن تكون مساعداتنا لهم في حدود المنفعة الفعلية وتحاشي كل ما يتصل برغبات أو نزوات غير معقولة؛ لأنه لا يترتب على عدم إرضاء النزوات ألم أو عذاب لأنها لا تمت للطبيعة بصلة.

والوصية الرابعة، أنه يجب دراسة لغة الأطفال الصوتية وإشاراتهم، كي نتمكن في سنهم المبكرة التي يعجزون فيها عن التمويه والخداع، أن نتبين في رغباتهم الطبيعي منها والنزوة أو الميل إلى التحكم والاستبداد.

والمقصود من هذه الوصايا الأربع إطلاق المزيد من الحرية للأطفال، مع الإقلال من تحكمهم، وتعليمهم العمل بأنفسهم لا حمل الآخرين على العمل لهم.. لكي يتعودوا أن تكون رغباتهم على قدر قواهم، ويشعرون بأن الحرمان أمر عادي لا يستوجب التحسر.

ثم لماذا لا يلجأ الأطفال إلى البكاء متى رأوا أنه الوسيلة للحصول على مبتغاهم ويتعلمون من ذلك مبلغ تقديرنا لسكوتهم، فيضنون علينا به ويظلون يستأدوننا ثمن ذلك السكوت المرة تلو المرة إلى الحد الذي يدركنا فيه العجز عن أداء مطالبهم. وهنا يصبح البكاء سلاحًا فاشلًا فإذا أصروا عليه أنهك قواهم وربما قتلوا أنفسهم!

إن البكاء المستمر من طفل ليس مريضًا أو مقيد الحركة، كامل الاحتياجات، إن هو إلا نتيجة تعود أو عناد، ليس من عمل الطبيعة. وقد تسيء المرضع التصرف حين تضيق بذلك البكاء، فتعمل على مضاعفته من حيث أنها تسكته!

والوسيلة المُثلى، ولعلها الوحيدة، للبرء من هذه العلة أو الوقاية من تلك العادة، هي ألا نلقي بالًا إلى بكاء الطفل. والطفل يصرُّ على أمل النجاح، فإذا جابهته بالصبر والعناد فقد الأمل وكف عن البكاء، ولا يعود إليه بعد ذلك. وبذلك نعوده على عدم البكاء إلا إذا كان عن ألم حقيقي.

وهناك وسيلة أخرى فعالة لمنع الطفل من الاسترسال في البكاء، وهي تلهيته بما يجذب انتباهه فينسبه ذلك ما كان شارعًا فيه. والمراضع الحاذقات يلجأن إلى هذه الوسيلة.. بيد أن أهم ما تجب ملاحظته ألا يفطن الطفل إلى نية المرضع التي تكمنُ وراء تلك الحيلة.

ولست على الرأي بفطام الطفل مبكرًا؛ لأن الأطعمة المغلية تنقصها عناصر التغذية، وخير منها مشتقات الخبز الخفيفة.

ومن ناحية الكلام، نشاهد أن الجميع يبدأون التعبير بمقاطع خفيفة مبسطة، وهنا أشير بعدم التشدد معهم في تصحيح النطق منذ البداية؛ لأن العيوب والأخطاء ستصحح تلقائيًا بمرور الأيام وتقدم العمر، دون صعوبة. والمهم أن تكون الألفاظ دقيقة في التعبير ما أمكن، والصوت واضحًا.

والأمر المشاهد أن جميع نواحي النمو الأولى في مرحلة الطفولة تحدث وتسير في وقت واحد؛ فالطفل يتعلم الكلام والأكل والمشي في آنٍ واحد تقريبًا.. وهذه ما نسميها المرحلة الأولى من الحياة. أما ما قبل ذلك –أي قبل أن يتعلم شيئًا من هذه الأمور–فليس شيئًا مذكورًا لايزيد كثيرًا عما كان وهو في أحشاء أمه، ليس به شعورحسي ولا هو صاحب فكرة أومعنى أولمحة.. وإنما كل رصيده في الحياة إحساسات عضوية، فهو لا يكاد يشعر بوجوده.. حتى لقد صدق من قال فيه:

– إنه يعيش، ولكنه يعيش جاهلًا أنه يعيش..

الكتاب الثاني

التربية الأخلاقية

علموهم الشجاعة

هنا تنتهي مرحلة الطفولة الأولى، وتبدأ المرحلة الثانية من مراحل الحياة.. بيد أني سأستخدم لفظ الطفولة –جريًا على المألوف– للكلام عن هذه المرحلة التي عرف فيها الطفل الكلام والمشي وطريقة الأكل.

ومن الظواهر التي نشاهدها أن بكاء الطفل يقل عندما يبدأ في الكلام، ولا عجب في ذلك فقد حلت لغة للتعبير أفصح من لغةٍ أخرى. وما حاجته إلى البكاء إذا استطاع أن يعبر عن ألمه. باللفظ والكلام؟.. اللهم إلا إذا كان الألم بالغًا في الشدة بحيث لا تسعفه الكلمات في التعبير عنه. أما من يستمر على مادة البكاء بعد تعلم الكلام، فاللوم في ذلك على من يحيطون به.. ومرجع سوء تصرفهم، وعندما يستطيع «إميل» أن يعبر باللفظ عن ألمه، فيجب ألا يَعمدْ إلى البكاء إلا إذا كانت آلامه مبرحة فوق طاقة احتماله.

وإذا كان الطفل مرهف الحس رقيقًا، يصرخ أو يستسلم للبكاء لغير سبب، فالأمر يقتضي إهمال شأن بكائه حتى يستنفد طاقته فيكف من تلقاء نفسه عنه. وبمجرد أن يسكت، أخف إليه فيتعلم أن السكوت وسيلة لاستدعائي. والطفل يميز معنى سلوكه بالأثر المحسوس له.. وليس أدل على ذلك من أن الطفل نادرًا ما يبكي وهو بمفرده إذا ألم به ألم، إلا إذا كان لديه أمل في أن يسمع بكاءه أحد!

وإذا تعثر الطفل ووقع وجُرح ونزف منه دم، لا أبادر إليه مذعورًا بل أحتفظ بهدوئي لفترة، فقد وقع الشر وسيتحمله حتمًا. فأية لهفة من جانبي لا فائدة منها، بل أنها ستزيد من فزعه وإذكاء حساسيته وألمه.

وحقيقة الأمر في مثل هذه الحالة أن الخوف هو الذي يعذبه ويؤلمه، وليست الصدمة أو المفاجأة.. فيجب علي أن أجنبه عذاب الخوف بالصورة الهادئة التي أخلعها على وجهي. فإذا رآني ملهوفًا ظن أنه هالك، وإذا رآني هادئًا يهدأ.. ففي تلك السن تبدأ الدروس الأولى في الشجاعة، واحتمال الطفل للآلام الهينة سيعلمه بالتدريج احتمال الآلام الجِسَام.. ومن هنا تنبت الشجاعة.

ولا أريد لـ «إميل» إلا بجرح، فيشبْ قبل أن يعرف الألم.. فأول ما يجب أن يتعلمه هو العذاب. ويلوح أن الأطفال لا يكونون ضِعافًا إلا لكي يتلقنوا تلك الدروس الجليلة بغير خطر على حياتهم!

ولا أذكر في حياتي أني سمعت أو رأيت طفلًا طليق الحرية انتحر أو أصاب نفسه بعاهة إلا إذا تُرك في مكان مرتفع، أو بمفرده قريبًا من النار، أو عبث بأدوات خطرة ففتكت به.

والطفل الذي يشب دون أن يتمرس بالألم يعيش بلا خبرة ولا شجاعة، فيتوهم الموت من أبسط وخزة ويفقد الوعي إذا سالت من إصبعه نقطة دم.. هذه ليست التربية التي أتحراها.

إن خرف تعليمنا ومجانيتنا للصواب فيه سببهما أننا ننهج في تعليم

الأطفال ما كانوا سيتعلمونه هم –في صورة أجدى وأفضل– من تلقاء أنفسهم ونغفل كثيرًا عما كان يمكن أن نعلمه نحن لهم دون سوانا.. أليس من الحماقة والبلاهة ذلك العناء الذي نبذله كي نعلم الأطفال المشي؟ وكأننا رأينا مغبة إهمال مرضع في تعليم المشي للطفل، فشب جاهلًا به في الكبر! إن كثيرين من الأشخاص يمشون بصورة سيئة غير طبيعية طول حياتهم؛ لأنه أُسيء تعليمهم المشي في صغرهم!

ولهذا لن أجعل لـ «إميل» تلك التي يسمونها «مشاية» أو أي شيء آخر من أدوات تعليم المشي. ومتى بدأ يعرف كيف يضع قدمًا أمام الأخرى، فلن أقبل أن يسنده أحد إلا في الحالات التي يُخشى عليه فيها من خطر يصيبه وفي المواطن الزلقة. وأذهب به إلى بستان معشب بضع ساعات كل يوم، فلا أتركه يقضي وقته في حجرة محدودة مقفلة. وأطلق له الحرية في البستان، يجرى كيفما يشاء، ويتعثر ويقع مئات المرات كل يوم.. فلا خطر عليه من ذلك بل فيه الفائدة كل الفائدة؛ لأنه سيتمرس على المشي على سجيته، وسيتعلم كيف ينهض من سقطته بنفسه كلما تعثر ووقع. والشعور بالحرية، والاستمتاع بحلاوتها، وسعادته بها، ستشفع لكثير من الرضوض أو الجروح، فتنسبه الشعور بألمها. وسيكون مبتهجًا وروحه مرحة لأن الطفل الطليق تستهويه نشوة الحرية.. أما التضييق على الطفل وتقييد حركاته فيخلقان منه طفلًا مُكتئبًا ساهمًا مُستكِينًا، تكبت فيه جميع الرغائب والميول الفطرية، وهذه طريقة معوجة خطيرة من طرق التربية.

هذه هي البداية

ولا نغفل ناحية أخرى للنمو تجعل الشكوى أمرًا ثانويًا عند الطفل، وهي نمو قواه، فمتى رأى الطفل في نفسه القدرة قلت حاجته إلى الاستعانة بغيره.. وتنمو معرفتهم تبعًا لذلك ويستطيعون توجيه قواهم. وعندئذٍ يبدأ وعيه لذاته، وتشعره ذاكرته بالاستقلال فيستشعر السعادة أو الشقاء.. ونعتبره حينئذٍ كائنًا أخلاقيًا.

ولا يمكن للإنسان أن يتحكم في عمره، فهو لهذا لا يدري كم يعمر.. وفي السن الصغيرة يكون الأمل في طول الحياة ضعيفًا، أو هكذا ينبغي أن يكون.. فالأطفال الذين يصلون إلى سن البقاعة لا يتعدى عددهم نصف من يولدون منهم.. فليس مضمونًا والحالة هكذا أن يصل تلميذك إلى سن الرجولة.

إذن فيمَ تلك التربية الهمجية التي تُضحي بالحاضر الملموس في سبيل مستقبل مجهول، تربية تخنقها الأغلال، تُشقي الطفل لتعده لمستقبل تزعم له السعادة مع أنه غير مضمون؟

إنني أرثي لهؤلاء الأطفال حين أراهم مرهقين في حين أنهم غير واثقين من أن تلك الجهود ستجدي عليهم يومًا ما.. إنهم يقضون عمر طفولتهم المرح بين الدموع والعقاب والتهديد.. يسأمون العذاب بحجة أنه لمصلحتهم في المستقبل. ولا يدري سوى الله كم من الأطفال يهلكون

ضحية الحكمة المتطرفة لأبائهم وأساتذهم، فإذا واتاهم الموت أسعدهم لخلاصهم، ويموتون غير آسفين على الحياة التي نالهم منها صنوف العذاب.

يجب أن تكون الرحمة والإنسانية شعارنا، الرحمة بجميع الطبقات والأعمار وبكل من ليس غريبًا عن البشرية.. يجب أن نحب الطفولة ونرعى لهوها وسذاجتها وطبيعتها اللطيفة. من منا لم يتحسر على تلك المرحلة حينما كانت الشفاه لا تعرف سوى البسمات والضحكات، والنفوس لا تعرف سوى البراءة والطمأنينة والسلام؟! لماذا ننتزع فترة استمتاعهم القصيرة، ولماذا نحرمهم من هناءٍ يتمتعون به؟.. لماذا نشوه باكورة أعمارهم بعصارة الآلام والمرارة مع علمنا بعدم استطاعتهم تعويض ما يفوتهم.. هل يعلم الآباء اللحظة التي يتربص فيها الموت بأولادهم؟ إذن لا تزرعوا لأنفسكم حسراتكم بأيديكم بضنكم على أولادكم بلحظات السعادة التي وهبتها لهم الطبيعة.. دعوهم يستمتعون بحياتهم، حتى إذا ماتوا يكونون قد تذوقوا لذتها!

وإني لأعلم أن رأيي هذا سيُعرضني لهجوم وتنديد أولئك النفر من الحكماء المزيفين الذين

يريدون منا أن نسقط الحاضر من حسابنا ونجري وراء المستقبل الغامض! هناك من يقول أن الطفولة أوان تصحيح الميول المنحرفة أو الخبيثة، وأن الإحساس بالآلام يقل في تلك الفترة، فيجب الإكثار من تلك الآلام لكي نتفاداها في سن الرشد حيث تكون وطأتها شديدة. ولكن من ذا يسلم بمعقولية ذلك وبرجحان نفعها عن ضررها، وما هو الضمان الذي

ينبني عليه هذا القول، وأي نفع يأتي من وراء تلك الأسقام والآلام التي تكال للطفل أقصى مما تحتمل طاقته؟ ولعل الميول الخبيثة، التي تزعمونها، من صنع أيديكم وليست ثمرة خلقة الطفل الفطرية.

تلك حصافة خرقاء وزعم لا أساس له ولا برهان عليه.. إن الفلاسفة السوقة يخلطون بين الإباحية والحرية وبين الطفل السعيد والطفل المدلل، ومن الواجب إيضاح تلك الفروق. ولكي لا نضل بالجري وراء الأباطيل يجب أن يكون معلومًا أن الإنسان له مكانه المحدد في الموجودات؛ لذا يجب أن نأخذ الرجل على أنه رجل وأن نأخذ الطفل على أنه طفل. ونحن لا نملك إلا تحديد المكان وتثبيته، وتنظيم الانفعالات البشرية على حسب تكوين الإنسان لتيسير سعادته. أما ما غير ذلك فيتوقف على أسباب خارجة عن إرادتنا وليس لنا عليها سلطان.

تدريب الإرادة

إننا لا نفهم كنة السعادة في حد ذاتها، ولا كنة الشقاء في حد ذاته، بيد أننا ندرك أن عدم التوازن والتناسب بين رغائبنا وبين قدراتنا هو الذي يخلق فينا الشعور بالشقاء.

إن المخيلة التي ترسم رغباتنا بالغة الخطورة، ويجب على الإنسان – لكي يسعد– أن يحصر كيانه في ذاته ويمارس نشاطه وإرادته وحريته في نطاق قدرته. ومن هذه الناحية يمكن القول أن سعادة الطفل في سعادة الرجل؛ فإنها في الحالين عدم الطموح بالرغبات إلى ما ليس في متناول اليد. وهي اعتبارات بالغة الأهمية لحل متناقضات النظام الإجتماعي.. فهناك نوعان من التبعية: تبعية الأشياء، والأشياء تتبع الطبيعة، وتبعية البشر والناس تابعون للمجتمع.

وتبعية الأشياء خالية من الأخلاقيات، لا تضر بالحرية ولا تنجم عنها رذائل، وتبعية البشر مختلة الترتيب تنجم عنها شتى الرذائل.. وسبيل علاج تلك الآفة تسليح الإرادات العامة بقوة حقيقية ذات أثر فعال على الإرادات الفردية.

ولو كان للقوانين الموضوعة ما لقوانين الطبيعة من صرامة تعجز عنها أية قدرة بشرية لكانت تبعية الناس شبيهة بتبعية الأشياء، ولاستطعنا أن نجمع بين الحرية التي تعصم الرجل من الرذائل وبين الأخلاق التي ترتفع به إلى مستوى الفضيلة.

لهذا ينبغي تربية الطفل على تبعية الأشياء وحدها، ففي ذلك إتباع لسنة الطبيعة في نظام تربيتها، فلا توضع أمام إرادته الطائشة إلا عقبات مادية أو عقوبات ناتجة من أفعاله يتذكرها كلما جاءت مناسبتها، فلا يمنع من الإساءة بل يمتنع دون تحريم لفظي.. فالتجربة أو العجز هما القانون الوحيد الذي يجب أن يشعرَ به الطفل.. وتجاب رغباته التي يكون بحاجة إليها وليس التي يعرب عنها.

ينبغي أن يعرف ما هي الطاعة، ويجب أن يشعر بحريته في أفعاله وأفعالنا.. والطفل حين يتلقى منك خدمة في شيء من المذلة، يتوقَ في الوقت نفسه أن يحين الوقت الذي يستغني فيه عن خدمتك ويقوم على خدمة نفسه بنفسه.

وللطبيعة وسائلها الخاصة لتقوية الجسم وتنميته، يجب ألا نعارضها.. فلا نرغم الطفل على البقاء حين يريد أن يذهب، فحين يكون الطفل حرًا فلن يريد شيئًا من غير أن تكون له منفعة ظاهرة أو خافية.

والأطفال حين يقفزون ويجرون ويصيحون إنما يفعلون ذلك تلبيةً لاحتياجات بدنهم الذي يريد أن يتقوى بالنشاط والرياضة.. بيد أنه ينبغي أن يحال بينهم وبين ما ليس في استطاعتهم؛ إذ يجب التمييز بدقة بين الحاجة الطبيعية وبين الحاجة المبنية على نزوة نبتت أو نشأت عن إفراط في الحيوية.

وسبق أن أوضحتُ ما ينبغي أن يُعمل، عندما يبكي الطفل من أجل الحصول على شيءٍ ما.. وأضيف إلى ذلك أنه منذ أن يستطيع الطفل أن

يعبر عن رغبته باللفظ، يجب إذا عمد إلى البكاء لحثك على تلبية رغبته أن ترفض تلبيته إلا إذا فطنت إلى أن حاجته الحقيقية هي التي أنطقته.. فعندئذٍ ينبغي الإسراع إلى تلبية رغبته، كي لا يخضع لدموعه ويتعود على ذلك.

يصير الطفل شريرًا إذا لم يعتقد فيك طيبة النفس، ويغدو مستبدًا إذا اعتقد فيك الضعف.. فينبغي أن تبادر إلى تلبية ما يرغب فيه إذا لم ترَ فيه ضررًا، وإذا رأيت الرفض فلا تكن متعنتًا.. ولكن حذارِ من التراجع في حالة الرفض.

وتجنب الصيغ الشكلية الفارغة للتهذيب؛ فإن الطفل يتلقنها ويستخدمها للحصول على كل ما يشتهيه، وقد درج الأثرياء على تربية متحذلقة تجعل أطفالهم محبين للتسلط، وإن كان في أدب ظاهري ولكن بصورة لا يجسر أحد على مقاومتهم. وينطق الأطفال بهذه الألفاظ بلهجة لا تدل على الترجي ولكنهم يتعجرفون بألفاظ الرجاء، ويكونون أشد عجرفة مما لو كانوا يأمرون.. وأنقين من الطاعة.. وهم يقولون كلمة «من فضلك» مثلًا بنبرة توحي بمعنى الأمر، أما كلمة «أرجوك» فإنها في عرفهم بمعنى «آمرك» فيا لها من تربية وياله من أدب!

وأنا لا أريد لـ «إميل» أن يكون متعجرفًا أو فظًا.. حتى أنني أُوثر أن يخاطبني بكلمة «إفعل هذا»

برجاء قلبي على أن يقول لي «من فضلك» أو «أرجوك» في نبرة توحي بالعجرفة فاللفظ لا يهمني بقدر ما يهمني الشعور الذي يصاحب

اللفظ، وأنا أميل إلى الحد الوسط، لا أقبل التطرف في التشدد ولا التطرف في التهاون.. فترك الأطفال وشانهم يعرضهم للأخطار، والضغط عليهم يعدهم الحياة الضعف والخنوع.

وإني أرى –وإن بدا غريبًا ما أرى– أنه إذا لم تصب الطبيعة طفلك بأذى، أن تعمد إلى تعريضه لشيء من ذلك بطريقة ما. وقد تقول أنني أناقض نفسي حين ناديت بتوفير سعادة أطفالنا وتجنيبهم الأذى، ولكن الأمر ليس كذلك؛ لأن الحرية التي أتيحها لتلميذي ستعوضه تعويضًا كريمًا عن المنغصات الخفيفة التي سأجعله يتعرض لها. وهناك أطفال يمارسون اللعب في الثلج، وهو شيء غير مستساغ.. ومع ذلك فإنهم يشعرون بالضيق لو أنك حاولت منعهم، وليس هناك مجال للخوف من مثل هذا الصنيع فإنني أسعى لخير الطفل بتسليحه ضد المتاعب التي لا بدَّ سيتعرض لأقصى منها في مستقبل حياته.

وفي اعتقادي أن تنحية الإنسان عن متاعب جنسه البشري إخراج له عن طبيعة تكوينه، ذلك لأنه ليست هناك سعادة حقة ممكنة لأي إنسان خارج تكوينه الطبيعي..

وكما أن الإنسان لا يستشعر حلاوة النجاح إلا بعد أن يتذوق مرارة الفشل، كذلك لا سبيل لتذوق الخير العظيم إلا إذا تمرسنا ببعض الشرور الهينة. هكذا طبيعة الإنسان، إذا صلح الجسد فسدت الروح، ومن لا يعرف الألم لا يعرف الحنان والرحمة والشفقة؛ لأن قلبه أصم.. ولا يمكن لمثل هذا أن يكون اجتماعيًا، بل مخلوقًا متحجر القلب!

وتعوّد الطفل على الحصول على كل شيء أقصر طريق لإشقاء ذلك الطفل؛ لأن رغباته ستتضاعف بسهولة الترضية وسرعة التلبية. وسيأتي الوقت الذي تعجز فيه عن ذلك، فيصدمه الرفض الذي لم يتعوّده، فيتألم أكثر من ألم الحرمان.. إن رغباته لا نهاية لها، فهو يطلب دمية ثم يطلب عصا، ثم ساعة، ويطلب عصفورًا طائرًا، وقد يطلب نجمًا لا يراه يلمع في قبة السماء.. فهل في مقدورك أن تلبي كل هذه الرغبات؟!

والطفل الذي يحصل على كل ما يشتهي يُخيل إليه أنه مالك الكون، وينظر إلى الناس كأنهم عبيدٌ له.. فإذا رفض أحد له مطلبًا اعتبر ذلك عصيانًا لسلطانه، ولن يقتنع بأسباب الرفض لأنه في سن يعوزها التمييز بميزان العقل، فيفترض سوء النية ويشعر باطلًا بالظلم فيورثه ذلك حدة وحقدًا، ولا يكون سعيدًا.

وكم رأيت أطفالًا يغالون في مطالب خيالية كأن يطلبوا أن تقلب لهم البيوت أو توضع في أيديهم عصافير طائرة أو تماثيل موضوعة فوق قمم الأبراج، فإذا لم تستجب مطالبهم ملأوا الدنيا صراخًا.. ويهرع ذووهم إلى ترضيتهم، فيزدادون تعنتًا، وتكون حياتهم سلسلة من المشاكل والآلام إذ يشعرون بالتحسر، فهل هؤلاء الأطفال سعداء؟!

وإذا اقترن الضعف بالتسلط، فإنهما يؤديان إلى الجنون والشقاء.. وإذا كان حب السيطرة والطغيان يجعلان الناس أشقياء منذ طفولتهم، فماذا يكون حالهم حين يكبرون إنهم سيشعرون أن العالم يقف في وجوههم فيتحطمون، فقد كانوا يظنون أن كل شيء طوع إرادتهم، ويأخذهم الغرور،

وتشملهم الوقاحة، ويدفعهم الحمق، فيجر عليهم ذلك الازدراء والسخرية والاذلال، ويدركون أنهم لا يعرفون قدر أنفسهم، فيمسوا جبناء عديمي الثقة بأنفسهم، ويتبدل إحساسهم بالسيطرة إلى إحساس بالذل والمهانة والعجز.

فما أحرانا إذن بإتباع القاعدة الأولية.. لقد جعلت الطبيعة الأطفال على صورة تتطلب منّا الحب والمساعدة، فهل تراها جعلتهم في صورة المرهوبين المطاعين على طول الخط؟! هل منحتهم الطبيعة سمات السيطرة من جهامة وجه وقسوة نظرة وخشونة صوت أو جهارته حتى نخشاهم ونخضع لسيطرتهم؟

وهل نجد –ونحن ننظر إلى الطفولة فيحد ذاتها– مخلوقًا أضعف أو أشقى أو أعجز من الطفل وهو تحت رحمة ذويه، أشد مايكون حاجة إلى الشفقة والحنان والرعاية والحماية؟ أليس واضحًا أن لكل ذي عينين أن الطفل يخرج إلى الدنيا بوجه رقيق لطيف وصورة محببة تستهوي القلوب وتستدر العطف، فيرق له الجميع ويهشون!

أي شيء إذن أبعد عن التصور وأمعن في الخطل، من أن ترى طفلًا متغطرسًا متحكمًا متمردًا، يأمر وينهي في كل من يحيطون به، ينهال عليهم بالطلبات والرغبات ملحًا في حتمية تلبيتها.. شحذ في غير حِباء سمات السيد المتسلط، ومع من؟.. مع الذين لو تخلوا عنه لكان مآله إلى الهلاك لا محالة!

ومن ذا الذي لا يرى أن ضعف الطفولة الأولى يقيد الأطفال من وجوهٍ كثيرة.. أفليس من النسوة بل الهمجية إذن أن نضيف إلى تلك

الوجوه الفعلية وجهًا آخر جديدًا هو الخضوع لنزواتنا، بأن نضن عليهم بحريتهم الطبيعية الضئيلة، مع عجزهم عن إساءة استعمالها، فضلًا عن أن ما نضن به عليهم لا يعود بالنفع علينا أو عليهم!

ولئن كانت غطرسة الأطفال وتحكمهم وعنادهم وطغيانهم أدعى الأمور للضحك وأشدها سخافةً، فما من شيء أدعى للإشفاق والرحمة والعطف والرثاء من طفلٍ خائف، وما دامت العبودية المدنية والاجتماعية تبدأ مع سن الرشد، فلماذا إذن نتعجل البلاء، فنُرهق الطفل منذ حداثته بالعبودية الشخصية والرق الذاتي، وفيهما القضاء عليه كل القضاء؟!

أليس من الخير وأجدى للإنسان أن نجعل فترة من العمر ناعمة سعيدة معفاة من العبودية؟ ألا يكفي أن هذا النير ليس مفروضًا علينا من الطبيعة؟

إن الأمر ليقتضينا أن نترك للطفولة أن تمارس حريتها الطبيعية، تلك الحرية التي تنأى بالأطفال، ولو إلى حين، عن الرذائل التي تصيبنا حتمًا تحت نير العبودية..

ألا فليتفضل أولئك المؤدبون القساة، غلاظ القلوب، وأولئك الآباء الجاهلون الخانعون لأطفالهم، وليتقدموا لي باعتراضاتهم على آرائي مشفوعةً بأدلتهم السخيفة وهرائهم الغث، ولكني أوصيهم وأطلب إليهم قبل أن يختالوا بحججهم الواهية وأسانيدهم التافهة وأساليبهم السقيمة الصادرة عن عقولهم العقيمة، أن يتتلمذوا قليلًا على الطبيعة الحكيمة.. فلا شك عندي بعدها أنهم سيثوبون إلى رشدهم، فيفرقون بين الطريق السقيم والطريق القويم.

إيّاكم والمجادلة

آن أن أعود إلى التطبيق العملي.. وأظنني لست بحاجة إلى التذكير بما سبق أن أشرت إليه من أن الطفل لا يجوز أن يحصل على شيء لمجرد أنه يريده، بل عندما يكون في حاجة إليه. وإذا كان الألم في بعض الأحيان ضرورة لا بدَّ منها للحياة؛ فإن اللذة أو السرور حاجة حيوية، ورغبة الأطفال التي يجب ألا نقبلها منهم، هي رغبتهم في فرض سلطانهم.. لذلك يجب أن نفطن إلى الباعث الذي يحمل الطفل على طلب شيء؛ فإذا كان لحاجة أو لذة حقيقية بادرنا إلى إجابته، وإن كان عن نزوة لمجرد التحكم وفرض السيطرة فيجب أن نرفض ونمتنع.

وحذار من أن يقوم الطفل بعمل شيء مدفوعًا بالطاعة وليس لضرورة، لذلك يجب أن نُبعد عن محيط ذهنه ألفاظ الطاعة والواجب والالتزام، وأن نضع مكانها ألفاظ القوة والضرورة والعجز والاضطرار.

ولا توجد معانٍ لهذه المقولات الأخلاقية والعلاقات الاجتماعية قبل سن الرشد، لهذا يجب تحاشي استخدام هذه الألفاظ ما وسعنا ذلك، خشية أن يختلط الأمر عل الطفل فيقرنها بمدلولات خاطئة تلازمه؛ لأن أول فكرة خاطئة تتسرب إلى ذهن الطفل إنما هي جرثومة خطأ وشر.

وليكن الحديث أمامه فيما هو بدني ومادي ملموس، أما التحدث في

النواحي الأخلاقية أو الروحية فإنه يولد في ذهنه مفهومات خرافية تعلق بذهنه مدى الحياة.

والمبدأ الشائع في هذه الأيام هو مجادلة الأطفال، بيد أن رواجه لا يبدو حافزًا لي على الثقة به، فما أسخف الأطفال كثيري الجدل. ولما كان العقل –من بين ملكات الإنسان– جماع جميع الملكات، ولكنه أبطؤها وأعسرها نموًا، فكيف نستخدمه لتنمية الملكات السابقة عليه في النشأة والنضوج؟!

والتربية الفاضلة هي تكوين شخص عاقل، فكيف يُربى الطفل بالعقل الذي لا يتم اكتماله للرجل إلا بعناء..إن معنى ذلك أننا نبدأ الأمور من نهايتها، ولو كان الأطفال ذوي إدراك وعقل فما حاجتهم إلى التربية؟ ومخاطبتهم بألفاظ لا يفهمونها تعلمهم ألفاظًا جوفاء لا يفطنون إلى مدلولاتها ويظنون الحكمة في أنفسهم، علاوةً على أنه يدفعهم إلى الشقاق والتمرد، فيتعذر التعامل معهم إلا بإرضاء غرورهم أو بالتخويف أو الإطراء في الجدل.

وأضع أمامكم نموذجًا لصورة لما قد تنتهي إليه دروس الأخلاق التي تُلقى أو تُلقن للأطفال:

الأستاذ: يجب ألا تصنع هذا..

التلميذ: ولماذا يجب ألا أصنعه؟

الأستاذ: لأنه عيب أن تفعله..

التلميذ: عيب؟.. وما هو العيب؟..

الأستاذ: العيب هو ما يحرم عليك عمله..

التلميذ: وما الضرر من عمل ما يحرم علي عمله؟

الأستاذ: أن تعاقب للعصيان..

التلميذ: سأفعله بحيث لا يعلم أحد به..

الأستاذ: سيراقبونك..

التلميذ: سأتخفي..

الأستاذ: سيسألونك..

التلميذ: سأكذب..

الأستاذ: لا يجوز أن تكذب..

التلميذ: ولماذا لا يجوز أن أكذب؟

الأستاذ: لأنه من العيب أن تكذب..

وهلمَّ جرا..

وهكذا بدور النقاش والجدل في حلقة سخيفة مفْرغة، ولا يستطيع الطفل أن يفهمك.. وأنا أدهش ممن ينادون بمبدأ الجدل الذى يضيق به كل من الأستاذ والتلميذ، فلا هذا يفيد ولا ذاك يستفيد. ومما لا شك فيه أن معرفة الخير والشر، والأسس التي تقوم عليها الواجبات الأخلاقية ليست من شأن الطفل.

تريد الطبيعة أن يكون الأطفال أطفالًا قبل أن يصبحوا رجالًا.. فإذا أردنا أن نعكس الوضع، فإننا ننتج ثمارًا قبل أوانها ليست ناضجة ولا نكهة لها، فجة لن تلبث أن يدب

إليها الفساد.. نحصل على شبان علماء هم في الحقيقة أطفال مسنون.

ومما لا شك فيه أن للطفولة أساليبها في النظر والتفكير والإحساس لا يمكن الاستعاضة عنها، فمن الخرف تغيير الأوضاع. ومن الأفضل أن أطلب للطفل فراهة في الطول على أن أطلب له عقلًا بارعًا في الجدل في سن العاشرة.. إذ ماذا يجديه هذا العقل في تلك السن؟ إن العقل لجام للقوى والملكات، لا حاجة للطفل به.

إنك تقنع تلميذك بواجب الطاعة مقرونًا بالقوة والوعيد أو بما هو شر منهما: التزلف والوعود. وهكذا يجد الطفل نفسه منقادًا إما بالمطامع المعسولة، أو مكرهًا بالضغط والوعيد.. فيتظاهر بالاقتناع لأنه يرى أن الطاعة أجدى عليه وأن العصيان أضر به. وما دام لا يسوءه شيء فإنه لا يجد غضاضة في تنفيذ رغبات الغير، وفي الوقت نفسه ينفذ رغباته هو متخفيًا كي لا يدري أحد ماذا فعل، بيد أنه يكون مستعدًا للاعتراف بخطئه خشية التعرض لأذى أفدح، يدفعه إلى ذلك الأمل في الصفح.

ويترتب على ذلك أنه يستشعر الضيق من طغيانك إذا فرضت عليه واجبًا لا يميل إليه، وينصرف في قرارة نفسه عن محبتك.. إذن فسيتعلم الخداع والرياء والكذب لكي يحظى بالمكافأة أو ينجو من العقاب، فأنت

بذلك تدفعه إلى خداعك بإخفاء حقيقة أخلاقه وطباعه، معتمدًا على قدرته على التخلص بالكلمات الجوفاء.

والقوانين وإن كانت ملزمة بذاتها للضمير، إلا أنها تُستخدم للرهبة مع الرجال البالغين الذين يقعون تحت طائلتها.. ولكن هؤلاء الرجال ليسوا سوى أطفال أفسدتهم التربية الخرقاء، فخلقت منهم مناهضين للدنانرن وهذا ما أنادي بوجوب تفاديه.. وعلينا أن نعامل التلميذ بما يوافق عمره، وبذلك نضعه في مكانه الطبيعي، لا نحاول إخراجه منه ولا نسمح له بذلك.

سيمارس التلميذ أهم درس من دروس الحكمة قبل أن يعرفها فمن الخطأ أن نأمره بشيء مهما كان، ولا نجعله يشعر أو حتى يتصور أن لنا عليه سلطانًا، بل يضع نصب عينيه أنه ضعيف وأننا أقوياء، وأنه بهذا تحت رحمتنا بالضرورة، ليتعلم ذلك ويشعر به. ليحس في وقت مبكر بوطأة نير الطبيعة الثقيل، نير الضرورة الذي لا بدَّ أن ننوه به جميعًا، وليشهدها في الأشياء وليس في بدوات الرجال، وليكن اللجام الذي يحتجز هو القوة لا السلطة.

ما يحظر عليه ينهي عنه بالكلام، دون إيضاح أو مجادلة وما يسمح له به يكون عند أول طلب من غير إلحاح أو توسل ودون شرط. ليكن السماح عن طيب خاطر والرفض على مضض، وليكن رفضًا لا رجعة فيه دون نظر إلى توسلاته أو تهديداته، ولتكن كلمة «لا»سياجًا من الفولاذ تتحطم عليه جهود الطفل دون تأثير، وبعدها لن يتصدى للشكوى أو الإلحاح.

بهذا نخلق فيه الصبر واستقرار النفس والهدوء حتى مع عدم الحصول على ما يريد، وذلك تحت حكم الضرورة لا تبعًا لتحكم إرادة الغير.

إذا قلنا للطفل:

– لقد نفد هذا الشيء ولم يعد عندنا منه.

فإن هذا القول لا يمكن بحال أن يدفع طفلًا سويًا للتمرد إلا إذا إعتقد فيه أكذوبة، وهذه الحالة لا تحتمل حلًا وسطًا.. فإما ألا تطالبه بشيء وإما أن تحمله على الطاعة التامة منذ البداية، وأسوأ تربية هي ترك التلميذ متأرجحًا بين إرادته وإرادتك وبين أهوائه وأهوائك؛ فلن يلبث أن ينشب النزاع بينكما على من منكما يكون صاحب الكلمة المطاعة.

وعلينا أن نتجنب تلقين التلميذ دروسًا لفظية.. ولنترك ذلك للتجربة، فهي وحدها تتولى تعليمه وتأديبه.. كما يجب أن نضع في الاعتبار ألا يفوتنا أمر مراقبة طبيعة الطفل وسلوكه كي نكشف بدقة عن مزاجه الخاص.

السلوك الاجتماعي

سأنأى بـ «إميل» عن عادات السرقة المرذولة لأنني لن أسمح باختلاطه بالخدم، بيد أن إبعاده عن القدوة السيئة بصفة حاسمة لن يكون ممكنًا، وليس تعرضه لها شرًا محضًا ويكفي أن نجعلها تبدو له مقيتة. وحركاتنا الطبيعية تهدف إلى هنائنا وسلامتنا، لأن واجباتنا الأولى إنما هي نحو أنفسنا، وأحاسيسنا تتركز في ذواتنا.. ولذلك فإن أول شعورنا بالعدل هو بما يجب لنا لا علينا، ومن التخبط في التربية تعليم الواجبات قبل الحقوق.. ففي ذلك قلبٌ للأوضاع؛ إذ يختلط الأمر على الأطفال ولا يفهمون ما يقال.

وإني أرى أن الطفل لا يهاجم الناس بل يهاجم الأشياء، فيتعلم بالتجربة احترام من هو أكبر منه سنًا. ولما كانت الأشياء لا تملك الدفاع عن نفسها فيجب تلقينه معنى الملكية وليس المقصود تعيين أثاث أو غيره له، فإذا قلنا له هذا ملك لك فإنه لا يفهم معنى ذلك، ومن العجب أننا نظن أننا أحسنا تثقيف الطفل إذا حشونا رأسه بألفاظ لا معنى لها.

ولهذا يجب الرجوع إلى الأصل في الملكية والفكرة الأولى التي نبتت منها، والأمر يحتاج إلى الفراغ وإلى عينين، وهما متوافران لدى الطفل.. وهو بطبعه يميل إلى الخلق والتقليد والإنتاج والإعراب عن قدرته... فإذا رأى أناسًا يزرعون حديقة يبذرون فيها الحب ويتعهدون نباتها الأخضر، فمن المتوقع أن يرغب في زراعة بقعة في الحديقة. وعندئذٍ لا أعارض هذا الميل فيه بل أشجعه وأشترك معه.. ثم أجعله يزرع حبة فول ويتعلم معنى

الملكية بهذا العمل فيفرح بذلك، ولا شك أنه سيعود لري شجيرة الفول ويزداد ابتهاجًا كلما رآها تنمو وترتفع وعندئذٍ أقول له:

– هذه ملكك..

وعندئذٍ أفسر له لفظ الملكية، وأنه ثمرة لما بذله من وقت وعمل وجهد، وأن في هذه البقعة من الحديقة جزء يخصه دون سواه.

ثم يأتي «إميل» مسرعًا متلهفًا ثائرًا.. لقد اقتلعت نباتات الفول وقلبت الأرض ظهرًا لبطن، ولم يعد أحد يعرف معالم المكان.

– آه!.. أين ذهب عملي وإنتاجي وثمرة رعايتي وتعبي؟ من سلبني ملكي؟ من أخذ فولي؟ إن قلبه الصغير ثائر، وهذا أول إحساس له بالظلم يرسب فيه مرارته الأسيفة.. وها هي الدموع تنهمر مدرارًا والطفل الصغير يئن ويصرخ، فأشاركه ألمه واستنكاره.. ثم أكتشف أن البستاني هو الذي أقدم على هذه الفعلة. ويدور بين ثلاثتنا: البستاني والطفل وأنا حوار، أعلم منه أن «إميل» زرع الفول في بقعة كان البستاني قد بذر فيها بذور شمام نادر، فتلف زرعه وأنه ليس بوسعه الحصول على مثله. ثم يحدثه «إميل» عن بذور الشمام التي تتلف، فيخبره هذا بأن ما أتاه لا ينبغي أن يُقدم عليه أحد لأن كل شخص يحترم عمل الآخرين يظل عمله مصونًا في أمان، ويحتج «إميل» بعدم وجود حديقةً له.. فيخبره البستاني بأن ذلك لا يهمه وبأنه قد أفسد زرعه؛ ولذا فلن يسمح له بالتنزه في الحديقة بعد ذلك. وأخيرًا اقترحت أنا أن يمنحنا البستاني قطعة نزرعها ونتقاسم محصولها بيننا وبينه، فوافق البستانى بشرط ألا يمس زرعه.

وهكذا في تشعب وتدرج، تكون محاولة تفهيم الأطفال عمليًا المعلومات الأولية.. فيفهمون معنى الملكية وأنها حق أول من يشغل الأرض بعمله. وبديهي أن المثل الذي ذكرته في سطور يستغرق تنفيذه شهورًا طوالًا؛ لأن المعاني الأخلاقية والأفكار الأدبية والمعنوية يجب تكوينها وتنميتها ببطء شديد مع التثبت من رسوخ خطواتها.

ومن واجب المدرسين أن يقرنوا دروسهم بالأعمال ولا يكتفون بالأقوال؛ لأن الأطفال ينسون بسرعة مايقولونه وما يُقال لهم، ولكنهم لا ينسون ما يعملونه وما يُعمل بهم أو أمامهم.

وهناك مثال آخر لناحية أخرى: لا ينبغي أن تغضب من طفلك إذا كان مشاكسًا يفسد كل ما يصل إلى يده، بل نضع بعيدًا عن متناوله كل ما نخشى أن يفسده.. وإن حطم الأثاث الذي يستعمله فلا تبادر على الفور بإعطائه أثاثًا جديدًا، بل دعه يحس بضرر الحرمان منه. وإن كان يحطم نوافذ حجرة نومه الزجاجية، فاعمل على أن يدرك فائدتها.. وذلك بأن تدع تيار الهواء يهب عليه ليلًا ونهارًا، غير مكترث بما يصيبه من نزلات البرد فخير له أن يمرض بالزكام من أن ينشأ مجنونًا أو معتوهًا!

لا تضيق بمقلقاته ومضايقاته ولا تعلن تذمرك منها، بل اجعله يشعر هو بآثارها أكثر منك. وأخيرًا أصلح زجاج النافذة دون أن تذكر له كلمة، فإن عاد إلى تحطيمها مرة أخرى، فقل له بجفاء ولكن بلا إنفعال:

هذه النوافذ ملكي أنا، أنشأتها بعنايتي وجهودي.. وأريد أن أصونها.

وبعد ذلك خذه بهدوء واحبسه في مكان مظلم ليست به نوافذ، فستأخذه المفاجأة ويبدأ في الصياح والصراخ فتظاهروا جميعًا بعدم سماع صراخه، وعندئذٍ سرعان ما يمل ويغير لهجته فيأخذ في الأنين والبكاء والتحسر.. ودع خادمًا يذهب إليه، فينتهز الطفل الفرصة ويتوسل لينال حريته، فيتعلل الخادم بعذرٍ ما، ويقول له في صراحة وكلمات مقتضبة:

– لنافذتي زجاج لا أرضى أن يتحطم!

وينصرف الخادم بعد ذلك.. وبعد بضع ساعات يقضيها الطفل محبوسًا وقد أنهكه فيها الملل فيتذكر أثرها طويلًا، يعرض عليه الخادم أن يتوسط لديك لتطلق سراحه على أن يتعهد بعدم العودة الى تحطيم زجاج النافذة، فيسر الطفل ويتوسل أن تقابله. وعندئذٍ أذهب إليه ليقدم إليك الاقتراح، وعليك أن توافق فورًا وتقول له:

– هذا تفكير يدل على رجاحة العقل، وسنفيد منه كلانا.. لماذا لم تفكر في ذلك من قبل؟

ولا تطلب منه قسمًا أو توكيدًا لوعده، بل اقبله في غبطة وخذه إلى حجرته.. وسيتعلم الطفل من هذه التجربة أشياءً كثيرة منها أن تحطيم الزجاج عمل مرذول ومنها أنه لن يعود إلى ذلك، وسيدرك حتمًا قيمة التعهدات ومدى فائدتها.

وأوجه النظر إلى مسألة بالغة الأهمية، وهي أن لا تسمحوا للطفل أن يعامل الكبار كأنهم أقل منه أو أنداده. فإذا تجاسر على ضرب أحد جادًا،

وإن كان خادمه، يرد له الصاع صاعين لكي يثوب عن هذا الفعل، وبعض المربيات يستثرن الأطفال ويحفزنهم على ضربهن وهن يضحكن.. أنهن غافلات عن أن الطفل الذي يضرب وهو صغير لا يتورع عن القتل وهو كبير.

وها نحن وصلنا إلى دنيا الأخلاق، وأضحى الباب مفتوحًا أمام الرذيلة، حيث تولد الخديعة وتولد الأكذوبة. ومتى إستطاع المرء أن يعمل ما لا يجب أن يعمله، فسيسعى إلى إخفاء ما لم يكن ينبغي أن يفعله. وإذا كانت هناك مصلحة تغري بقطع وعد أو عهد، فهناك مصلحة أكبر بالحنث بذلك الوعد.. وسيجد المخرج من العقاب بالتستر والكذب.

ويستتبع عدم الاستطاعة على توقي الرذيلة قبل وقوعها، توقيع العقاب عليها بعد وقوعها. وهذه هي مأساة الحياة البشرية وصميم نكباتها التي تنشأ كلها عن خطأ ترك الرذيلة تتسرب إلى الطفل.

لا يصب العقاب على الأطفال من حيث أنه عقاب، بل يكون نتيجة طبيعية لسوء أفعالهم.. فلا يعاقبون بصفة مباشرة، ولا يندد أمامهم بالكذب ولا يعاقبون لاقترافه. بل ترتب الأمور بحيث يشعرون بجميع الآثار السيئة للكذب، كان لا يصدقهم أحد حين يقولون نبأ، وأن يتهموا بذنوب لم يقترفوها وإن دافعوا عن أنفسهم بحرارة.. بيد أننا قبل ذلك يجب أن نوضح الكذب عند الطفل.

هناك نوعان من الكذب.. كذب ينصب على الواقع أو على ما وقع، وكذب ينصب على النية أي على ماسيقع مستقبلًا، والنوع الأول أن

ينكر الطفل عملًا قام به حقًا أو يدعي عملًا لم يقم به حقًا، بمعنى أن يقول خلاف الواقع قصدًا وعن علم ودراية. والنوع الثاني أن يَعد الطفل بما في نيته إلا يقوم به أي يظهر خلاف نيته، وقد يجتمع النوعان أحيانًا في عبارة واحدة.. ولكن الذي يعنيني هو الفرق بين النوعين.

إن الذي يحس بحاجته إلى مساعدة الآخرين ويشعر بحسن نيتهم نحوه، لا مصلحة له في خداعهم، بل كل المصلحة في أن يروا أموره على حقيقتها حتى لا يخطئوا فيسيئوا إليه، من ذلك يتضح أن الكذب الفعلي ليس طبيعيًا في الأطفال، ولكن قانون الطاعة هو الذي يؤدي إلى الكذب بالضرورة؛ لأن الطاعة مؤلمة فيعمد الطفل إلى التحلل منها خفيةً قدر استطاعته.. فيغلب المصلحة العاجلة الحاضرة في التهرب من العقاب على مصلحته الباقية أو البعيدة المدى في قول الحقيقة.

أما إذا كانت تربيتك له طبيعية وحرة.. فما حاجته إلى الكذب، وماذا يحتاج أن يخفيه عنك؟ فأنت لا تؤنبه ولا نعاقبه ولا ترغمه على شيء، فلماذا لا يصارحك بكل ما فعله في بساطة كأنه يرويه لصديق؟ إنه لا يرى خطرًا في رواية الأمر لك على وجه دون الآخر.

والكذب بالنية أو الختل ليس طبيعيًا أيضًا؛ لأن الوعود بالعمل أو الامتناع إن هي إلا أشياء خارجة عن نطاق الطبيعة ومقيدة للحرية.. على أن وعود الأطفال باطلة من تلقاء نفسها لأن نظرهم القاصر لا يتجاوز نطاق الحاضر. وهم حين يقطعون وعودًا لا يوفون بها لا يعتبرون كاذبين لأنهم لا يفكرون إلا في الخلاص من الموقف الحرج حاليًا. وهم حين يعِدون

بشيء يتعلق بالمستقبل يعِدون بشيء معدوم؛ لأن مخيلتهم القاصرة لا تستطيع أن تمد وجودهم إلى زمانين مختلفين.

إن كذب الأطفال إنما هو ثمرة أساليب الأساتذة بما يصبونه عليهم من مواعظ وأمثال لا أساس لها عند الأطفال من الإدراك أو التجربة، ووصايا لا سند لها ولا مبرر!

أما طريقتي في التربية فهي الممارسة العملية للحياة والدروس العملية للفضيلة، فلا أطالبه بالصدق حتى لا يضطر إلى إخفاء الحقيقة ولا أطالبه بوعد حتى لا يحنث به. و إذا حدث خطأ في غيابي، لا أسال تلميذي هل هو فاعل؛ لأنني إن سألته فأعلمه الإنكار. وسيدرك أنني أعلم أنه الفاعل، وإني أنيت له عقابًا فيتغير قلبه عليّ. وإذا تظاهرت بعدم معرفتي الحقيقة فسيقول في نفسه:

«لماذا أطلعه على خطئي ما دمت أستطيع كتمانه عنه؟». وهذا أول إغراء له بالكذب.. ولهذا أعتقد أن «أميل» لن يتعلم الكذب إلا متأخرًا جدًا، وإنه سيعجب حين يعرفه؛ لأنه لن يتصور ماذا يمكن أن يجني المرء من الكذب.. لأن من الواضح أنني كلما أشعرته بالاستقلال قضيت على كل حافز له على الكذب.

وينبغي التمهل في الإلزام والمطالبة مثلما في التعليم حتى لا يفرض على التلميذ شيء في غير أوانه فلا يفسد كيانه، فالعجلة وكثرة المطالبة تربك التلميذ فيتضايق ويعد ويهمل الوعود أو ينساها أو يزدريها.

والأسلوب الذي أوضحته في معالجة موضوع الكذب يمكن تطبيقه من وجوه كثيرة على الواجبات الأخرى التي يوصى بها الأطفال بطريقة تجعلها كريهة إلى نفوسهم وعسيرة التنفيذ.. فكأننا حين نبشرهم بالفضيلة نحملهم على حب الرذيلة؛ إذ نقدمها إليهم وننهاهم عنها فيذهب التحريم ويبقى التعريف.

وأنا أرى ألا يكلف طفل بعمل لا يفهم معناه كإعطاء صدقة مثلًا.. وكذلك لا يُعطى أشياء لا قيمة لها في نظره كالنقود مثلًا.. ففي يقيني أنه لو كان بيد الطفل ورقة مالية كبيرة وبيده الأخرى قطعة حلوى، وطلبت منه أحدهما لما تردد في إعطائك الورقة المالية والاحتفاظ بقطعة الحلوى لنفسه، ومن ناحية أخرى لا يُعطى الطفل شيئًا وهو يعلم أنه لا حاجة به إليه.

وإذا أردت أن أعلم «أميل» سجية طيبة كالكرم والبر بالفقراء؛ فإنني لا أعطيه ما يتصدق به لأنه كما ذكرت لا يفهم معنى الصدقة.. بل أتصدق أنا أمامه. وحين يسألني لماذا أساعد الفقراء، أجيبه إذا قدرّت أنه سيفهم بأن الفقراء محرومون وواجب الأغنياء أن يولوهم ببعض البر.. وبعد ذلك يبرز للوجود «أميل» ملمًا بمعنى الكرم والسخاء والبر بالفقراء.

إنني أعلم أن كل فضيلة تقوم على التقليد إنما هي «فضيلة قرود».. وما من عمل طيبًا يعتبر طيبًا من وجهة نظر أخلاقية إلا إذا قام الإنسان به لذاته، وعن وعي به وإدراك، لا لأن الآخرين يقومون به. ولكن في تلك السن التي لا يعي القلب فيها شيئًا، ولم يحس بعد بشيء، يحسن أن نجعل الأطفال يقلدون ما نريدهم أن يتعودوه، إلى أن يأتي الوقت الذي يميزون

فيه الخبيث من الطيب، ويفرقون بين الأشياء ومشبهاتها، ويقدمون على الأعمال الخيرية حبًا للخير ذاته.

إن الإنسان مقلد، وكذلك الحيوان مقلد.. وحب التقليد جعلته الطبيعة في حدوده شيئًا طيبًا، ولكنه يفسد في المجتمع ويصبح شرًا ورذيلة... فالقرد مثلًا يقلد الإنسان الذي يخشاه، ولا يقلد الحيوانات التي يحتقرها؛ لأنه يرى أن ما يفعله كائن أفضل منه لا بدّ أن يكون خيرًا. أما نحن معشر الناس، فإن المهرج منا يقلد كل ماهو جميل ليمسخه ويجعله هزأة. وحتى إذا قلد الواحد منهم شيئًا يُكن له الإعجاب، قلده بفساد ذوق؛ لأنه تقليد مبعثه التظاهر واستجداء التصفيق، وليس مبعثه حب الكمال واكتساب الحكمة والفضل!

إن أساس التقليد عندنا صدوره عن الرغبة في الخروج من الذات، أي الرغبة في التظاهر والتصنع.. أما أنا، فإن هيئت لي الظروف وقيض لي أن أنجح في عزيمتي، فلن ينطوي «أميل» على تلك الرغبة.

ولذلك فإن أهم ما يجب أن يجعله الأساتذة نصب أعينهم هو أن يبتعدوا عن التصنع، وأن يكونوا فضلاء صالحين حتى تنطبع قدوتهم الصالحة الفاضلة في أذهان تلاميذهم، انتظارًا لتسربها إلى قلوبهم الغضة؛ فإن الطفل منذ صغره مجبول على تقليد ما يراه، خيرًا كان أو شرًا، وكافة المرئيات التي تصادفهم تنعكس في نفوسهم.

إن غالبية قواعدنا الأخلاقية مبنية على تناقض.. والوصية الوحيدة التي تناسب الأطفال من جميع الوجوه هي: «ألا يسيئوا إلى أحد».. فإن

معظم الناس يفعلون الخير أحيانًا، ولكن القليلين منهم جدًا هم الذين لا يسيئون إلى أحد مطلقًا، وهؤلاء وحدهم هم الفضلاء بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى سامٍ.

تعليم اللغات

من الأمور الشائعة أن الأمهات يبالغن في تقدير ذكاء أطفالهن، في حين أن هؤلاء الأطفال طائشون في الأغلب الأعم، وذلاقتهم إن هي إلا قشور سطحية، لا يفهمون إلا ما له صلة وثيقة مباشرة بإهتماماتهم ومصلحتهم.. وفيما عدا ذلك فليست للأفكار أية قيمة لديهم، لا يعون منها إلا الألفاظ.

ولا أنكر وجود خوارق لهذه القاعدة، فهناك أطفال سخت عليهم الطبيعة فجعلتهم يسبقون أعمارهم ورفعتهم فوق المستوى العادي للأطفال. وكما أن من الرجال من يظلون أطفالًا رغم تقدم العمر بهم، هناك أيضًا رجال لم يعرفوا الطفولة يومًا ما أو بتعبير آخر أطفال رجال. وهي حالات نادرة جدًا، ومن العسير أن نتبينها في تلك السن، ولكن كل أم تسمع بنبوغ طفل أو ذكاء طفل، تعتقد أن ابنها على رأس هؤلاء العباقرة الأفذاذ.. وتخال علائم النمو آيات نبوغ خارق! مع أن طلاقة لسان الأطفال وسذاجتهم تيسر لهم إتيان كلمة بارعة بين حينٍ وآخر خلال ثرثرتهم، وليس ذلك بالأمر الغريب أو الخارق للمألوف.. فمثلهم كمثل المنجمين الذين قال فيهم هنري الرابع كلمته المأثورة:

– إنهم يكذبون كثيرًا جدًا، فلا عجب أن يصيبوا كبد الحقيقة ذات مرة، اعتباطًا!

ومن العجب أن أروع الأفكار قد تصدر عن ذهن الطفل، وأحكم الأقوال قد تخرج من فمه، ولكن كما تقع أثمن الماسات في يده، فلا هو يعرف قدرها، ولا هو يملكها. وإنما هي صدفة أو ما يشبه الصدفة، وأقوال الطفل لا تعني لديه ما تعنيه لدينا، ومعانيها عنده غيرها عندنا.. فأفكاره – إن كانت له أفكار– لا نظام لها ولا ارتباط بينها، ومن ثم فلا ثبات فيها ولا وضوح. فإن كنت ترى في طفلك النبوغ فراقبه.. وقد تكشف فيه من حينٍ لآخر نشاطًا ذهنيًا فائقًا ووضوحًا خارقًا للمادة والمألوف.

ولكنك ستجده حتمًا بطيء التفكير، جامد الذهن، كأنه يهيم في ضباب، إلى حد لا تتردد فيه عن نعته بالعته أو الغباء.. مثلما نعته من قبل بالعبقرية. بيد أنك مخطئ في الحالين، فما هو إلا طفل يشبه فرخ النسر الذي ما أن يحلق عاليًا لبرهة وجيزة حتى يرتد إلى هدوء الوكر وركوده.

ولهذا يجب النظر إلى الطفل ومعاملته على حسب سنه دون نظر إلى الظواهر.. وحذار من إرهاق قواه بما يجاوز طاقته.. وأترك له الحرية المطلقة إذا أظهر رغبة في نشاط ذهني، ولكن لا تدفعه دفعًا. ومتى عاد وأبدى الرغبة في التوقف عن ذلك النشاط المبكر، فدعه وشأنه لأن البذور الأولى لذلك النشاط الذهني قد تختمر وتثمر بعد سنوات، فلا تقتلها الآن بالافتعال أو الإكراه.

ولا يأخذك العجب إذا قلت لك أن كثيرين من الأطفال الأغبياء يصبحون مع الزمن رجالًا ناجحين أسوياء.. والقرائن على ذلك لا تحتاج إلى إيراد أو أيضاح. ومن أصعب الأمور حقًا أن نميز بين الغباء الحقيقي

والغباء الظاهري الذي ينطوي على قوة الطبع والشخصية. وقد يبدو لأول وهلة أن هناك تناقضًا في إتفاق الضدين في مظهر واحد.. بيد أن هذه هي الحقيقة، ففي الطفولة لاتكون لدى الطفل إلا أفكار جوفاء مشوشة، فكل الفرق بين العبقري وسواه، إن العبقري يرفض أن يقبل تلك الأفكار أو هضمها، ولا يتعامل ذهنه بها، ولهذا يبدو كالأبله أو الغبي، انتظاراً لاكتمال قدرته على تكوين الأفكار الصائبة. وهكذا يتشابه في البداية العبقري والأبله.. كلاهما عاجز؛ لأن الأبله لا يصلح للتفكير، والعبقري يرى ذلك التفكير الفج غير صالح له!

وسبيلنا الوحيد للتمييز بينهما هو الصدفة التي قد تتيح للعبقري فكرة يحسن إدراكها، بينما يعجز الأبله عن ذلك. ومن يحكمون على الأطفال بهذه السرعة يقعون في خطأ جسيم.. فأنا أعرف رجلًا فاضلًا أعتز بصداقته وأقدرها، بل أعتبرها شرفًا عظيمًا لي.. وأعرف أنه كان يعتبر في نظر أسرته طفلًا أبله! ثم إذا به فجأة وقد لمع اسمه وتألق نجمه بين أسماء الفلاسفة. ولا ريب عندي في أن التاريخ سيخلد اسمه بين أسماء أعظم المفكرين وأعمق الفلاسفة الميتافيزيقيين في زمانه.

فنصيحتي عدم التسرع بالحكم للطفل أو عليه.. ولندع الحالات الخارقة النادرة تثبت نفسها بنفسها، ولنتفحص بعقل ثاقب خصائصها قبل أن نتخذ لها مناهج خاصة غير المناهج المتبعة في تربية الأطفال العاديين، ولنتح للطبيعة أن تقوم بعملها في هدوء، ولا نفسدها بتدخلنا وتسرعنا.

وقد تقول أن الوقت من ذهب، ومن الحماقة أن نضيعه هباءً..

ولكنك تتناسى أنك تهدر الوقت بتسرعك وتدخلك وإساءتك استعماله، أكثر مما تهدره بعدم التدخل، وترك الأمر للطبيعة وأنت ساكن.. إن الطفل الذي نسى تعليمه يكون أبعد عن الرشد والفضيلة مما لو لم يتعلم شيئًا على الإطلاق.

لعلك تخشى أن يقضي الطفل سني عمره الأولى لا يعمل شيئًا.. إذن ماذا تُعتبر المرح والسعادة والقفز والنط؟! لقد اتبع أفلاطون رغم جبروته وصرامته أسلوب المهرجانات والألعاب والأغاني والمسرات في تعليم الأطفال، فكأنه يسقيهم السعادة.

وما الرأي في شخص يضن على نفسه بالنوم حتى لا يضيع هباءً جزءاً من عمره، ألست معي في أنه مخبول أو مجنون؛ لأنه في الواقع يهدر عمره كله إذ يحرم نفسه من الاستمتاع بحياته، ويضحي بعنصر هام من عناصر الحياة؛ فالامتناع عن النوم معناه التعجيل بالهلاك والموت!

والطفولة التي تجرد من ملاهيها ومباهجها كحياة بلا نوم؛ لأن مباهج الطفولة إن هي إلا نعاس الحياة.

وسهولة التعلم عند الأطفال خدعة تضلل عقولنا، وهي الدليل على أن الطفل لا يتعلم حقًا.. فعقله المصقول اللامع الغض يعكس كل ما يلقن له، كما تعكس المرآة صور المرئيات بسطحها من غير أن تغوص في أعماقها. والطفل يتذكر الألفاظ جيدًا، ويعيدها بحذافيرها فيفهمها السامع الكبير.. أما الطفل الصغير الذي يقولها فلا يفقه معناها!

والذاكرة مباينة للعقل لأنهما ملكتان مختلفتان، ولكن إحداهما لا تنمو مستقلة عن الأخرى تمام الاستقلال.. فقبل سن التعقل يتلقى الطفل صورًا لا أفكارًا، والفرق بينهما أن الصور هي الأشكال الخارجية، أما الأفكار فإنها معلومات عن تلك الأشياء تتعلق بعلاقاتها فيما بينها. وقد نتذكر الصورة قائمة بذاتها في الذهن، أما الفكرة فتكون مرتبطة بسواها من الأفكار.. فحين نخال الصور نكون منصورين، أما حين نفكر فإننا نقارن ونربط ونميز الصور إحساسات والإحساسات سلبية، أما أفكارنا فإنها ثمرة عملية تفكير أو تعقل أو استدلال إيجابي.

وفي اعتقادي أن الأطفال لعجزهم عن التمييز والحكم العقلي، ليس لديهم ذاكرة بما تعنيها هذه الكلمة.. وكل ما يعونه أصوات وأشكال وإحساسات، ولكنهم قلما يعون المعاني، أما وعيهم للعلاقات والارتباطات فإنه نادر جدًا .. ومجرد تغيير وضع الشيء ينسيهم إيّاه. ومما لا شك فيه أن التذكر بغير تعقل لا قيمة له. وعندما يكبر الأطفال سيضطرون إلى أن يعيدوا درس ما تلقنوه في طفولتهم.

ولست من القائلين أنه لا تفكير لدى الأطفال إطلاقًا فإنهم يحسنون التفكير أحيانًا في أمور محدودة جدًا تتصل بإحساساتهم واهتماماتهم الفعلية الراهنة فينخدع الناس بهذا ولا يحسنون تقدير مدى قدرة الأطفال الحقيقية على التفكير، فينسبون إليهم مدارك ومعارف ليست لديهم في الواقع، ويحملونهم على التفكير ويرهقونهم بموضوعات لا يستطيعون فهمها، أو يحاولون استرعاء انتباههم إلى أشياء لا تهمهم إطلاقًا، أو يبصرونهم

بمستقبلهم في حين أنهم مجردون من بعد النظر. وهكذا يرهق هؤلاء المساكين بدراسات عن أمور بعيدة كل البعد عن عقولهم، فلا عجب ألا يعيروها انتباهًا..ومن رأيى ألا نفع في دراسة اللغات للطفل في فترة الطفولة الأولى.. وأعتقد أن الطفل حتى سن الثانية عشرة أو الخامسة عشرة لا يمكن أن يتقن تعلم لغتين، اللهم إلا إذا كان عبقريًا.

ولو كانت دراسة اللغات مجرد تعلم كلمات أي أشكال أو أصوات تعبر عن الأشكال، لقلت أنها تلائمهم. ولكن معاني كلمات أي لغة تتغير بتغير حروفها، ولكل لغة صورها الذهنية الخاصة بها، والعقل مشترك بين جميع اللغات.. والاختلافات بين اللغات في الصور الذهنية للتعبير، وفي المصطلحات والاستعارات والتوريات، أما أن تكون نتيجة الطابع القومي أو سببًا فيه أحيانًا. والدليل على ذلك أن كل أمة تتغير لغتها، بتغير عاداتها وسلوكها وظروفها، تثبت بثباتها وتتأثر بتحولها.

ومن هذه الصور الذهنية المتباينة يتيح الاستعمال صورة واحدة للطفل يحتفظ بها إلى سن التعقل، ولاتكون للكلمة عنده صورتان في وقتٍ واحد إلا حينما يتمكن الطفل من المضاهاة والمقارنة بين الأفكار والمعاني، وكيف يتسنى له ذلك وهو بعد في طور التصور.. يمكن أن يكون للشيء الواحد عند الطفل ألف رمز مختلف، أما الفكرة الواحدة فلا يمكن أن يكون لها عنده إلا صورة واحدة، لهذا لا يستطيع أن يتكلم إلا لغة واحدة.

وإني أؤكد أن لا قيمة لتعلم الرموز من غير المعاني والأفكار التي تدل عليها، ومع هذا يزجون الرموز إلى الطفل دون تفهيمه مدلولاتها.. فحين

يعلمونه وصف الأرض لا يعلمونه في الحقيقة إلا رسم الخرائط وأسماء البلدان والأنهار، وهو لا يعي لها وجودًا إلا رسومًا على الورق، ولذلك فإن الطفل لا يستطيع -بعد هذه الدراسات- أن يعرف طريقه إذا طلب إليه الانتقال من بلدة إلى أخرى بمفرده.. بل أكثر من ذلك لا يعرف طريقه في مماشي حديقة أبيه المتعرجة رغم أنها محدودة، ورغم أنه يعرف أسماء البلدان والأمم!

تعليم التاريخ

ومن الأخطاء السخيفة فرض دراسة التاريخ على الأطفال، على زعم أنها مجرد وقائع وحوادث في متناول إدراكهم.. فهل الحوادث التاريخية سهلة الإدراك، فيكون من السهل أن تتكون الأفكار عنها في ذهن الطفل.. وهل معرفة الحوادث تنفصل عن معرفة أسبابها ونتائجها؟.. وإذا كانت الأفعال مجرد حركات مادية ففيمَ إذن دراسة التاريخ؟! إنه يكون شيئًا تافهًا لا متعة فيه ولا فائدة منه. أما إذا كان الأمر هو تقدير أعمال الناس على ضوء علاقاتهم الأدبية، فمن الواجب تفهيم هذه العلاقات للتلاميذ، وفي هذه الحالة ستتبينون هل يلائم علم التاريخ أعمارهم أم لا؟!

إنني لا أزعم لنفسي إنني من العلماء أو الفلاسفة، بل إنني رجل عادي محب للحقيقة غير متحيز، تعصمني قلة معاشرتي للناس من التشرب بأفكارهم القائمة على الواقع أكثر من قيامها على المبادئ.. ولدي من الأمثلة ما أقرب بها وجهة نظري إليكم.

ذهبت لقضاء بضعة أيام في الريف لدى أم فاضلة معنية بأطفالها مهتمة بتربيتهم، وحضرت ذات صباح دروس أكبر أطفالها، وتناول معلمه على سبيل الإعادة تاريخ الإسكندر الأكبر، وتناول واقعة طبيبه وصديقه «فيليب» التي لشهرتها رسمها الرسامون.. وفحواها أنه وصلت الإسكندر وهو مريض رسالة من «بارميتون» تؤكد له أن «فيليب» صديقه وطبيبه، تلقى رشوة من كسرى الفرس كي يدس له السم في الدواء. فلما قرأ

الإسكندر الرسالة، بسط يده بها إلى «فيليب» وبيده الأخرى تجرع الدواء الذي كان «فيليب» قد أعده له بيديه.

ولم يرق لي تعليق المعلم على سلوك الإسكندر، بيد أنني تحرجت من مناقشته حتى لا أحط من قدره. وأخذ الطفل يثرثر على المائدة مدفوعًا بحيويته والتماسًا للإعجاب به، وبين مئات العبارات التافهة كانت تتفق له كلمة موفقة تغطي على سخافاته. وروى موضوع الإسكندر بدقة ورشاقة، فسرّ قلب الأم وانهالت عليه بالمديح. ثم بدأت التعليقات على الحادثة؛ فإذا معظم الحاضرين ينحون باللائمة على الإسكندر لتهوره، وأقلهم من أعجب بحزمه وثباته مؤيدين رأي الأستاذ.. فأدركت أنه ما من أحد فطنَ إلى المغزى الحقيقي، وأبديت رأيي وهو أن ما يظنونه حزمًا ليس إلا تزيدًا أو مبالغةً أو تطرفًا، فأجمعوا على أنه تطرف حقًا. وهممتُ أن أستطرد في المناقشة متحمسًا، وإذا بسيدة كانت بجواري ولم تكن قد تكلمت، تميل على كتفي وتهمس في أذني:

-أسكت يا «جانجاك»، فهم لن يفهموك!

فنظرت إليها، وقد أذهلني ما همست إليّ به، وسكت..

وخطر لي بعد الغداء أن نابغتنا الصغير لم يفقه شيئًا من مغزى القصة التي أحسن سردها، فتناولت يده وسرت معه في الحديقة ورحت أسأله على طريقتي وهواي، فرأيت أنه شديد الإعجاب ببسالة الإسكندر.

ولكن أتدرون من أية ناحية في نظره؟ كانت في مجرد إقدام الإسكندر

على تناول الدواء جرعة واحدة، مع أن الأدوية في عرفه ليست مستساغة الطعم. وذكر الطفل أنه كان مريضًا منذ أيام وأنه لقى مضاضة في تجرع الدواء، وقد وجد في الإسكندر قدوة حتى أنه سيتجرع الدواء في المستقبل دفعة واحدة. وعندئذٍ لم أطل معه الحوار، وعدت إلى الدار وأنا أضحك في سريرتي من حصافة الآباء والأساتذة الذين يخالون أنهم يعلمون أطفالهم التاريخ.. ولا شك في أن وضع الألفاظ الضخمة الرنّانة مثل: الملوك والإمبراطوريات والحروب والغزوات والثورات، على ألسنة الأطفال أمر سهل، ولكن العسير هو إعطاء هذه الألفاظ معان واضحة دقيقة.

ولعل الذين لم يدركوا مغزى تنبيه جارتي لي، يتساءلون عن وجه الجمال الحقيقي في فعلة الإسكندر، ولهذا أفسر لهم الأمر في بساطة وإن كان لا يحتاج إلى إيضاح... كان الإسكندر يؤمن بالفضيلة إيمانًا جعله يضحي فيه بحياته لأن نفسه العظيمة كانت مجبولة على ذلك الإيمان.. فكان تجرعه للسم برهانًا قاطعًا وإعلانًا مدويًا لذلك الإيمان. فهل في الوجود ما هو أسمى من ذلك؟ وهل أقدم إنسان في مثل عظمة الإسكندر على ما أقدم هو عليه؟!

وما دام لا وجود لعلم يقوم على الألفاظ، فلا وجود لدراسة تصلح للأطفال. وما داموا عاطلين من الأفكار بما تعنيه هذه الكلمة، فلا ذاكرة لهم بمعنى هذه الكلمة أيضًا؛ لأني لا أعتبرها ذاكرة حقيقية تلك التي لا تحفظ إلا إحساسات.

وما فائدة الرموز التي نحشو بها رءوس الأطفال، وهى لا تعني في

نظرهم شيئًا.. إنهم سيتعلمونها حين يدركون مدلولاتها، فلماذا نرهقهم بها الآن؟ علاوة على ما في ذلك من إلهامهم بأن عندهم علم وما هو بعلم.

واللفظ الذي يتعلمه الطفل دون أن يفهم معناه فيه القضاء على قوة التمييز عنده، فيزوغ بصره ويتخبط قبل أن يتمكن من تلافي هذا النقص.

وإن كانت الطبيعة قد سخت على الطفل، فمنحت مخه المرونة التي تجعله قابلًا لجميع التأثيرات، فليس ذلك لكي نحشو ذلك المخ وننقش في تلافيفه أسماء وألفاظ الفلك والجغرافيا التي لا فائدة منها ولا معنى لها عنده، بل على العكس تفسد طفولته بأشياء عقيمة. بل الواجب أن ننقش فيها منذ البكور -بحروف راسخة لا تُمحى- المعارف التي تهيء له السعادة وتضيء له الطريق وترشده إلى أحسن استخدام لملكاته.

وحتى لو لم نستعن في تعليمه بالكتب؛ فإن ذاكرته لا يدركها الخمود لأن كل ما يراه ويسمعه يثير انتباهه وينطبع في ذاكرته.. إنه يغترف من الكتب ما لا يدريه انتظاراً للوقت الذي يستطيع فيه الإفادة بعقله مما وعى بحافظته.

ويقتضينا الواجب إذن أن نتخير الأشياء التي تتأثر بها حافظته والأشخاص الذين يخالطهم، وإقصاءه عما لا ينبغي أن يطلع عليه حتى يعرف ما يجب ويجهل ما لا يجب، فتتكون لديه مخزونات من المعارف المجدية في تربيته منذ حداثته ثم في سلوكه في مستقبل حياته.

وإني أعترف أن هذه الطريقة لا تنشئ عباقرة ولكنها تُكون رجالًا

ذوي حصافة وبأس، أصحاء العقول والأبدان، إن فاتهم الإعجاب بهم في صغرهم نعموا بالتوقير والتبجيل في كبرهم.

ولن أجعل «أميل» يحفظ شيئًا عن ظهر قلب، حتى الأساطير ذات السحر والجمال؛ لأن الأسطورة شيء وألفاظها شيءٌ آخر، والتاريخ شيء وألفاظه شيءٌ آخر.

وإنه لتأخذني الدهشة إذ أرى الناس يسمون الأساطير «أخلاقيات الطفولة» وفاتهم أن في الأسطورة أكذوبة تستهوي الأطفال، فيغفلون عن الحقيقة. وأن ما يُراد تعليمه غير ما يجب تعليمه.. فقد تجدي الأساطير مع الكبار، أما الصغار فليس لهم إلا الحقيقة المجردة العارية؛ فإذا حجبناها بقناع رقيق، لم يجشموا أنفسهم عناء إماطته.

والأطفال الذين يتعلمون الأساطير لا يفقهونها، وإذا حدث أن أدركوا مغزاها كان الأمر أوخم عقبى؛ لأن ذلك المغزى ملتوٍ مشوب لا يتناسب مع سنهم، مما يجعله أدعى لانزلاقهم في الرذيلة لا لجنوحهم إلى الفضيلة.

ولعل هناك من يقول أن ذلك مغالطة.. ولكن بقليل من التأمل ندرك أن الطفل يُكْره على حفظ الأساطير ولكنه لا يفقهها، ومهما بلغت معانيها من البساطة، فسيظل القالب الشعري فوق مستوى إدراكه، وكذلك أفكاره؛ لأن القالب السوي سهل الحفظ ولكنه عسير الفهم.. فإذا الوضوح والفهم قد راحا ضحية لذة التنغيم، وكأننا اشترينا بالفهم سُرور الإيقاع.

ويكفي أن أقول أن الأساطير، حتى مانظم منها خصيصًا للأطفال، إن هي إلا ألغاز بالنسبة لهم، تحتاج إلى شرح وراء شرح وتحليل بعد تحليل، مع أنه يمكن تلخيص مغزاها في أسلوب سهل واضح في خمس كلمات.

وإذا تتبعنا الأطفال الذين يحفظون الأساطير، فسنجدهم ولا شك عند التطبيق يعمدون إلى عكس المقصود.. فبدلًا من النفور من العيب الذي تعالجه الأسطورة، تفتنهم منها صورة الشر، فهم في أسطورة الغراب والثعلب وقطعة الجبن يسخرون من غباء الغراب ويعجبون ببراعة الثعلب الذي عُرف بدهائه ومكره كيف يأخذ قطعة الجبن التي كانت بفم الغراب. والطفل يفتتن بدور المنتصر، وهو اختيار طبيعي جدًا لأنه مبني على حب النفس والاعتزاز بها.. فهل هذا درس وضع للأطفال على ما ينطوي عليه من مغزى؟!

وهكذا يتقمص الطفل أدوار البطولة في مختلف الأساطير؛ لأنها ألمع الأدوار، تفتنهم وتستهويهم. وهكذا يفعل الطفل في شتى المناسبات مع أقرانه.. فالأساطير في رأيي أيسر سبيل لتعليم الطفل القسوة والطغيان والخداع والختل والبخل.. وهذا بالتأكيد عكس المقصود منها.

وأني إذ أعفي الطفل من الحفظ والكتب أُزيحُ عن كاهله أشقى ما يشقيه، فالقراءة هي غمة الطفولة الغاشية.

وأريد ل«أميل» ألا يعرف الكتاب قبل سن الثانية عشرة.. وأنا أوافق على تعليمه القراءة حين تكون مجدية. بيد أنه يمكنه تعلمها تدريجيًا بواسطة الباعث الشخصي، أي عندما تصله دعوات لنُزهات أو عشاء،

فنساعده على حل رموزها، فيتعرف إلى رسم الكلمات ويتعلم بذلك الرسم والقراءة، وعندما يجيب أو يشكر أو يدعو، فستكون هذه مناسبة لتعليمه رسم الحروف كتابةً!

الطفل المستبد

ألقت المقادير بين تجاربي حالة تلفت النظر، فقد حدث أن قمت مدى بضعة أسابيع على شأن طفل كان قد تعود ليس فقط تنفيذ هواه وميوله، بل فرض إرادته و إملاءها على من حوله، وبهذا كان الطفل ذا بدوات ونزوات.

وحاول الصغير أن يجرب ذلك معي منذ اليوم الأول، ليعرف مدى استعدادى وقابليتي للتساهل.. فنهض من فراشه في منتصف الليل، وأنا مستغرق في نومي، فارتدى ثياب النهار وأخذ يناديني؛ فاستيقظت وأضأت الشمعة. بيد أن مراده لم يتعد ذلك فلم يلبث أن غلبه النعاس بعد قليل، فعاد إلى سريره راضيًا عن التجربة التي قام بها.

ثم عاود الكرة بعد يومين، ولقي من التوفيق ما لقيه في المرة الأولى، بيد أنني لم أظهر شيئًا من ضيق الصدر أو نفاد الصبر.. وكل ما فعلته أنني قلت له عندما قبلني لينام، وبكل هدوء:

– لا بأس بما حدث يا صديقي الصغير، ولكن إيّاك أن تعاود الكرة.

ومما لا شك فيه أن كلمتي أثارت فضوله، فقد أراد منذ اليوم التالي أن يعرف كيف سأجسر على عصيانه، فعاود الكرة واستيقظ في الساعةِ عينها من منتصف الليل وراح يناديني.. فسالنه ماذا يريد، فقال أن لاسبيل له إلى النوم، فقلت له:

– هذا من سوء حظك.

ثم لذت بالصمت، فلم أزد على ذلك حرفًا ولم أتحرك من موضعي.. فرجاني أن أوقد الشمعة، فسألته عن السب دون أن أتحرك من مكاني. فضايقه عدم اكتراثي واللهجة التي استخدمتها معه، فراح يتحسس طريقه بحثًا عن القداحة، ثم تصنع محاولة استعمالها.. وعندئذٍ لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك وأنا أسمعه يطرق بها يده، ولمّا يئس من إشعالها أتاني بها في فراشي فقلت له أن لا حاجةَ لي بها.. وأوليته ظهري ورقدت على جنبي الآخر، فأدهشني أن أراه وقد راح يجري في الحجرة على غير هدى صائحًا ومتغنيًا، مُحدِثًا ضجة شديدة.. وراح يتخبط بين المقاعد والمنضدة حريصًا على أن تكون الصدمات هينة لا تؤلم ومع ذلك يصرخ عاليًا لكي يقلقني، ولكنني لم أتأثر، ووضح لي أنه يرمي إلى إثارة غضبي.. ولم يخطر بباله قط أن يجد مني ذلك الهدوء الشامل.

إلا أنه تشبث بعناده وعقد النية والعزم على التغلب على صبري، فاستمر في ضجته وصخبه إلى درجة أثارتني.. فأدركت أنني إذا ثرت فسأفسد خطتي، فالتجأت إلى خطة أخرى، ونهضت من فراشي دون أن أتكلم، وبحثت عن القداحة فلم أعثر عليها، وطلبتها منه فأعطاني إيّاها والفرحة تكاد تذهب بلبه لتمكنه من الانتصار عليّ. بيد أني أوقدت الشمعة ثم أخذت الصغير من يده وذهبت به في رفق إلى حجرة مجاورة محكمة النوافذ وليس فيها ما يخشى أن يحطمه، وتركته فيها وحده دون أن أترك له الشمعة وأغلقت عليه باب الحجرة بالمفتاح.. ثم عدت

إلى فراشي ونمت دون أن أقول له كلمة واحدة.

وطبيعي أنه أحدث ضجة صاخبة في البداية، وكان ذلك متوقعًا بطبيعة الحال فلم يدركني الغيظ بتاتًا، وأخيراً هدأت الضجة، فأصخت السمع فعرفت أنه استقر وهدأ، فاطمأن بالي.

ودخلت الحجرة في اليوم التالي، في وضح النهار، فرأيت المتمرد الصغير متمددًا على أريكة مستغرقًا في النوم، ولا شك أنه كان في مسيس الحاجة إلى ذلك بعد هذا العناء الشديد.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فقد عرفت الأم أن طفلها قضى ثلثي الليل بعيدًا عن فراشه فكأنما تقوضت أركان المعمورة وصار الطفل من الهالكين. وانتهز الصغير الفرصة ووجدها ملائمة للانتقام، فتصنع المرض.. ولم يخطر بباله أن ذلك لن يجدي عليه شيئًا.

وبادرت الأم إلى استدعاء الطبيب، وكان خفيف الروح محبًا للمزاح –لسوء حظ الأم– فقد أراد أن يتسلى بفزعها، فراح يجسم لها المخاوف ويهول من شأن المرض.. ثم مال على أذني يهمس لي:

– دعني أتصرف وأعدك أن الطفل سوف يُشفى إلى أمد طويل من تلك البدوات، وعلى الأقل من نزوة المرض الذي يتصنعه.

فوصف للمريض الصغير المتمرد العنيد غذاءً كريهًا تمجه النفس، ودواءً علقمًا يُؤخذ في مضاضة.. وفرض على الطفل ملازمة الفراش وعدم مبارحته إطلاقًا. ولا شك في أن ذلك كله مزعج للصغير أيّما إزعاج..

وأشفقت على الأم المسكينة أن تكون ضحية خداع جميع من حولها، فيما عداي أنا، وكانت تبغضني، لأنني لا أخدعها.

وبعد أن صبت عليّ وابلًا من التقريع القاسي، قالت ليأن ابنها رقيق البنية، وأنه الوارث الوحيد لأسرتهاء ويجب المحافظة على حياته مهما كلفها ذلك، وختمت كلامها بقولها أنها لا تحب أن يلقى الطفل معارضة من أي نوع.

وكانت تعني بعدم معارضته أن أطيعه على طول الخط أيًا كان ما يخطر بباله.. فضايقني كلام الأم وقلت لها في برود تام:

– سيدتي.. إنني لا أدري بل لا أريد أن أدري كيف يربى وريث، فعليك أن تدبري الأمر على هذا الأساس.

وكان المربي الأصلي في إجازة، فتولى الأب تهدئة الموقف، وكتبت الأم إلى المربي تستعجل عودته.

أما الطفل فقد أثمرت فيه التجربة؛ إذ أنه بعد أن رأى أنه لا فائدة من إقلاقي ولا من تصنع المرض، قرر أن ينام في هدوء وأن يكف عن التمارض.

كان الطفل يتفنن في بدواته ونزواته لينغص حياة مربيه؛ لأن تربيته كانت تحت سمع الأم وعلى مرأى منها، و كانت لا تحتمل أو تقبل أن يُعصى لوريثها المدلل أمر.. فإذا خطر للطفل أن يخرج كان على مربيه أن يكون متأهبًا للخروج به دون معارضة أو استمهال، وكان الطفل الماكر يختار الوقت الذي يرى فيه مربيه مشغولًا!

وأراد الطفل أن يفرض على ذلك، لينتقم من راحتي نهاراً للراحة التي أجبرته أن يدعها لي ليلًا. وكنت متأهبًا لخطته، فأظهرت له على الدوام سروري بتنفيذ رغباته، ولكني عولت على انتهاج خطة أخرى لشفائه من بدواته.

أعلم أن الأطفال ينحصر تفكيرهم في لحظاتهم الحاضرة.

ولذلك عمدت إلى توفير تسليات يحبها، داخل البيت.. فإذا انغمس فيها تمامًا اقترحت أن نخرج للنزهة وألححت، ولكنه بطبيعة الحال لا يجيبني بل يرفض؛ فأخرج وحدي وأتركه!

ولم يكن لديه مايسليه في اليوم التالي، فتملكه الضجر وتظاهرت أنا بأنني مشغول.. وكان في هذا ما يحفزه إليّ بدواته، فجاء يطلب مني أن أصحبه في نزهته، فرفضت.. ولكنه أصرّ، فقلت له:

– كلا يا صغيري.. لقد نفذت أنت بالأمس إرادتك فعلمتني أن أتمسك بإرادتي.. وما بي رغبة في الخروج اليوم.

– حسنًا، سأخرج وحدي..

– كما يروق لك..

واستأنفت تظاهري بالانشغال، فارتدى ثيابه في قلق وجاء ليحييني قبل أن يخرج، فحييته. وحاول أن يفزعني بذكر الأمكنة النائية التي سيذهب إليها، فلم أكترث وتمنيت له رحلة سعيدة.. فتضاعف ضجره ولكنه تظاهر بالهدوء، وطلب إلى خادمه الخاص أن يتبعه في نزهته.

وكنت قد احتطت لذلك وأنهيت الأوامر اللازمة للخادم.. فأجابه هذا بأنه مشغول بأداء أعمال كلفته أنا بها، لا سبيل إلى إهمالها. ولم يتصور الطفل كيف نرفض تلبية رغبته وهو الذي كان يظن نفسه المطاع دون معارضة، ويعتقد أن مهمة الجميع الوحيدة هي المحافظة عليه!

وبدأ يشعر بضعفه، وداخله الخوف بأنه سيواجه وحده أُناسًا لا يعرفونه ولا يعرفهم، فتجسمت عنده المخاطر التي سيتعرض لها.. ولكن عناده شد من عزيمته، فهبط السلم ببطء وسار في الشارع محاولًا أن يتعزى عن المتاعب التي ستصادفه، وألوان الأذى التي سيتعرض لها، بأن جريرة ذلك كله سوف تقع على عاتقي أنا، ولكنني كنت قد أعددت الأمر من هذه الناحية بموافقة والده. وما أن تقدم بضع خطوات في الشارع، حتى سمع تعليقات جارحة تسخر منه عن يمين وعن يسار:

– ترى إلى أين يذهب هذا السيد الصغير الجميل وحده؟!..

– أغلب الظن أنه سيضل طريقه.. أرى أن أدعوه للدخول عندنا..

– حذار.. لا بدّ أنه مغضوب عليه.. طرده أبوه من بيته لما يئس من طاعته واستقامته.. هكذا تكون معاملة الأطفال العصاة، يتركون وشأنهم وإن تعرضوا لضلال الطريق.

وسار خطوات أخرى، فالتقى بشرذمة من الأطفال من أبناء العامة في مثل عمره، أخذوا يتندرون به ويغيظونه.. فشعر بالمهانة والضعف في وحدته، وليس برفقته من يذود عنه ويحميه. وقد صار موضع السخرية من

جميع الناس، وتبين أن شارات النبالة التي تزين صدره لا تشفع ولا تكفل له الاحترام.

وتفاقم الأمر حين عاد إلى البيت ليجد والده يهبط السلم، فكان عليه أن يخبر أباه أين كان ولماذا خرج بمفرده. ولقى حرجًا تمنى معه لو أن الأرض ابتلعته.. وأنهى إليه أبوه أنه عاص، وأنه إذا أراد أن يخرج بمفرده فعليه أن يرتب أمره على ألا يعود، فهو لا يقبل في بيته عصاة أو خارجين على النظام.

أما أنا فقد استقبلته في برود وصرامة، بغير تأنيب أو سخرية حتى لا يتنبه أو يفطن إلى أن المسألة كانت مدبرة.. واكتفيت بعقابه بعدم الخروج معه في ذلك اليوم في ساعة النزهة المعتادة.

وحرصت على الخروج معه في اليوم التالي.. فرأينه يمر، ويده في يدي، مزهوًا فخورًا على تلك الجماعات التي سخرت منه بالأمس وهزأت حين مر بها وحده، ولست في حاجة إلى القول أنه لم يحاول بعد مطلقًا إرغامي على الخروج.

وبهذه الوسائل وما يماثلها من الخطط استطعت في غضون المدة التي قضيتها معه أن أسوسه وأسيره كما أشاء أنا، من غير مواعظ ومن غير تحذيرات ونواه أو برم بدروس لا جدوى منها..

عندما كنت أصمت يكون صمتي مصدر قلق له؛ لأنه يعلم أن خطتي العملية ستكون هي الدرس الحازم الذي يتعلم منه ما أريده أن يتعلمه.

تدريب الحواس

إن تمرين الحواس أو رياضتها ليس في مجرد استعمالها، بل في تدريبها على أن تكون وسيلة صالحة للتمييز.. ورياضية الحواس هي أن نتعلم كيف نحس؛ لأننا لا نعرف كيف نلمس أو كيف نرى أو كيف نسمع إلا إذا تعلمنا ذلك.

والسباحة والجري والقفز وحمل الأثقال رياضة طبيعية ميكانيكية تكسب الجسم قوة من غير أن يكون لها تأثير في التمييز. ولكن هل كل أعصابنا تنحصر في الأذرع والسيقان؟ أليست لنا عيون وآذان؟ وهل هذه الجوارح أقل مرتبة وأهمية وخطراً من الأخرى؟

إن رياضية القوة البدنية وحدها لا تكفي، بل يجب علينا أن نعني برياضة جميع الحواس التي توجه قوانا وتهديها.. ويجب أن نستفيد من كل حاسة عندنا ما وسعنا ذلك، ثم نقوم تأثير كل حاسة من الحواس الأخرى. ولا ينبغي أن نرهق قوانا من غير حساب دقيق للمقاومة وللمجهود.. ولنجعل رائدنا تقدير الأثر قبل استخدام الوسيلة، وعلينا ألا نجعل الطفل يقتصر على جهود ضئيلة أو سطحية، بالرغم من أنه يتوقع النتيجة الطبيعية لحركاته ويصحح أخطاءه بالتجربة. أليس واضحًا إذن أن يزداد تمييزه وتقديره وحصافته بازدياد خبرته؟

فإذا كان المراد حمل ثقل وأراد الطفل أن يعرف هل يستطيع ذلك أم

لا من غير تجربة لرفعه، أليس الواجب أن يتعلم تقدير الأثقال بالنظر، ويعرف كيف يقارن بين كتل متفاوتة الحجم من مادة واحدة، وبين كتل متساوية الحجم من مواد متنوعة.

إنني اعرف شابًا متعلمًا أبى أن يصدق إلا بعد تجربة عملية بسيطة، إن دلوًا مملوءًا بكتل من خشب البلوط أقل ثقلًا من ذلك الدلو نفسه وهو مملوء بالماء.

بيد أننا لسنا مسيطرين على حد سواء على جميع حواسنا.. فحاسة اللمس لا يقتصر عملها في حالة اليقظة، وهي حاسة منتشرة على سطح جسمنا كله وكأنها حارس يقظ ساهر ينبهنا إلى ما قد يؤذينا، ولاستمرارها نتدرب عليها قبل غيرها، ولذلك فحاجتنا إلى رياضتها أقل من حاجتنا إلى رياضة سائر الحواس الأخرى. وحاسة اللمس عند العميان أقوى وأرهف مما هي عند غيرهم؛ لأن افتقارهم إلى البصر جعلهم يركزون مشاعرهم في تلك الحاسة لمعرفة الأشياء والتمييز بينها.. فإذا سرنا في الظلام فإننا نروض تلك الحاسة فنعرف الأجسام التي نلمسها، ونميز بينها.. وبذلك نعمل ليلًا من غير ضوء، ما يعمله العميان نهارًا من غير عيون.

والفرق بيننا وبين العميان أننا متفوقون عليهم طالما أن الشمس مشرقة، وأنهم في الظلام متفوقون علينا. وجميع الناس عميان نصف أعمارهم، ولكن العميان الحقيقيين يعرفون في جميع الأحوال كيف يتجهون عن طريق اللمس، بينما لا نجسر نحن على أن نخطو خطوة في حلكة الظلام.

وقد يتعلل بوجود وسائل الإضاءة وأن فيها ما يغني ويعين، ولكن

هل نضمن توفرها في كل حين؟ إنني أفضل ل«أميل» أن تكون له عينان على أطراف بنانه على أن تكونا له عند بائع الشموع!

إنك إذا وقفت ليلًا في حجرة مظلمة، ولفحت وجهك نسمة هواء خفيفة، فستعرف أنك في مكان مقابل الباب أو النافذة، وهذه الملاحظة لا يمكن أن تكون إلا في الليل لأن حاسة النظر تعوقها في النهار، ومع عدم استخدام اللمس المباشر أو العصى كالعميان، إلا أن حاسة اللمس للهواء كافية ويجب رياضتها ليلًا.

والكثير من ألعاب الليل يحقق ذلك الغرض، بل أن له أعظم الفائدة؛ لأن الليل مخيف للناس بالفطرة، وقلما تجدي الشجاعة أو العقل أو المعرفة –أو هي جميعًا– في عدم الشعور بذلك الخوف. وإني أعرف مفكرين من كبار العقول والفلاسفة –بل والمحاربين– لا يهابون شيئًا في وضح النهار، ولكنهم يرتجفون رعبًا في بهيم الليل كما ترتجف ريشة في مهب الريح، أو كما ترتجف النساء ليلًا من حفيف الأشجار.

ولذلك الخوف علة فطرية، وإن كان البعض يعزونه خطأً إلى أقاصيص المربيات والأمهات.. إنها بعينها العلة التي تجعل الأصم نفورًا وتجعل الناس عمومًا متطيرين؛ لأن الجهل بالأشياء التي تحيط بنا أو تدور حولنا هو السبب، ولأننا تعودنا بالنظر نهارًا أن نرى الأشياء ونتوقع تأثيرها مقدمًا.. فإذا جنّ الليل لا نرى شيئًا من حولنا. ومن الطبيعي أننا نفترض آلاف الأشياء والحركات التي يمكن أن تؤذينا.. ومن العسير أن نقنع أنفسنا، أو نضمن عدم وجودها.

إنني أعرف أني في أمان حيث أنا موجود، ولكني لا أوقن بذلك إلا حين أبصره. فهناك دائمًا سبب للخوف، ولكنه ليس موجودًا في النهار. ثم إنني أعلم أن جسمًا غريبًا لا يؤثر في جسمي من غير أن ينبهني إلى ذلك صوت أو حس، ولهذا تكون أذني مُرهقة أثناء الليل، وأي صوت لا أميز مصدره يستثير حاسة حفظ الذات ويقتضيني الحذر، أي أسوء بواعث الخوف والفزع.

وحتى في حالة عدم سماع صوت في بهيم الليل، فليس ذلك باعثًا على الاطمئنان، لسبب جوهري: هو أن إنعدام الصوت والسكون الشامل يجعلان المفاجأة أدهى وأخطر.. فلا بدّ من افتراض كل ما لا تراه عيناي، والافتراض وليد المخيلة، وهذه لا سلطان لي عليها.. فأتخيل اللصوص في حالة الصوت وأتخيل الأشباح في حالة السكون، وهذا أدعى للخوف بل الفزع. ولا حيلة للعقل هنا لأن غريزة حفظ الذات أعظم قوة منه، ولا سبيل إلى التغلب على الخوف إلا بالعقل، وهو عاجز عن ذلك.

وكما يقال إذا عُرف السبب بُطل العجب، كذلك إذا عرفنا علة الداء اهتدينا إلى الدواء. والعادة تقتل المخيلة ولا شيء يثير المخيلة إلا ماهو خارج على المألوف، ومانراه كل يوم لا يتعلق بالمخيلة، ولكن بالذاكرة. ولهذا يقال أن المادة عدو العاطفة، فمتى ألفنا شيئًا هبطت قيمته العاطفية أو انعدمت لدينا لخروجه عن دائرة المخيلة التي توقد بلهيبها المستعر جذوة العواطف.

وليس من سبيل إلى الخلاص من رعب الظلام إلا بالتعود عمليًا على

السير فيه.. إنه أنجح علاج له، لا تدانيه حجج الفلاسفة. وكما أن الدوار لايصيب من تعود أن يمخر عباب البحر، فكذلك الخوف لا يصيب من تعود السير في الظلام.

وهذه فائدة لها قيمتها في الألعاب الليلية، بيد أنني أوصي بأن تقترن بالمرح والبهجة إلى أقصى مدى.. فحذار من إرهاق الطفل بألعاب مزعجة أو صامتة أو يخيم عليها السكون والاكتئاب.. بل أن يبتهج ويضحك وهو يخوض الظلام، وأن يعاود الضحك قبل أن يغادره، وأن يركز في نفسه مدة وجوده في الظلام فكرة المتعة والتسلية.. ولا ينبغي أن يسمح للفزع أن يخطر على باله ولو من بعيد.

وأروي هنا مثالًا شخصيًا وقع لي في طفولتي ومرت بى وقائعه: كنتُ ذات مرة أقيم في الريف لدى قسيس بروتستانتي، وزاملني ابن عمٍ لي وكان أكثر ثراء مني وحظى بالرعاية من عائلة القسيس أكثر مما حظيتُ. وكان ابن عمي هذا يكبرنى سنًا، ولكنه كان جبانًا جدًا ولاسيما في الليل.. فدأبت على السخرية من فزعه، حتى ضاق بي القسيس وأراد أن يختبر مبلغ شجاعتي. فأعطاني مفتاح الكنيسة ذات مساء من أمسيات الخريف الحالكة، وطلب مني أن أحضر له التوراة من فوق منبرها، ولم ينس أن يشفع طلبه ببضع كلمات ثناء على إقدامي جعلتني عاجزًا عن الاعتذار. فانطلقت في الظلام، ومررت بالمدافن وأنا في غاية الاطمئنان والبشاشة، فلم يكن من عادتي وأنا صغير أن اشعر بأي خوف ليلًا ما دمتُ في الهواء الطلق.

وبلغت الكنيسة، وحين فتحت بابها سمعت في داخلها ما خيل إليّ أنه أصوات، فتزعزعت شجاعتي العتيدة.. وخطوت إلى الداخل، وما لبثت أن توقفت أمام الظلمة المرعبة داخل المعبد، واقشعر بدني ووقف شعر رأسي، فعدت القهقري وخرجت، ولذت بالفرار وأنا أرتعد. ووجدت في الفناء كلبًا صغيراً أخذ يداعبني، فعادت إليّ الطمأنينة، واستشعرت الخجل من خوفي، ورجعت إلى الكنيسة وحاولت أن أصحب الكلب معي فأبى. وتجاوزت العتبة على عجل، وإذا بالفزع يعاودني بشدة أعنف حتى طاش صوابي، وكنت أعرف أن المنبر عن يمين الكنيسة ولكن لانزعاجي رحت أبحث عن يسارها. ورحت أتخبط بين المقاعد حتى لم أعد أدري أين أنا ولا أين الباب! واستولى عليّ ذهولٌ شديد، إلى أن تعودت عيناي الظلمة ولمحت الباب؛ فأسرعت بالخروج وقد عولت على ألا أعود إلى الكنيسة إلا في وضح النهار.

وعدت إلى البيت وهممت بالدخول، ولكن تناهى إلى سمعي صوت القسيس يجلجل بالضحك، فخيل إليّ أنه يتندر بي وتصورت أنني سأكون موضع السخرية، فترددت في فتح الباب، وسمعت ابنته تسأل عني في قلق وتأمر الخادمة بإعداد الفانوس. وكذلك تأهب القسيس للخروج للبحث عني، ومعه ابن عمي الذي سينتهز هذه الفرصة –بغير شك– ليشمت بي ويسخر مني.

وما أشعر إلا وقد تبددت جميع مخاوفي وتبخرت، إلا الخوف من اكتشافهم للحال التي كنت فيها، فمرقت كالسهم إلى الكنيسة غير هياب

أو وجل. وبطبيعة الحال لم أضل طريقي في هذه المرة، بل يممت فورًا شطر المنبر، وصعدته في ثبات وتناولت التوراة، وما أن أتيت بها حتى عدوت إلى الفناء في ثلاث قفزات.. ثم أسرعت الخُطى عائدًا إلى البيت قبل أن تخرج العائلة للبحث عني.

وقد تأخذك الحيرة وتسألني هل أنصح باحتذاء هذا المثال، فأبادر بالنفي.. لأنني لا أعتبره صالحًا لافتقاده إلى البهجة والسرور. فالأفضل في نظري توفرهما، وذلك بأن أدعو مع تلميذي زمرة من الأطفال في مثل سنه يخرجون في جماعات للسمر واللعب والغناء ليلًا بحيث لا تساورهم فكرة الخوف أو الفزع.. وقد أهيئ لهم ألعابًا في الظلام لها فائدتها في تعويدهم عليه، دون أن يخافوا، وذلك بالبحث عن أشياء وإحضارها من أماكن منعزلة مظلمة. ولكي أشجعهم وأشحذ هممهم، أجعل للفائز جائزة شهية من الحلوى أو غيرها مما يجعل المسألة تنافسًا محببًا إلى نفوسهم.

وإني لأترك للمربين الحصفاء ابتكار وتنويع أفانين هذه الألعاب لأن مايهمني هو أن ينشأ الطفل منذ نعومته متعودًا على الظلام يسير في الليل دون خوف أو فزع، مع استعمال يديه وقدميه مهما بلغت حلكة الظلام غير هياب ولا وجل؛ لأن مخيلته حين تكون مشحونة بالألعاب الباعثة للسرور زاخرة بالبهجة التي اقترنت بالظلام منذ حداثته، لا يمكن أن تخيل إليه أو تصور له الأشياء المفزعة بحال من الأحوال.. فلن يفزعه الليل بعد ذلك، بل يحبه ويشيع في نفسه الطمأنينة والابتهاج.

رياضة السباق

لا شك في أن كل ما من شأنه أن يتيح الحركة للجسم دون أن يرهقه، يحث الأطفال على فعله في سهولة.. والوسائل لإثارة اهتمامهم ودفعهم إلى قياس ومعرفة وتقدير المسافات لا حصر لها.

فهناك مثلًا شجرة كرز عالية، نجعلها وسيلة فنثير أمام الطفل مشكلة قطف ثمار الكرز منها، فنتساءل هل يكفي سلم مخزن الطعام للصعود إليها؟

وإن سرنا بجانب مجرى ماء عريض، نتساءل كيف يمكن عبوره؟ وهل يكفي لذلك لوح من ألواح الخشب العادية نضعه على إحدى الضفتين فيصل بنا إلى الأخرى؟

وإذا فرضنا أننا نريد أن نصطاد السمك من الخندق المحيط بالقصر ونحن نطل من شرفته، فكم ينبغي أن يكون طول خيط السنارة؟

وإذا كنت أريد أن أعمل أرجوحة ما بين شجرتين، فما طول الحبل الذي يلزم لذلك؟ وإذا كانت هناك حجرة مساحتها خمسة وعشرون قدمًا مربعًا، فهل تكون مساحتها كافية لإقامتنا؟ وهل تكون أوسع من حجرتنا؟ وإذا كنا في نزهة في الخلاء، وشعرنا بالجوع، وكانت هناك قريتان تلوحان للنظر عن يمين وعن يسار، فإلى أي القريتين يكون وصولنا أسرع لكي نظفر بالطعام؟ وهكذا.

وإذا أردت تمرين طفل مدلل كسول ميال إلى الخمول على السباق والجري، وكانت لا تستهويه هذه الرياضة أو غيرها، مع أن المفروض في طبقته أن يتهيأ للجندية فالسبب في ذلك أنه استقر في ذهنه أن رجلًا من طبقته لا يليق به أن يعمل، وأنه يجب أن تكون في نبالته الكفاية عن الأذرع والسيقان وكافة الأعمال.

ومن العجب أن الطفل لا يُقْبِل على ممارسة السباق. ولما كنت قد أخذت نفسي ألّا ألجأ إلى الترغيب ولا إلى التهديد، فكيف السبيل لكي أثير لدى الطفل الرغبة في الجري دون أن أقول له شيئًا من هذا القبيل؟

لو أنني جريت أمامه، فأغلب الظن أن ذلك لن يُجدي في ترغيبه، وأدى بي تفكيري لكي أصل إلى الغاية المرجوة أن آخذ معي حين نخرج للنزهة بعد الظهر قطعتين من الحلوى التي يُغرم بها تلميذي وأضعهما في جيبي، ويأكل كلٌ منّا قطعة أثناء نزهتنا، ثم نعود إلى البيت مسرورين مبتهجين.

وفي مرة أخرى لاحظ أنني اخذت ثلاث قطع من تلك الحلوى التي لو تُرك له الأمر لأتى على ست قطع منها لشدة غرامه بها. ورأيت أن أسرع يلتهم قطعته كي يطلب القطعة الثالثة قبل أن أفرغ من قطعتي، فقلت له:

– كلا يا صغيري، أريد أن آكلها أنا أو نقتسمها فيما بيننا على أنني أفضل أن أجعلها جائزة بين هذين الفلاحين، ينالها أسبقهما في الجري إلى موضعها.

وناديت الفلاحين، وأريتهما الحلوى، واقترحت عليهما الشرط؛ فقبلا فرحين. فتخيرت حجرًا بعيدًا مرتفعًا جعلته غاية السباق، ووضعت فوقه قطعة الحلوى. ثم رسمت على الأرض خطًا وقف عنده الغلامان. ثم أصدرت إشارة البدء فأسرعا في الجري، وفاز أسبقهما بقطعة الحلوى وإلتهمها على مرأى من صاحبه المغلوب.

بيد أن هذه التجربة لم تحدث الأثر المنشود لدى التلميذ في اليوم الأول، ولكنني لم أكترث ولم أتعجل.. فتربية الأطفال تحتاج إلى صبر وطول أناة، والوقت الذي نصرفه في تعليمهم نوفره فيما بعد حين نجني ثمرة التعليم.

واستمرت نزهاتنا رتيبة لا يطرأ عليها تغيير، آخذ معي قطعًا من الحلوى، ثلاثًا أو أربعًا، وأعقد سباقًا بين الغلمان الذين نصادفهم، جائزته قطعة أو قطعتان. ولكن كانت الجائزة بسيطة، ولكن الفائز كان يحظى دائمًا بالثناء والمديح والتصفيق، فكان ذلك يثير الحماسة والتنافس بين المتسابقين ويستنهض هممهم. وكنت أحيانًا أشرك مجموعة من الغلمان فكان المارة يتجمعون بدافع الفضول، ويصيحون ويشجعون، فكان ذلك يذكي حمية المتسابقين.

وأحيانًا كنت أرى تلميذي وقد أخذته الحماسة، فيصيح هو الآخر مشجعًا ومحبذًا، وقد تجسم في نظره ذلك السباق البدائي الريفي. بيد أنه أخذ يضيق بتسرب قطع الحلوى التي يحبها إلى الغلمان، وبدأ يدرك أن الجري أمر لا يخلو من فوائد لذيذة الطعم، فلماذا لا يعالجه؟ وحفزّه ذلك فشرع يتمرن عليه خلسة.

وتظاهرت بأني لا ألاحظ ما طرأ عليه.. بيد أنني أدركت في الوقت نفسه أن خطتي قد أثمرت. فبعد فترة من الوقت، أعتقد أنه قد أحرز قدرة على الجري، فقال لي:

– أريد أن أكل قطعة الحلوى الفائضة.. أعطني إيّاها.

فلم أوافق.. فألح في طلبها، ثم قال بلهجة لا تخلو من التحدي:

– حسنًا.. ضعها فوق الحجر، وأنا أتسابق مع الآخرين.

فضحكت إذ سمعت منه ذلك، وقلت:

– وهل للنبلاء أن يجروا؟.. سيزيد الجري من شهيتك للأكل، ولكنك لن تظفر بما يشبع الشهية!

ووخزته هذه السخرية، فبذل مجهودًا في ذلك اليوم كي يفوز، وفاز فعلًا لأنني توخيت أن يكون الشوط قصيرًا، ولم أشرك في السباق أسرع الغلمان، حتى أضمن فوز تلميذي في أول محاولة له، فأغرس بذلك في نفسه حب السباق.

وتعلق بهذه الرياضة على مر الأيام، حتى استطاع أن يفوز على سائر الغلمان من غير محاباة مهما بلغ طول الشوط، وأذهلني أنه تعلم عادة أخرى لم تخطر لي على بالٍ، فقد كان في البداية يأكل قطع الحلوى التي يفوز بها بمفرده.. وشيئًا فشيئًا، وعندما تعدد فوزه أصبح كريمًا فصار يقاسم الغلمان المغلوبين حلواه التي يفوز بها، وبذلك تعلم معنى البذل والسخاء.

وسأجعل الطبيعة رائد «أميل» ومعلمه في فن الرسم الذي أريده أن يتعلمه، يتأملها وينقل عنها موضوعاتها.

أما دراسة الهندسة، فسأتوخى أن تكون عن طريق القياس الدقيق للأشياء والأشكال، على أن يبحث بنفسه بعد ذلك من العلاقات التي بينها؛ فإنني لا أوافق على إتباع الطريقة المقلوبة العقيمة، بعرض منطوق النظرية أولًا، ثم السعي بعد ذلك وراء إثباتها.

ومن الأمور التي يجدر الاهتمام بها شحذ الذهن وتنمية الملاحظة أثناء اللعب عن طريق حاستي السمع والنظر وعن طريق الأصوات لتقدير المسافات.

الكتاب الثالث

إميل أو الرجل

طفولة "أميل"

سلكت نهج الطبيعة في تربية تلميذي، فإذا لم يكن قد جانبني الصواب في تطبيق هذا المنهج، فإني سأفلح ولا شك في توجيه فتاي عن طريق مملكة الحواس إلى حدود عقل الطفولة.. وأول خطوة نتجاوز بها تلك الحدود، يتحتم أن تكون خطوة رجل لا طفل.

بيد أنه قبل أن نلج المرحلة الجديدة، يجب أن نلقي نظرة على المرحلة التي اجتزناها..

متى نستشعر لذة حقيقية من مشاهدة رجل؟

يكون ذلك عندما ترد أفعاله ذاكرتنا إلى باكورة عمره فيتمثل لنا صغيرًا.. فإذا رأيناه كما هو أو كما سيكون في شيخوخته، فإن فكرة الذبول والوهن تقضي على إحساسنا بالسرور. فليس مما يبعث على السرور أن نرى رجلًا يتقدم بخطوات حثيثة نحو القبر، فصورة الموت تقترن بالبشاعة والقبح، وبالعكس عندما نتصور طفلًا في العاشرة أو قريبًا منها، صحيح البنية موفور الصحة حسن التكوين بحكم سنه؛ فإنه تتكون عندنا فكرة لطيفة عنه سواء بالنسبة لحاضره أو لمستقبله.. إذ نراه متوقدًا خاليًا من الهموم المضنية على قدر كبير من الحصافة يتفجر حيوية. وهكذا نراه طفلًا فنعجب به ونتخيله رجلًا فيتضاعف إعجابنا.. وكأنما دمه الذي يتدفق حيوية يبعث الحرارة في دمنا، فنحس باندماجنا فيه، وأننا نحيا بحياته، وأن حيويته تردنا إلى الشباب.

في تلك السن تحدث طفرة انتقال وتغير.. ويا له من تغير، فإذا بعينيه وقد خبا تألقهما، وإذا ببهجته وقد تلاشت وإذا به راغب عن سروره وألعابه اللاهية.. فإن رجلًا متجهمًا جامد الملامح يتناول يده ويقول:

– هيا بنا أيها السيد!

ويدخل به إلى حجرة فيها أكداس من الكتب، ويالها من زاد كئيب في تلك السن. فلا يسع المسكين إلا أن يلقي نظرة تحسر على ما حوله، وسكت على مضض إلى أن يفك أساره، ويخرج من الحجرة وقد اغرورقت عيناه بالدموع وانفطر قلبه بالتنهدات المكتومة.

إن الطفل الذي أربيه لن يسلك هذا الطريق ولن ينهج هذا المنهج، لأنه سينشأ بلا خوف ولا وجل، لا يضجره طلوع نهار ولا يمضه أو يزعجه سدول ليل. وستكون أوقاته مسرات، ولن يستشعر الرهبة لأستاذه، فهو شريكه في لهوه ومباهجه وألعابه.

سيفيض «أميل» في هذه السن صحةً وتوقدًا.. له بشرة رقيقة ناضرة، لاتخنث فيه، فعضلاته بدأت تتكون وتشتد، ونظراته لامعة لا تخبو بالأفكار والأكدار، ورأسه شامخ منتصب لأنه لا يعرف التدلي فوق صدره إذ لم يدفنه في الكتب.

والآن لنجعل «أميل» موضع الاختبار.. إسألوه ماشاء لكم أن تسألوا، ولا تخشوا أن يتلعثم أو يجعلكم تضيقون بشخصه.. لا تنتظروا منه عبارات منمقة أو صيغًا معادة محفوظة.. إنما ستأخذكم منه الحقائق المجردة

في بساطة بلا زخرف أو غرور. ولن يتردد في أن يعترف لكم بما فعل من شر أو جال بخاطره، تمامًا مثلما ينهي إليكم بما فعل من خير، دون تفكير أو حرج بالأثر الذي سيتركه في نفوسكم، فالصراحة رائدة.

وأفكاره واضحة وإن كانت محدودة، يعرف الكثير عن خبرة وتجربة ولكنه لا يعرف شيئًا عن ظهر قلب، والكتاب الذي يحسن القراءة فيه دون سواه هو كتاب الطبيعة، وعقله في دماغه لا في لسانه، وحافظته في المرتبة الثانية من ناحية النمو بعد واعيته وإدراكه، وهو يدري ما يقول بلغته القومية وإن خرج كلامه في غير تنميق أو تنسيق.. وأهم ما فيه أنه يحسن العمل أكثر من غيره.

ولا يعرف «أميل» الآلية الروتينية التي هي وليدة العادة، فلا يؤثر فيه اليوم ما صنعه بالأمس، ولا يؤثر فيه غدًا ما يصنعه اليوم. تستمد العادة تأثيرها من الكسل الفطري في الإنسان، فكلما استسلمنا لها زاد كسلنا لأن العمل العادي أسهل. إن تكرار العادة يشق الطريق ويمهده فيسهل علينا السير فيه، ولهذا كان سلطان العادة أقوى وأظهر على الشيوخ والمدللين، وأضعف وأندر على الشباب وذوي الهمة. ولذلك فإن تربية العادات تضر الأطفال لأنها توهن هممهم ونفوسهم تدريجًا.. ولا أشير إلا بعادة واحدة يجدر تربيتها للأطفال وهي عادة الانصياع للعمل، لأن كل ما عداها شر ووبال.

ولن يتبع «أميل» عادة معينة، ولن يخضع لسلطة أو قدوة، فلا يعمل أو يتكلم ما يروق له، وسيكون كلامه تعبيرًا صادقًا عن أفكاره وسلوكًا

نابعًا من ميوله ونزاعاته، وإن كانت معينه من المعلومات الأدبية والأخلاقية ضئيلًا ومحدودًا تبعًا لسنه وحالته الطفلية. فلا دراية لديه بالمفهومات الخلقية التي تتصل بحياة الرجال، فذلك منشئو الرجال.. وهو بعد لا يزال طفلًا لم يصبح عضوًا عاملًا في المجتمع.

اسألوه عن الحرية وعن الملكية وعن العرف، وأنا واثق أنه سيعرف كيف يوفي الإجابة حقها في حدود أن ماله له، وما ليس له ليس له، ويدرك لماذا يتحاشى إيذاء الغير، حتى لا يؤذيه أحد.. وإذا حدثتموه عن الواجب وعن الطاعة، فلن يدرك ماذا تعنون بذلك.. فإذا أمرتموه أن يفعل شيئًا فلن يفعله ولن يسمع، أما إذا قلتم له:

– إن أديت لي هذه الخدمة رددتها لك بمثلها في حينها.

فستجدونه يخف لأداء الخدمة على الفور؛ لأنه حريص على أن تكون له عليكم تلك الحقوق المقدسة، حقوق المعروف المتبادل.

وإذا احتاج هو إلى مساعدتكم فسيطلبها بلا تردد من أول من يلقاه أيًا كان الشخص– ملكًا أم خادمًا– فالكل في نظره سواسية. وإذا التمس شيئًا لا يلتمسه في مذلة ولا في إلزام، ولكنه يشعركم بأنه يطلب منكم منّة، ويشعر في الوقت نفسه أن الصلة الإنسانية قمينة أن تحمل الناس على إسدائها.

ولا تنتظروا منه شكرًا إن أجبتم ملتمسه، ولكنه في قرارة نفسه يشعر بمقدار ما طوقتموه به من معروف. ولن يتذمر أو يلح إن رفضتم له

ملتمسًا، بل سيقنع نفسه أن مطلبه فوق الطاقة، وليس من طبعه ولا من نشأته أن يتمرد على حكم الطبيعة وحكم الضرورة.

أنظروا ماذا يعمل إذا تركتموه وحده حرًا طليقًا دون أن تقولوا له شيئًا، وراقبوا طريقة عمله.. إنه مطبوع على الحرية، لذلك فهو لا ينزع إلى الأعمال الطائشة لتوكيد شعوره بالحرية.. وستلمسون فيه الخفة والبراعة ومرونة الحركات، ولكن كل حركة من حركاته وراءها هدف. وهو لا يحاول فعل أي أمر يتجاوز حدود قدرته؛ لأنه يعرف بالخبرة حدود تلك القدرة، ويعرف كيف يلائم بين أغراضه وقدرته، ولذلك فالتوفيق دائمًا في جانبه. ونظرته ثاقبة يتقن بها التمييز ويحكم التقدير، يعتمد على نفسه، فلا يسأل غيره عن أشياء يعرف كيف يصل إلى معرفتها بالملاحظة.. يميل إلى معرفة المعلومات عن طريق مجهوده الشخصي.

وإذا صادفه مأزق لا يسمح للذعر أن يتسلل إلى نفسه، ولا يرتبك، ولا يهاب المخاطر، لأن مخيلته لم تنشط بعد ولم تساعدها تربيته على الاشتعال، فنظرته واقعية، وهذا سر احتفاظه بثباته. والعمل واللهو لديه سواء؛ لأن ألعابه أشغال، لا فرق عنده بين الشغل والتسلية أو الهواية؛ لأنه لا يعمل إلا مايهوى.

وبعد كل هذا، ألستم معي في أن ذلك المنظر في تلك السن مما يبهج الفؤاد ويشرح الصدر ويسر الخاطر؟! فالطفل جميل متقد الذهن، طلق المحيا مطمئن النفس، يقدم على الأعمال وكأنه يلهو، ويقدم على اللهو بمجموع نفسه وذهنه.

وإذا أردتم أن تعرفوا الفارق بينه وبين سواه ممن هم في مثل سنه، فأطلقوه بينهم ودعوه يتصرف، وستحكمون على الفور أيّهم أقوم تكوينًا وأقرب إلى الكمال. إنني واثق أنكم لن تجدوا بين أبناء الحضر من يفوقه براعة، فهو أقواهم بنية. وهو يضارع أبناء الريف قوة، ويبزهم مهارة، ويفوقهم أصالة.. فهو صائب الحكم صادق التمييز في كل ما يتصل بأمور الطفولة وشئونها.

أما من ناحية الرياضة، فلا يشق له غبار في الجري والقفز ورفع الأثقال وتقدير المسافات والقدرة على ابتكار الألعاب، والفوز دائمًا في المسابقات. ولا يأخذكم العجب إذا قلت أنه مفطور على الزعامة والصدارة والقيادة، لا لحسبه أو نسبه أو سلطانه، بل لإيمانه بأن مهارته وتجربته وخبرته تؤهله لذلك.. فله في كل مجموعة مكان الصدارة والمركز المرموق. سيشعر الجميع بمدى تفوقه عليهم، ولذلك سيكون السيد من غير رغبة في ذلك، يطيعه الجميع ويقدره الجميع دون أن يشعروا.

لقد وصل « اميل » إلى نضوج الطفولة، دون أن ينزل في سبيل ذلك عن مباهجها وسعادتها.. بل سارت المسرات والنضوج جنبًا إلى جنب؛ فاكتسب كل حكمة سنه وهو سعيد حر إلى أقصى مدى.. فإن قُدّر له أن يموت الآن، فلن نبكي موته وحياته معها، ولن نحزن أو نتحسر لما حرمناه من ملذات الطفولة وسببناه له من آلام.. بل سنجد العزاء في أنه استمتع بطفولته في كل لحظة منها، ولم نحرمه من أي نعمة أفاءت بها عليه الطبيعة.

إن أدهى ما في هذه التربية الاستقلالية الأولى أن عقلاء الناس وحدهم هم الذين يعرفون قدرها.. أما من عداهم من الدهماء، فلا يرون في مثل ذلك الطفل إلا شريدًا قديم التربية. والمعلمون يفضلون كسب السمعة على حساب تكوين الطفل، وكأنه سلعة كل همهم منها الربح المادي!

التعليم بالتجربة

والآن علينا أن نحول إحساساتنا إلى أفكار، ولكن من غير أن نقفز طفرة واحدة من الاشياء الملموسة المحسوسة إلى الأشياء الذهنية أو المعقولة، وعلى هذا الأساس يجب أن تكون الحواس مرشد الفكر ودليله في عملياته الأولى. والكتاب الذي يتناوله الفتى هو كتاب الدنيا من حوله، فما يلقن له من تعليم أو إرشاد يكون مصدره الحوادث والوقائع. والطفل الذي يقرأ لا يفكر؛ لأنه يقرأ فحسب، فلا يتعلم حقًا بل يحفظ ألفاظًا ليس إلا.

وجه انتباه تلميذك إلى مظاهر الطبيعة، فسرعان ما يملؤه الفضول.. ولكن حذار أن تتعجل إشباع فضوله الذي أيقظته عنده، بل ضع المسائل في متناول يده ثم دعه يتولى حل كل مسألة بنفسه. فمن الواجب ألا يعرف عن طريق القول أو التلقين بل أن يفهم بنفسه، يفكر ويكتشف لا أن يحفظ ويتلقن؛ فإن لقنته فلن يفكر ولن يعقل بل يكون أداة لتسجيل آراء الناس. ولو فرضنا أنك تريد أن تعلمه الجغرافيا، وأنك تأتيه بمجموعة من الكرات الأرضية والخرائط.. عجبي لتلك الأدوات التي لا لزوم لها. أليس أجدى عليه أن تبدأ بإطلاعه على اللباب حتى يعرف ما الذي تكلمه عنه؟

إنني أفضل أن تخرج معه على سبيل النزهة في ليلة صافية حيث أفق السماء يكشف للرائي غروب الشمس في وضوح، فستلاحظان معالم المكان الذي اختفى فيه قرص الشمس.. ثم تذهبان إلى ذلك المكان نفسه في ساعة مبكرة في اليوم التالي للاستمتاع بنسيم الفجر. وستريان بزوغ

الشمس في تلك الأشعة الذهبية التي تندلع في الأفق.. وشيئًا فشيئًا يستوي قرص الشمس، فتتهتك أستار الظلام؛ فإذا الأرض قد اكتست نورًا وحرارة، وإذا الزرع قد زهت خضرته والطيور هجرت أوكارها وأطلقت حناجرها تحية لمطلع النهار. ويستغرق هذا المنظر بعض الوقت، ويفتتن به أيّ إنسان مهما تكررت رؤيته له.

وقد تأخذ الحماسة المعلم، فيغدق على تلميذه الشروح والتعبيرات والتعليقات.. إن هذا في الواقع حماقة، لأننا لا يمكن أن نحس جمال الطبيعة بالألفاظ مهما كانت بلاغتها، بل بالمشاهدة المباشرة.. وإدراك العلاقات بين الأشياء الجميلة لا يأتي بالشرح، بل بالتجربة المتفاوتة لأجواء مختلفة ومناظر متباينة، فلا مجال هنا للوصف والبيان، بل المعول على الإحساسات. وبعد ذلك أترك له فسحة من الوقت يتأمل فيها الجمال في موكب الشروق، تشير بعدها إلى الأشياء التي تجاور مطلع الشمس، وتدور به بشكل طبيعي لمشاهدة معالم المكان، ثم تقف صامتًا متأملًا أمام كل اتجاه كأنك مستغرق في تفكير عميق، وأخيرًا تقول له:

– يخيل إليّ أن الشمس مساء أمس غربت هناك في ذلك الموضع.. وها هي قد أشرقت علينا من هناك هذا الصباح.. فكيف أمكن أن يحدث هذا؟ كيف تشرق الشمس من غير الموضع الذي غربت منه؟!

ولا تزد على ذلك حرفًا.. ومهما انهال عليك بالأسئلة فلا تجبه عنها، بل تكلم في موضوعٍ آخر واتركه لنفسه، فهو بلا شك سيفكر ويطيل التفكير فيما أنهيت به إليه.

ولكي يتعود الطفل اليقظة والانتباه ويجابه حقيقة من الحقائق الحسية، ستسبب له هذه الظاهرة عجبًا يدوم بضعة أيام قبل أن يتكشف له الأمر؛ فإذا أبطأ في تفهمها تعاد إثارة المسالة. وسيعرف بالمشاهدة المباشرة كيف تنتقل الشمس من مشرقها إلى مغربها؛ لأنه لن يكون بحاجة من أجل هذا الإدراك إلا إلى عينيه دون سواهما. وعندئذٍ عليك بأن تقوم بتوضيح حركة الشمس الخفية عن الأنظار من المغرب إلى المشرق ومن المشرق إلى المغرب. وما لم يكن تلميذك غاية في الغباء، فسيدرك المسألة، فيتم بهذا أول درس في الجغرافيا الفلكية.

وليكن انتقالنا بطيئًا من فكرة محسوسة إلى أخرى محسوسة بحيث نألفها ونربط بينها وبين سابقتها قبل أن ننتقل إلى فكرة ثالثة. ويجب ألا نجبر التلميذ على الانتباه بالإرغام، فيكفي أن نوجه نظره بعد اكتشافه لحركة الشمس الدائرية ولشكل الأرض الكروي كي يكتشف أن جميع الحركات الظاهرية للأجرام السماوية قائمة على المبدأ نفسه.

ولما كانت الشمس تدور حول الأرض على شكل دائرة، فكل دائرة يجب أن يكون لها مركز.. ونحن لا نرى هذا المركز لأنه في جوف الأرض، ولكن يمكننا تصوره وتصور عامود يخترقه، هو محور الأرض.

ويمكن أن نتسلى مع التلميذ في السهرات الليلية باكتشاف الدب القطبي، ونفسر له بأنه سمي بالقطب لأن محور الأرض متجه إليه دائمًا. ومن مثل هذه الأحاديث ينشأ لدى التلميذ الإدراك بالفلك ويتربى لديه الذوق الفلكي والميل إلى تتبع الكواكب وملاحظة النجوم في مساراتها.

وفي موسم عيد الميلاد، نعاود النزهة في الموضع الذي راقبنا فيه شروق الشمس صيفًا، فنجد أنه انحرف عن ذلك الموضع. وعندئذٍ نثير مسألة تغير الشروق في الشتاء.. فيجرنا ذلك إلى قواعد جغرافية أخرى، لا على نماذج بل على الطبيعة. بيد أنه ينبغي الالتجاء إلى الرمز عند تعذر الدراسة على الطبيعة، فلا يخفي ما في الرمز من استغراق لانتباه الطفل.

وأما عن دراسة العلوم، فيمكن القول أننا لا ننجح في وضع أنفسنا موضع الطفل، ولهذا نتصور أفكاره مثل أفكارنا فنحاول أن نعلمه العلوم عن طريق منهجنا في الاستدلال.. فنصب في رءوس التلاميذ سلسلات من الحقائق لا تعدو أن تكون أكوامًا من التهاويل والأخطاء.

وهناك اختلاف حول اختيار منهج التحليل أو منهج التركيب لدراسة العلوم، بيد أنه لا لزوم للمفاضلة أو الاختيار بينهما، فأحيانًا يمكننا أن نحلل ونركب في البحث الواحد، ونقود الطفل بينما يظن هو أنه منصرف للتحليل. فالطريقتان متكاملتان، وإذا استخدمناهما معًا فسيدهش الطفل عندما يجد أنهما تتلاقيان، وذلك حين نجمع بين اكتشاف الحقائق عن طريق التحليل وبين عمل التجارب التطبيقية التي تؤدي إلى نوع من التركيب.

ويمكننا أن نستخدم ذلك في الجغرافيا بأن نحاول قياس أجزاء من الأرض، ونبدأ بالمنطقة التي نسكنها فيجمع التلميذ بين ملاحظة السماء وملاحظة الأرض، ويحدد موقع البيت من المدينة، ثم يحدد الأماكن والمواضع التي بينها، ثم الأنهار القريبة، وأخيرًا اتجاه الشمس.. وبذلك يربط بين التفاصيل.

ويحسن أن يقوم التلميذ بنفسه بعمل خريطة لذلك، ويلاحظ تقدير المسافات، ومن ذلك نتبين مدى جدوى تربيتنا لحاسة النظر. والأمر يحتاج إلى قليل من الإرشاد دون أن نشعر التلميذ بذلك، فإنْ أخطأ ندعه يكتشف خطأه ويصححه بنفسه أو نجعله يفطن إليه بملاحظة بسيطة، فإن من لا يخطئ لن يتعلم.

وليس المقصود تعريفة المعالم بالضبط، بل إن هذا وسيلة لتعلمه مبادئ الجغرافيا بوجه عام بدراسة الإقليم الذي يعيش فيه، فلا نريد أن يحشو دماغه بالخرائط، بل المهم أن يتصور ما تمثله فتتكون عنده الفكرة.

وليس هدفي من التعليم تكديس المعلومات، بل أريد ألا يتسرب إلى ذهن التلميذ سوى الأفكار الدقيقة الواضحة.. فإنه أفضل عندي ألا يعرف شيئًا من أن يعرف شيئًا خاطئًا. وإنني أحرص على تعريفه بالحقائق لأحميه من الأخطاء التي كان حريًا أن يتعلمها بدلًا منها.

والعقل والتمييز يتحققان على مهل.. أما المزاعم فتنهال أفواجًا، وهي التي ينبغي أن نحميه منها، أما إذا نظرتم إلى العلم من حيث هو؛ فإنه بحر لاقرار له وليس إلى الخروج منه سبيل.

لقد كان وقت الطفولة طويلًا، فكنا ننصرف إلى تضييعه خشية أن نسيء استخدامه. أما الآن فالأمر على العكس فوقتنا لا يكفي لإنتاج ما هو نافع إذ اقترب أوان العواطف، التي حين تشتد حدتها عند التلميذ فلن يهتم بسواها.

وعمر الذكاء الهادئ الوادع قصير وسرعان ما ينقضي، وأمامنا الكثير الذي ينبغي أن نستغل هذا العمر فيه، ومن الغباء أن نظن أنه كاف لخلق عالم من العلماء. وليس الغرض من هذه الفترة هو تعليم العلوم بل إن الغرض هو تربية الذوق في التلميذ ليحبها، فيقبل عليها بنفسه عندما يكتمل ذوقه.. وأعتقد أن هذا هو المبدأ الأساسي للتربية القويمة.

وهو أيضًا أوان تعويده شيئًا فشيئًا على الانتباه المتصل بموضوع معين، ليس بالإرغام، بل بالسرور والرغبة التي نتج عنها هذا الانتباه، فحذار من الموضوعات المعقدة التي تدفعه إلى الملل.

وإذا وجه إليك التلميذ سؤالًا، فليكن جوابك بحيث يذكي فضوله لا أن يشبعه. وبخاصة إذا أصدر سؤالًا في شيء من الاهتمام بموضوع سؤاله، فحينئذٍ لا تجعل اهتمامك إلى لفظ السؤال بل إلى الباعث على إلقائه؛ لأن الفتى حين يبلغ سن التعقل فإن اهتمامه بما يسأل اهتمام عقلي صحيح.

وهناك سلسلة من الحقائق تربط بين جميع العلوم بمبادئ مشتركة، وهذه السلسلة في مناهج الفلاسفة.. وهذه لا تعنينا ولكن التي تعنينا هي ترابط المواضيع الجزئية بغيرها، وهو ما يثير الفضول وينقل الاهتمام من حقيقة إلى أخرى، وهذا ما ينبغي أن نعلمه للأطفال.

وللتمثيل على ذلك، أذكر أن تلميذي لاحظ أن الكهرمان يجذب القش متى دلّك، وأن أجسامًا أخرى لا تجذبه. واكتشف أيضًا أن جسمًا معينًا يجذب على مسافة –ومن غير دلك– برادة الحديد والدبابيس، وأخيرًا يكتشف أن هذه الخاصة تنتقل إلى الدبابيس فتصبح ممغنطة، وإنما

تجذب سواها على نحو خاص.. وهكذا بالتدريج تتكشفله قوانين الفيزياء المغناطيسية بتفاصيلها وقوانينها.

وسيكتشف «أميل» بتجارب مماثلة قوانين الاستاتيكية على أن يعد أجهزته بنفسه ويخترعها بنفسه.. وبهذا شارك جسمه في النشاط الذي يقوم به ذهنه.

ولكي نعين الذاكرة يجب أن يكون الانتقال من تجربة إلى أخرى تبعًا لنظام منطقي.

منافع الأشياء

من القواعد الأساسية أن نعود الطفل على الشعور بفائدة ما يتعلمه، فبهذا يتعود ألا ينقاد إنقيادًا أعمى في أعماله وأفكاره.. وكذلك ينبغي أن ننمي فيه روح المُبادأة.

وإذا سألني تلميذي عن جدوى تعلم مجرى الشمس وطريقة الاتجاه وأنا أدرسها له فقد يتبادر للذهن أنها فرصة فذة كي أعرفه أشياءً ثمينة؛ فأشرح له منافع الرحلات وفوائد التجارة والحاصلات الخاصة بكل إقليم والعادات الخاصة بكل شعب، وأحدثه عن استخدام التقويم وفائدة تعاقب الفصول وأهميتها بالنسبة للزراعة وعلاقة كل ذلك بالتاريخ الطبيعي والسياسة والفلك والأخلاق نفسها.. فلو فعلت ذلك لبهرت السامعين بخطبتي الرنانة، ولكن تلميذي لن يفهم شيئًا مما قلت ويغلب أن يغادر الحجرة إذا شرعت في هذه الخطبة؛ إذ لا يعنيه ما أقوله: وعلى ذلك ينبغي أن أتخذ النهج العملي لتفهيمه فائدة اتجاه الشمس ومسارها.

آخذه بمجرد أن يسألني عن جدوى تلك الدراسة، إلى غابة في شمال القرية، وأقول له:

– أنت محق.. هذا سؤال يحتاج التفكير فيه إلى فراغ، فلنترك الدراسة إلى أن نهتدي إلى منفعتها؛ فإن ثبتت لها منفعة عدنا إليها على بينة، وإلا وفرنا تعبنا، فهيا نتنزه بقية يومنا في الغابة.

ثم أخذه في صبيحة اليوم التالي للنزهة قبل الإفطار وهذا يستهويه؛ لأنه سيجد فرصة للجري واللعب في الخلاء، ونوغل في الغابة ونضل الطريق.. فلا نعرف أين نحن ولا كيف نعود، ويمر الوقت ويهجم الحر ونشعر بالجوع، فنتعجل العودة ونتخبط يمينًا ويسارًا فلا نرى إلا أشجارًا ولا نجد ما يهدينا إلى الخروج من هذا المأزق. وأخيرًا ينال منا التعب فنجلس على العشب ونفكر، ولن يبكي «أميل» لأنه تربى على الشجاعة. وبعد لحظات من الصمت أسأله عن كيفية الخروج من ورطتنا، فيقول أنه لا يدري وأنه قد نال منه التعب والجوع والعطش وأنه لم يعد يتحمل أكثر من ذلك، فأخبره أنني أيضًا في مثل حاله، ثم أسأله عن الوقت فيخبرني أن الوقت ظهر، وأنه لم يفطر.. فأوافق على كلامه بأنه لا بدّ جوعان وإنني مثله، ولا يمكن للطعام أن يأتينا بل يتحتم أن نذهب نحن إليه.

وأتدرج في الحديث عن رؤيتنا للغابة ظُهر أمس ونحن بالقرية، فيبدي ملاحظة هي أننا كنا بالقرية ولكننا الآن بالغابة. وأخيرًا أذكره بأن الغابة إلى.. فيتمم حديثي ويبادر بالقول «شمال القرية»، ومن ثم أعرفه بأن القرية تكون إلى جنوب الغابة. ويستعلم عن كيفية الاستدلال عن الشمال والجنوب؛ فأوضح له إمكان ذلك بواسطة الظل، وأن الجنوب عكس الشمال، وأشير له إلى الجهة التي ينبغي أن نتبعها. وسرنا ولم يلبث أن أطلق صيحات السرور إذ كان قد رأى معالم القرية، وطلب أن نسرع كي نتناول الغداء.. وعلق في النهاية بالإشادة بفائدة الجغرافيا الفلكية.

وأنا واثق أنه لم يذكر عبارته الأخيرة بلسانه فقط بل أنه تعقلها في ذهنه. والمهم أنه لن ينسى ما عاش ذلك الدرس الذي تلقنه على الطبيعة، ولو أنني أوضحت له ذلك باللفظ في حجرة الدرس، لنسيه قبل أن ينصرم النهار.. فالواجب أن نلقن التلميذ عمليًا ما وسعنا ذلك.

وبمجرد أن يبدأ الطفل في التفكير والتعقل يجب أن نُحول بينه وبين مقارنة نفسه بسواه من الأطفال؛ لأنه لن يجني من ذلك إلا إحدى سيئتين: إما الحسد وإما الغرور.. فليكن هو معيار نفسه، فذلك وحده أنفع وأجدى.

إن الكتب ضارة لأنها تعلمه أن يخوض بالكلام فيما لا يعرف.. ولن أترك بيد «أميل» إلا كتاب «روبنسون كروزو» لأنه صورة رجل عمل بمفرده على حفظ حياته.. فهو جدير أن يرتفع ب«أميل» فوق مستوى المزاعم المنقولة عن الغير، ويعلمه الحكم الصائب عن العلاقات التي بين الأشياء.

الصناعات والحرف

يعيش «أميل» في المجتمع، إذن ينبغي أن يدرس العلاقات الاجتماعية، ولكن من غير أن نطلعه على الجانب المعنوي الأخلاقي من تلك العلاقات، بل نوجه انتباهه أولًا نحو الصناعة والفنون الميكانيكية التي تربط الناس بعضهم ببعض وتجعل البعض نافعًا للبعض الآخر.

سيتعلم «أميل» كيف يقدر الفنون المختلفة على أساس منفعتها الحقيقية، على خلاف العقيدة الشائعة.. على أن يكون اهتمامنا بالفنون التي يتم استخدامها ولاغنى عنها للبشرية، وأعني بذلك الزراعة والحدادة والنجارة... إلخ. ولن يعرف «أميل» عن الاقتصاد السياسي إلا ما يتصل بالملكية وباستخدام النقود التي هي الرباط الحقيقي في المجتمع بين الناس، فهي التي تتيح تبادل العمل الذي هو أساس المجتمع.

ولكل فرد احتياجات، وعليه أن يسعى للحصول عليها.. وهي متنوعة كثيرة، والناس مختلفون في درجة الذكاء وفي المواهب، فهذا يتقن الزراعة وذاك يتفوق في الحدادة أو النجارة وهكذا. ومن هنا جاء ترابط الناس عن طريق تبادل المنفعة، ولو فرضنا أن الناس قاموا على عمل واحد لانعدم الترابط ولما استقام المجتمع؛ لأن كل فرد لن يستفيد من الآخر ولن يحصل على كل احتياجاته. أما إذا تخصص كل فرد في عمل ونبغ فيه، فإنهم يوفرون للمجتمع كافة الاحتياجات.. وبهذا يزدهر المجتمع، وبالتخصص والإتقان ينتج كل فرد مزيدًا من السلعة يربو على حاجة المجتمع.

وهذا هو المبدأ الظاهري لجميع المجتمعات.. وعلى أساسه فالرجل الذي يريد أن يكون منعزلًا ويكفي حاجاته بنفسه، لن يكون إلا شقيًا، بل سيكون من المستحيل عليه أن يسير على هذا النهج في الحياة. فلا بدّ إذن من الخروج عن حال الطبيعة البدائية والخروج من حال العزلة، فما من أحد يستطيع أن يبقى في عزلة، مالم يكن زاهدًا في الحياة، والقانون الأول للطبيعة هو المحافظة على بقاء الذات.

هكذا تتكون شيئًا فشيئًا في ذهن الطفل معاني العلاقات الاجتماعية، حتى قبل أن يصبح عضوًا عاملًا في المجتمع، ف«أميل» لكي يحصل على احتياجاته يجب أن يكون لديه ما يحتاجه الآخرون، لهذا يشعر في يسر بالإحساس بالحاجة إلى ذلك التبادل، بل وبجدوى ذلك التبادل.

* * *

الموت أشد شيء تنفرنا منه الطبيعة.. ولهذا فكل شيء مباح عند الضرورة لاستمرار الحياة ودفع غائلة الموت. أما بعض المبادئ التي يتعلم منها الرجل الفاضل ازدراء حياته وإهدارها في سبيل واجبه، فما أبعدها عن القاعدة الطبيعية التي تقرر حفظ النفس!

وإني لأقرر أنه إن وجدت دولة لا يستطيع كل واحد من أفرادها أن يعيش من غير أن يلحق الأذى ويقترف الإثم، وحيث المواطنون لصوص بالضرورة، فليس الآثم هو الذي ينبغي أن يُشنق بل ذلك الذي أجبر الآثم على أن يغدو آثمًا كي يعيش! وفي اللحظة التي يعرف فيها «أميل» ما هي الحياة، سيكون واجبي الأول أن أعلمه كيف يحافظ عليها.

وأنا لا أميز الطبقات والمقامات والثروات، وليس في نيتي أن أفرق بينها؛ لأن الإنسان هو الإنسان في جميع الأحوال.. فليست معدة الغني أكبر من معدة الفقير، ولا هو أجود منه هضمًا. وكل كبير إن هو إلا من عامة الشعب.. فالاحتياجات الطبيعية واحدة لدى الجميع ويجب أن تكون وسائل كفايتها متساوية لدى الجميع. ولهذا يجب أن تكون تربية الإنسان من حيث هو، لا من حيث ما ليس هو.. فمن ينشأ ليعيش في طبقة معينة؛ فإذا راق للأقدار أن تغير من حاله بات شقيًا، وحينئذٍ تكون تربيتكم له مجهودًا للإمعان في شقائه.

هل يوجد ما هو أسخف من سيد عظيم الشأن صار صعلوكًا محملًا مع فاقته بمزاعم حسبه ونسبه؟ وأي شيء أحط من ثري أمس مدقعًا، وكلما تذكر ما تعلمه من احتقار الفقر زاد شعوره بحقارة مصيره؟

إنكم تركنون إلى النظام الاجتماعي الحالي دون تفكير في أنه عرضة لثورات لا مناص منها. ومن المستحيل أن تتنبأوا سلفًا بما يمكن أن يحدث لأطفالكم غداً. وليست ضربات القدر من القلة بحيث تظنون أنفسكم بمنجاة منها.. إننا نقترب من قمة الأزمة ومن عصر الثورات، فمن ذا يضمن ماذا سيكون عندئذٍ؟

إني أقرر أنه من المستحيل أن تبقى الملكيات طويلًا.. لقد ازدهرت معظمها ببريق خلاب، ولكن كل دولة تبلغ أوج البريق والازدهار تبدأ في الانحدار! ما أقامه البشر في وسعهم أن ينقضوه.. وما من شيء مستعصٍ على الإلغاء إلا ما صنعته الطبيعة، وهي فيما أعلم لا تصنع الملوك والأمراء والسادة وكبار الملاك والأغنياء!

فماذا يستطيع في أيام محنته أن يصنع ذلك الفتى الذي لم تربوه إلا للبذخ والسلطان؟ ماذا يستطيع في أيام فاقته مَنْ يأكل طعامه بملاعق من الذهب؟ ماذا يستطيع في أيام عوزه من عاش على الترف، ومن لا يعرف كيف يخدم نفسه وكان يقوم على خدمته مئات الخدم؟ إنه لسعيد من استطاع أن يفارق الطبقة التي تفارقه، ثم يبقى بعدها قائمًا رغم أنف القدر!

عجبًا لأولئك الذين يمتدحون ذلك الملك المهزوم الذي شاء له غروره أن يدفن قتيلًا تحت أنقاض عرشه. أما أنا فأحتقره؛ فإني أراه غير موجود إلا بالإضافة إلى عرشه، فيما لم يكن ملكًا فهو ليس شيئًا. أما من فقد عرشه واستطاع أن يعيش من دونه، فهو أسمى من عرشه؛ لأنه ارتفع بنفسه فوق طبقة الملوك!

كل مواطن أيًّا كان لا يملك مايسهم به في المجتمع إلا نفسه.. وكل ممتلكاته الأخرى لا يعطيها للمجتمع إلامرغمًا.

وثراء الوارث ثمرة عمل أبيه ووسيلة بطالته هو، ومن يأكل خبز البطالة الذي لم يكسبه بعمله يسرق ذلك الخبز.. والثري الذي يتقاضى من المجتمع ما يعفيه من كل عمل، لا يختلف عن قاطع الطريق الذي يعيش على حساب السابلة!

إن الرجل المنعزل عن المجتمع ليس مدينًا بشيء لأحد، ومن حقه أن يعيش كما يشاء. أما داخل المجتمع حيث يعيش بالضرورة على حساب الآخرين، فهو مدين لهم بالعمل ثمنًا لمعاشه به ومنهم، وليس لهذه القاعدة استثناء.

العمل إذن واجب لا مناص منه للشخص الاجتماعي.. وكل مواطن من أهل البطالة، غنيًا كان أم فقيرًا، فهو لص والعمل اليدوي أقرب إلى حالة الطبيعة، وطبقة الصنّاع خير الطبقات من حيث الاستقلال عن عوادي الزمن؛ فالصانع مرتبط بعمله فقط وهو حر.. أما الزارع فعبد لأنه مقيد بحقله، ومحصول الحقل تحت رحمة غيره يتعرض لشتى الاعتداءات على خلاف الصانع.

ورغم ذلك فإن الزراعة هي المهنة الأولى للإنسان، وهى أشرف المهن وأجْداها، فهي لذلك أسمى ما يمارسه البشر. ولن أقبل الزراعة ل «أميل» لأنه يعرفها فقد بدأ بما تعلمه.. وله أن يزرع ما يشاء من ميراث أبويه.. ولكن إذا لم يكن له ميراث فماذا عساه يصنع.. إذن فالمهنة اليدوية تغني عن الحاجة.

ويعترض أبواه، ووالدته على الخصوص، ولكني أريد له أن يكون أكثر من دمية تؤدي دور اللورد أو الماركيز، ثم تتغير الأيام فإذا به أقل من لا شيء. إني أريد له أن يكون أهلًا لمكانة لا تعلوها مكانة، لا يسلبه إيّاها أحد، أريد له مكانة الرجولة.

وليس الغرض من تعلم المهنة التكسب بها حتمًا، بل الغرض بالأكثر القضاء على المزاعم الخاطئة التي تفشت بين الناس بصدد العمل اليدوي.

أريد ل «أميل» مهنة شريفة نافعة لا مهنة ترف، لا أريده مطرزًا أو مذهبًا أو موسيقيًا أو مؤلفًا، بل أفضل أن يكون اسكافيًا على أن يكون شاعرًا!

وربما قيل أن الجلاد صانع، ولكنها مهنة مرتبطة بالحكومة، وأنا أريد له أن يكون حرًا مستقلًا، وأن يكون عمله من الأعمال غير المكروهة أو المنفرة أو المزدراة، ولهذا أفضل ل«أميل» مهنة كالنجارة أو الحدادة.

بيد أن له هو أن يختار، فلست أدعي لنفسي هذا الحق، ولا شك عندي في أنه سيهتدي بما قرأه في كتاب ربنسون كروزو إلى اختيار مهنة مما أحب أن يتعلمها.. وسيُسهل عليه الاختيار، لأن تربيته ساعدته على تمرين عضلاته وحواسه.. ولذا سيدرك تفاصيل المهنة في وقت قصير. وأتمنى أن يختار مهنة النّجار فهي مهنة نظيفة نافعة، يستطيع أن يمارسها في البيت، ومنشطة للجسم وتحتاج لمهارة ودقة وذوق.

وسأتعلم المهنة معه، فلا أحسبه يحب أن يعمل وحده وأن نعتبر نفسينا على أننا صبيان لنجار. وهل في ذلك عجب! ألم يكن القيصر بطرس يعمل بيديه في منشر الخشب بالأجر كأي عامل، ويقرع الطبل في فرق جيشه كأي جندي؟!

بيد أننا للأسف لا نستطيع أن نقضي وقتنا كله في ورشة النّجار.. ولهذا فإنني أفضل أن نذهب مرة أو مرتين في الأسبوع على الأقل حيث نقضي النهار بطوله عند صانع آخر، نستيقظ مبكرين في ساعة العمل، ونعمل تحت إشرافه، ونأكل على مائدته.. ثم نعود في آخر النهار.

وبهذا النظام يمكننا أن نتعلم أكثر من مهنة واحدة، لأننا في الأيام التي لا نذهب فيها إلى النجار، سنذهب إلى الحداد أو الإسكاف، حيث تتدرب أيدينا على مهن أخرى.

من المحسوس إلى المعقول

والآن أوشك فتانا أن يفارق الطفولة تمامًا.. وقد ازداد شعوره عن ذي قبل بالضرورة التي تربطه بالأشياء، فبعد تدريب جسمه وحواسه، قمنا برياضة فكره وتمييزه، وأخيرًا ربطنا بين وظائف أعضائه وعمل ملكاته فجعلنا منه كائنًا عاملًا مفكرًا، ولم يبقَ حتى يتم تكوين الرجل إلا أن نجعله محبًا معقولًا وذلك بتكوين عقله وعواطفه. وحري بنا أن نلقي نظرة على المرحلة التي اختتمناها قبل أن نبدأ المرحلة الجديدة، لندرك مدى ما وصلنا إليه.

كان كل رصيد تلميذنا في البداية هو الإحساسات، فصار لديه الآن معانٍ وأفكار. كان يحس فحسب، فأصبح يميز ويحكم. فمن المقارنة بين الإحساسات المتعاقبة، ومما نحكم به عليها، تتولد إحساسات معقدة يمكن تسميتها فكرة أو معنى.

والذهن البشري يختص بتكوين المعاني، والذهن الذي يكونها على أساس علاقات واقعية ذهن صلد، والذي تكفيه علاقات ظاهرية ذهن سطحي. والذي يرى العلاقات كما هي ذهن دقيق، والذي يسيئ تقديرها ذهن مختل، والذي يختلق علاقات لا وجود لها في الحقيقة ولا في الظاهر ذهن مخبول، والذهن العاطل عن المقارنة بين الأشياء ذهن معتوه. والمعاني البسيطة إن هي إلا إحساسات قورن بينها. وتوجد أحكام في الإحساسات البسيطة وفي الإحساسات المعقدة تُسمى معانٍ بسيطة.

والحكم السلبي هو الحكم الذي يتضمنه الإحساس البسيط، فهو لا يعدو إثبات أن الشخص يحس مايحسه. ولكن الحكم المتضمن في التصور أو المعنى فهو حكم إيجابي؛ لأنه يقرب ويقارن ويحدد العلاقات التي تعجز الحواس عن تحديدها. وهذا هو الفرق بين الإحساس والمعنى، وهو فرق كبير.. فإن المقارنة بين الحواس تصحح أخطاء بعضها في بعض الأحيان، ذلك لأن الخطأ لا يكون في الإحساس بل في الحكم المتضمن فيه، والمقارنة تصحيح ذلك الحكم.. كالعصا التي تتراءى لك مكسورة حين تنغمس في الماء.

وعلى هذا الأساس سأدرب «أميل» على أحكام حواسه بالمقارنة بينها.. فبهذه الطريقة يتعلم الحكم العقلي والتمييز الذهني معًا، فتتكون لديه المعاني. وسأتبع تجارب مبسطة لذلك التدريب، بحيث يكون في مقدوره أن يفطن من تلقاء نفسه إلى خطة الحكم الظاهري فيستخدم التمييز العقلي.

وكالعصا التي تبدو مكسورة في الماء، يتراءى لراكب القطار المسرع أن الأرض هي التي تجري وإنه ثابت، ولراكب السفينة المتحركة أن الأرض هي التي تتحرك وهو ثابت، وما يبدو للساري في الليل من أن القمر يجري بسرعة حين يمر بيننا وبينه سحاب سريع.

وعلى هذا النمط أعلم «أميل» التفكير العلمي، فتتكون لديه ملكة الحكم التي تؤدي به إلى تحصيل المعارف العلمية بنفسه.

في بداية المراهقة

سأجعل مهمتي أن أمهد لأضع قدمه على طريق المعرفة السوي؛ أي أنني أعلمه بنفسي. ومتى أدرك أن عليه تحصيل ما يريد من العلم، فسيستخدم عقله لا عقل سواه في ذلك السبيل.. وسأوضح له أن الاعتماد على السماع أو على تلقين المعلمين خطأ جسيم، وأن معظم الأخطاء تنجم عن ذلك. وسيستفيد عقله من ذلك التمرين فائدة عظمى، كما تفيد العضلات من الرياضية. وباتباع هذه الطريقة لا يشحن ذهنه بالمعلومات إلا ما يقدر على استيعابها؛ لأنه لن يتعلم إلا ما يكتشفه ويكتسبه بتجربته، فلا تعي ذاكرته إلا ما هو موقن سلفًا أنه صواب.. وبذلك يستطيع الاعتماد على ما في ذاكرته.

وقد تكون معلوماته العلمية على هذا الأساس محدودة، ولكنها ستكون حكيمة وصائبة. وقد يجهل الكثير، ولكنه لن يعجز عن معرفة ما يجهله بتكوينه العقلي.. فذهنه متفتح متوقد ذكي على أتم استعداد لمعرفة كل شيء؛ إذ ينطبق عليه ما قيل: «إن لم يكن متعلمًا فهو قابل للتعليم». ويكفيني أنه يعرف كيف يستشف المراد من كل ما يفعله، ويدرك السبب في كل ما يعتقده.

لهذا أكرر القول أن هدفي ليس أن أمنحه العلم، بل أن أعلمه كيف يستوعبه عند الحاجة، وكيف يقدره، وأن يحب الحقيقة ويجعلها فوق كافة الأمور. أنا لا أنكر أن التقدم بهذا المنهج بطيء، ولكنه مضمون النتيجة.

وكل معلومات «أميل» طبيعية وجسمية، فهو لا يعرف ما بعد الطبيعية أو الأخلاق، ولا يعرف شيئًا عن الصلات الاجتماعية بين إنسان وإنسان، ولكنه يعرف الصلات الأساسية بين الإنسان والأشياء، ويعرف كيف يعمم المعاني ويجردها ويرى الخواص المشتركة بين بعض الأجسام ولكنه لا يفكر في تلك الخواص مجردة عنها.

وهو يعرف الامتداد عن طريق الهندسة، والكمية عن طريق الجبر، ولكنه لا يحاول معرفة الأشياء في ذاتها بل من حيث علاقاتها التي تعنيه، فهو ينظر وراء المنفعة ولا يُقيم وزنًا لرأي الناس. وهو مجد في عمله مرن صبور حازم شجاع، ومخيلته لم تشتعل ولذا فإنها لاتجسم له المخاطر، وقابليته للمرض ضئيلة ولكنه يعرف كيف يتألم في جلد لأنه تعلم ألا يعاند القدر.

وهو لا يعرف شيئًا عن الموت ولكنه تعود عدم مقاومة قانون الطبيعة؛ فإن حانت منيته فسيموت من غير تأوه. ولكي يتعلم الإنسان كيف يموت فإن عليه أن يعيش حرًا غير متعلق بأمور الدنيا.

ولدى «أميل» رصيد من الفضيلة لكل ما يتصل بشخصه.. ولكن ينبغي أن يعرف الصلات الاجتماعية التي تقتضيها الفضائل، وقد أصبح ذهنه متأهبًا لتلقيها..إنه لا يطالب أحدًا بشيء ولا يرى نفسه مدينًا لأحد بشيء، ولا يعتمد إلا على نفسه. ليست له أخطاء إلا ما لا مناص منه، وليست له رذائل إلا ما لا يستطيع أي شخص أن يتوقاها. ليس بجسمه علة، وأطرافه قوية، وذهنه صافٍ وخالٍ من المزاعم، وقلبه طليق خالٍ من

الأهواء، وحب الكرامة فيه طبيعي.. لا يقلق أحدًا، وهو راضٍ مطمئن حر بقدر ما تسمح له الطبيعة.

فهل ترون فيه، وقد بلغ الخامسة عشرة، إنه أضاع سنوات عمره تلك هباءً!

تربية العواطف

شب «أميل» ولم يعد طفلًا.. وتبدأ مرحلة المراهقة بنذر من التغيرات في المزاج والشكل والوجه. فهذا أوان ظهور الأهواء التي هي الوسائل الرئيسة لحفظ الذات والنوع، وهما قوام غريزة الحياة. وتختلف سن البلوغ تبعًا للأجواء، ولطريقة التربية أثر في تأخير البلوغ أو التعجيل به، وبهذه المناسبة يمكننا أن نتساءل عمّا إذا كان من الأفضل تنوير الأطفال مبكرًا بالأمور التي جرى العرف على إخفائها عنهم!

إنني أرى من الأفضل أن نؤخر ما استطعنا فضولهم في هذه الناحية.. والصمت أحرى بنا عند تساؤلهم من أن نكذب عليهم، وإذا أردنا التنوير فليأخذ كل منا طابع الجد لأن المزاح يمهد للإباحية والتردي في الفجور فيما بعد.

ومن الخير أن يكون نمو الأهواء والانفعالات بطيئًا؛ فإن الشاب إذا ظل نقيًا طاهرًا فإن أول ما يتفتح له قلبه للانفعالات الطبية الصداقة مثلًا. وضعف الإنسان يجعله اجتماعيًا، وعناصر الشقاء تدفع قلوبنا إلى الإنسانية فلو لم نكن بشرًا لما أحسسنا أننا مدينون للإنسانية، وكل ارتباط دليل على نقص أو حاجة، فلولا حاجتنا إلى الآخرين لما فكرنا في الارتباط بالغير.

وتتولد سعادتنا المحدودة من عجزنا، والإنسان السعيد هو المنعزل، فمن منا لديه فكرة عن هذه السعادة؟

بماذا يتمتع إنسان ناقص لو أنه استطاع أن يكفي نفسه بنفسه؟.. لا شك أنه سيكون في سعير من الشقاء. وهل يحب شيئًا من لا يحتاج إلى شيء؟ وبالتالي هل من لا يحب شيئًا يكون سعيدًا؟

لهذا أرى أن ارتباطنا بنظرائنا يكون أقل إذا شعرنا أنهم سعداء، ذلك لأن ارتباطنا بهم من حيث آلامهم شديد؛ لأننا نرى في آلامهم صورة لطبيعتنا. وحاجاتنا المشتركة تؤلف بيننا برباط المنفعة، كذلك يؤلف بيننا الشقاء المشترك برباط المودة. والرجل السعيد يثير في الناس الحسد أكثر مما يستشعرون له الحب، فهم أقرب إلى اتهامه باغتصاب ما ليس له؛ إذ يحظى بسعادة يستأثر بها نفسه.. ونستشعر الهوان إذ نرى أن ليس به حاجة إلينا.

ولكن من منا لا يحنو على شقي يتألم؟ ومن منا لايود أن يرفع عنه آلامه، لو كان ذلك بمجرد التمني؟ إن المخيلة تضعنا في موضع الشقي أكثر مما تضعنا في موضع السعيد، ولذلك تؤثر فينا حال الشقاء أكثر مما تحركنا حال السعادة. والرحمة شعور رقيق.. ونحن إذ نضع أنفسنا في موضع من يتألم نشعر مع ذلك باللذة لأننا لا نتألم كما يتألم. ولكن الحسد مُر لأن السعيد لا يتيح للحاسد أن يتمثل نفسه في مكانه، ولهذا يثير فيه الأسى؛ فالشقي يعفينا من آلامه، بينما لا نستطيع استشعار الخير الذي ينعم به السعيد.

لا تبذر في نفس الشاب بذور الكبرياء أو الغرور أو الحسد لكي تغذي بوادر حساسيته وتجنح بطباعه نحو فعل الخير. وأحجب عنه في البداية صورة السعادة والرفاهية، ولا تطلعه على مظاهر البذخ ومناعم القصور إلا بعد أن تمكنه من تقدير وزنها في حد ذاتها، فإنك إن فعلت ذلك قبل أن يعرف حقيقة البشر، تكون قد هدمته وغررت به.

لم يولد الناس ملوكًا أو عظماء أو ثراة، بل جميعهم يولدون عرايا فقراء معرضين للأوجاع والهموم والأمراض وسائر صنوف الآلام.. هذه هي حقيقة الإنسان، فعليك أن تبدأ بدراسة البشرية على طبيعتها؛ لأنها الجوهر الباقي.

يعرف المراهق معنى الألم في سن السادسة عشرة لأنه يكون قد تألم، ولكنه لا يكاد يدرك أن الغير يتألمون أيضًا.. ربما شاهد أحدًا يتألم، ولكن المشاهد غير الإحساس.

والطفل لا يعرف آلامًا غير آلامه، ولكن نمو الحواس يذكي فيه نار المخيلة فيبدأ بالإحساس بما يعانيه نظراؤه ويتألم لآلامهم.. فينبض قلبه بآلام البشرية المعذبة ويحس العطف والحنان، فتتولد لديه الشفقة. ولإذكاء حساسية الطفل يجب أن يعلم أن نظراءه يعانون مثله، فلا يمكن أن نتأثر بالشفقة والرحمة مالم نخرج من أنفسنا ونتقمص شخصية من يتألم متجردين من أشخاصنا. وتألمنا يكون بمقدار ما نحكم بأنه يقاسيه؛ لأننا لا نتألم لأنفسنا وفي أنفسنا بل له هو، وبذلك لانغدو ذوي حساسية إلا عندما تتقد مخيلتنا وتبدأ في إخراجنا من ذاتيتنا.

فعلينا إذن أن نقدم للشاب موضوعات يمارس فيها قوة التفتح في قلبه فتتمرس حساسيته على الاتساع؛ فتثار لديه الشفقة والإحسان والرحمة والحنان وسائر العواطف الكريمة، وتخمد ميول الحسد والغيرة والحقد والكراهية وسائر العواطف الذميمة التي تلغي رهافة الحس وتجعلها في صورة بشعة.

ويمكن تلخيص هذه الخواطر في قواعد ثلاث:

أولًا: لا يميل القلب البشري إلى أن يضع نفسه في موضع من هم أسعد حالًا منه، بل في موضع من هم أحرى بالإشفاق.

ثانيًا: لا نشعر بالشفقة على الغير إطلاقًا إلا بسبب الآلام التي لا نعتقد أننا معصومون منها محصنون ضدها.

ثالثًا: لا تقاس الرحمة والرأفة بآلام الغير بكمية الآلام في ذاتها، بل بمقدار ما نفترضه في المتألم من إحساس نعيره إيّاه من ذواتنا.

ولا ينبغي أن نخشى على إحساس «أميل» بالسعادة من سوء تأثير مناظر الشقاء، فأولى منه بالإشفاق من ينغمسون في المجتمعات ويعبون من ملذاتها، ويقاسون من رغباتهم التي لا تتحقق، ومن الغيرة والحسد.

سيتمتع «أميل» بسعادة هادئة، والرحمة التي يشعر بها نحو المعذبين رقيقة تزيد من ارتباطه بالناس، فبقدر مزايا الصداقة.. وهكذا تنمي فيه معرفة الحياة حساسية إنسانية مرهفة تحول دون نمو العواطف الشريرة.. وتمنحه، عقليًا، أول فكرة عن العدل والطيبة.

دراسة أحوال البشر

لا شك أن «أميل» سيميل –حين يرى المجتمع العريض– إلى الحظوة بالمكان الأول فيه، فيتجه نحو الطموح. وهنا يجب أن نبين له الفروق بين الناس، وأساس الطبيعة هو المساواة الحقيقية التي لا شذوذ فيها ولا خروج عنها. أما في الحالة المدنية والمساواة القانونية وهمية فارغة، ذلك لأن وسائل صيانتها تؤدي إلى القضاء عليها. والقوي يستخدم قوته في سحق الضعيف، فيخل بالتوازن الذي أقامته الطبيعة بين الأقوى والأضعف، وتنجم عن هذه المفارقة جميع المفارقات التي نلحظها في النظام المدني بين الظاهر والحقيقة. فهناك دائمًا طاغٍ وضحية، والمنفعة الشخصية أثيرة عند الناس أكثر من الصالح العام، أما ألفاظ العدالة فما هي إلا أدوات للاغتصاب وأسلحة الظلم!

والمكانات الكبيرة التي تقيم نفسها، وتزعم النفع للناس، تنفع نفسها على حسابهم. ويحق لنا هنا أن نتساءل عمّا إذا كانت تلك المكانات التي انتحلوها لأنفسهم أدعى لسعادة أشخاصهم، وذلك ليختار «أميل» عن بينة، قيمة المكانة التي يختارها بالنسبة للناس وبالنسبة لسعادته، ولكي نصل إلى ذلك يجب أن نعرف القلب البشري.

إن معرفة الناس تكون عن طريق أعمالهم لا أقوالهم؛ لأن أقوالهم تخفي أعمالهم. ولا تتضح تلك الأفعال مجردة إلا في ضوء التاريخ، حيث الحكم على الوقائع، وهكذا يهتك التاريخ الحجب ويظهر الفضائح.

على أن لدراسة التاريخ عيوبًا وأخطارًا، فمن الصعب أن يضع الإنسان نفسه في موقف يمكن منه أن يحكم على نظرائه بالعدل. ومن أكبر عيوب التاريخ أنه يتناول جوانب الناس المظلمة أكثر من جوانبهم المشرقة.

والتاريخ لا يهتم بالثورات والكوارث.. ويجب ألا نغفل أن الوقائع التي يذكرها ليست مطابقة تمامًا للوقائع التي حدثت فعلًا؛ لأنها تتخذ الصورة التي يمليها دماغ المؤرخ تبعًا لوجهة نظره أو مصالحه، فكيف يتسنى لنا معرفة الحوادث كما وقعت فعلًا؟!

والجهل والتحيز يشوهان الأشياء، والإسهاب والإيجاز يعطيان صورًا مخالفة للواقع.. وبالتالي ظلًا مخالفًا، وإذا نظرنا إلى موضوع واحد من وجهات مختلفة بدا كأنه عدة مواضيع في حين أنه واحد بعينه، أما الذي اختلف فهو عين الناظر إليه.

ما قيمة حوادث التاريخ إذا ظلت أسبابها خافية؟ ماذا نستخلصه من حادثة نجهل حقيقة سببها؟ حتى النقد الذي نراه إنما هو ضرب من التخمين لأنه محاولة لاختيار أقرب أكذوبة إلى الحقيقة شبهًا.

إن أسوأ المؤرخين هم الذين يعلقون على الحوادث ويصدرون أحكامًا، ودراسة التاريخ يجب أن تتناول الوقائع فقط، ثم ندعْ للشاب أن يحكم بنفسه عليها. وشر المؤلفين أو المعلمين من يقود التلميذ إلى رأيه هو، أي يجعله يرى بعينه هو.

والتاريخ بوجه عام ناقص معيب لا يسجل إلا الوقائع البارزة المحسوسة

المدعمة بالأسماء والأماكن والتواريخ. أما الأسباب الكامنة فتظل مجهولة خافية. والحرب ليست إلا مظهرًا معبرًا عن أحداث قررتها أسباب معنوية يندر أن يفطن إليها المؤرخون، وقد نجد معركة رابحة أو خاسرة سبب قيام ثورة، وتكون هذه الثورة في الحقيقة أمرًا لا مناص من حدوثه حتى قبل تلك الموقعة.

والتاريخ يهتم بالحوادث أكثر مما يهتم بالرجال، وهو لا يتعرض لهؤلاء إلا في مواقف محددة خارج حياتهم الخاصة التي لايتعقبهم فيها، فصورتهم التاريخية صورة مظهرية لا صورة الشخص الإنسان.

وأنا أفضل قراءة الحياة الخاصة، لأبدأ بها دراسة القلب البشري؛ لأن الرجل يكون على سجيته في بيته. وفي هذا الضوء تنكشف حقيقته؛ لأنه يكون مجردًا من ثياب التمثيل والتصنع.

ولما كانت روح الجماعة تختلف عن طبيعة الفرد، ومن يريد أن يسعى لمعرفة القلب البشري يجب ألا يغفل معرفة الجماهير.. فلا جدال في أنه ينبغي أن نبدأ بدراسة الشخص الفرد كي نتدرج إلى دراسة الناس عمومًا، فمعرفة ميول الفرد تؤدي إلى معرفة الميول المتداخلة في كتلة الشعب.

والمؤرخ «بلوتارك» ممتاز في إيراد التفاصيل الدقيقة من حياة العظماء الخاصة، فكلمة منه أو إشارة تكفي لرسم شخصية البطل.. وأسلوبه يترك الأثر الحاسم في ذهن الشباب الذي تعود الإحساس والتفكير الشخصي، فينتهي إلى إدراك حقيقة النفوس والصور الخلقية ومبلغ شقاء العظماء وعذابهم رغم سلطانهم وجاههم.. فيتعلم أن متاعب الإنسان تتضخم مع نمو ثروته ومسئوليته، وأخيرًا يتعلم احتقار المطامع والشهوات.

الحقيقة والأسطورة

و«أميل» يحسن مراقبة الناس، ولذا فهو يحسن الحكم عليهم.. يشعر بالإشفاق على من أذلتهم الأهواء وكانوا عبيدًا لأخطائهم. ولكنني لا أميل أن يركبه الغرور لشعوره بتفوقه الخلقي عليهم.

واختبار الدنيا أكبر عاصم من الغرور، وهذا الاختبار فرصة ذهبية يتعرض فيها التلميذ طواعية بمحض اختياره لمختلف أنواع المغامرات التي يتبين منها ضعفه، ولهذا أرى من الأفضل أن يشارك المربي تلميذه في الأخطار التي يعرضه لها. ولا يجمل بالمعلم أن يتخذ مسموح الوقار الزائف، وهو يتظاهر أو يتصنع الحكمة والرزانة.. بل يجب أن يشاركه في أخطائه كي يصححها له ويقومها.

وحين يقع «أميل» في الأخطاء، فهذا إيذان ببداية عصر الأسطورة في تربيته؛ لأنه سيكون في وسع المعلم أن يهذب التلميذ من غير أن يهينه، بالتنديد بالمذنب الذي يقمصه شخصية أسطورية، فبهذه الطريقة سيدرك التلميذ أن الأسطورة ليست أكذوبة، بل حقيقة صالحة للتطبيق.

ولا شك أن التلميذ الذي لم تفسد تربيته بالتدليل والتملق الكاذب يستخلص من الأسطورة قاعدة أخلاقية.. وتساعده حادثتها المنظومة على رسوخ القاعدة في ذاكرته. وكل فكرة أخلاقية يمكن اكتسابها عن طريق خبرة الآخرين أو تجربتنا.. وحين تكون التجربة غاية في الخطورة،

فيجب استخلاصها من تجربة الآخرين عن طريق التاريخ أو عن طريق الأسطورة.

وإني لأندد بالقواعد الأخلاقية التي يختتم بها كثير من الأساطير المنظومة؛ لأن الحاسة الأخلاقية تتربى عند التلميذ بأن يستخلص هو العبرة بنفسه من الحادثة الواردة بالأسطورة. ولهذا فمن البلاهة إيراد العبرة بالألفاظ في ختام الأسطورة، كأنما العبرة ليست متضمنة في صلبها.

وأساس التربية وسرها في ألا نحرم التلميذ من لذة تعليم نفسه عن طريق الموضوعات والوقائع.. فهذا هو الباب الذي نصل منه إلى تربية ملكة التفكير والتمييز والقياس والضمير لدى التلميذ. وإنني لأعتبرها أنانية أن يستأثر المعلم بلذة التعليم كلها، ولا يترك لتلميذه غبطة الاستنباط والاكتشاف التي ترضيه عن نفسه وتشعره بنموه ونجاحه المطرد.

على أنني لن أكتفي بالنظريات الأخلاقية، بل سأجعل تلميذي يمارس بصورة عملية الفضائل الاجتماعية بنفسه.. فيمنح الصدقات من ماله، ويسهم في رفع الغبن عن المظلومين، ويساعد الضعفاء، ويعطف على المحروم والضعيف والمسكين.. وهكذا يتكون لديه ضمير أخلاقي عملي يتسع لجميع الناس بغير فرق في الجنس أو الوطن أو العقيدة.

السلوك المهذب

لا ينكر أحد أننا نعمل في توافق مع الطبيعة، وحين تكون الطبيعة الشخص المادي نعالج نحن تكوين الشخص الأخلاقي. بيد أن سرعة التكوين في الحالتين غير متساوية، فالجسم ينمو حثيثًا ويبلغ عنفوانه، بينما لم تزل فيه الروح ضعيفة خائرة. وهنا موضع الصعوبة، فمهما بذل الإنسان في مسعاه فإن مزاجه يظل سابقًا لعقله.. وكان سعينا السابق منصبًا على إيقاظ العقل وتهذيب الحس، إبقاء على وحدة كيان التلميذ والحيلولة بينه وبين اضطرام الصراع الداخلي.

ولكن الرغبات الجسدية التي تنشأ في الشباب تأتي جازفة؛ فإن صددناها أو جابهناها في عنف، ونظرنا إلى استشعاراته الجديدة في داخله كأنها ضروب من الجرائم، فلن يصغي لكلامنا أو ينقاد لما نشير به. فمن واجب المعلم هنا أن يكون سفير الطبيعة المنفذ لقوانينها في حكمة، الخاضع لمراسيمها التي لا تقاوم، فليس له أن يقف منها موقف العداء.

فعلى أي نهج يسير المؤدب إزاء العواطف والشهوات؟ إن أول ما يخطر على الذهن هو المبادرة بتزويج الشاب. وهذا بغير شك تصرف حكيم، بل إنه أقرب ما يكون إلى الفطرة، ولكنني أشك في صلاحية ذلك من الناحية العملية، وسأوضح هذا فيما بعد، وأقول الآن أنه لا بدّ من اكتمال النضوج قبل الزواج، والنضوج لا يتيسر في باكورة البلوغ. وهناك كثير من التعارض بين قوانيننا الاجتماعية وبين حقوق الطبيعة علينا، ومن واجبنا أن نقرب الشقة وأن نوفق بين هذين الطرفين.

وأنا أعتقد أن باستطاعتنا تأخير يقظة الرغبات والإبقاء على البراءة الناصعة إلى سن العشرين، وليس هذا بدعة أو من قبيل الخرف؛ فإن العار يلحق بالشاب من قبائل الجرمان إذا فقد بكارته قبل سن العشرين. ومن هنا يعزو المؤلفون إلى هذه العفة سلامة أبدان الجرمان وعنفوانها وكثرة النسل عندهم. ولعله ليس بالمتعذر إطالة هذه الفترة إلى أكثر من ذلك؛ فإنني أعرف رجلًا كان قوي البنية متوقد الذهن أقسم أنه تزوج وهو بكر – كانت سنه عند زواجه أربعًا وثلاثين سنة– وأنه ظل محتفظًا بصحته ومرحه إلى مابعد الستين.

وعلى هذا لا تأخذني الدهشة، وأكون مبالغًا في الاعتقاد حين أقدر أن «أميل» قد يظل حتى الآن متمتعًا ببراءته الأصلية بفضل رعايتي. بيد أني لا أتوقع أن تطول فترة هذه البراءة؛ إذ يحيط بنا كثير من المغريات مما سيترتب عليه أن زمامه سيفلت من يدي شئت أو لم أشأ، فينقاد للغريزة الحيوانية الهوجاء.

لقد تعمقت في التفكير في أخلاق الناس، فاتضح لي أن لحظة البداية في هذا الطريق لها تأثير حاسم يستمر مدى الحياة.. فإن أنا أغمضت عيني أو تظاهرت بالجهل، فسيستغل تصرفي هذا ويظن أنه يتغفلني، ومن ثم يحتقرني وفي هذه الحالة أكون قد تواطأت على فساده، حتى إذا حاولت تقويمه بعد ذلك فلن أفلح أو أفوز بطائل؛ لأنه لن يصغي لنصحي وسيضيق بي ذرعًا ويكن لي الكراهية.

والسبيل المعقول الذي ليس أمامي سواه، هو أن أجعله المتصرف في أمر نفسه، وأكتفي بأن أحاول أن أعصمه من الأخطار بأن أنبهه إلى المعاطب ومغبة العواقب التي تحدق به. ولئن كنت أسير معه على أساس جهله بالأمور؛ فإنه يتحتم عليّ منذ الآن أن أتصرف معه عن طريق الدراية وتبصيره بالحقائق.

إن ما جد عليه بالغ الأهمية والخطورة، فينبغي أن يكون جليًا ونظيفًا..ومما لا يختلف فيه اثنان أن طريقة تعهد شخص بالغ تناقض تمامًا كل ما فعلته في تعهده وهو طفل.. فمن الحكمة الواجبة الاتباع فورًا بتنويره وإطلاعه على تلك الأسرار الشديدة الخطورة التي طالما اجتهدت في إخفائها عنه. وما دام من الواجب أن يعرفها، فلا ينبغي أن يعرفها من أحد سواك، حتى ولا من نفسه، بل منك أنت بالذات. وما دام قد تعين عليه أن يخوض المعركة، فمن الخير أن تجنبه المفاجآت السيئة، وأن تبصره بنفسك بحقيقة عدوه.

وقد جرت العادة أن يتناقل الشبان هذه الحقائق الدقيقة الحيوية، يعرفونها من أصحابهم لا من أساتذتهم أو مؤدبهم، فلماذا يتخير الشاب خلصاءه ويصطفيهم بعيدًا عن دائرة مؤدبيه؟

يرجع ذلك إلى تحكم أولئك المؤدبين فيه واستبدادهم به، وما كان ليتخفى أو يتستر لو لم يجبره استبدادهم على ذلك. أما تلميذي «أميل» فليس به حاجة إلى التماس صديق سواي للالتجاء إليه، فقد تعود أن يفتح إلى قلبه في حرية، وأن يصارحني بما يحسه في سرور.. ومن ثم فإنني أخاف

عليه من هذه الناحية. وسأدرك، حين ألحظ عليه الخجل والتحفظ، أن غريزته بدأت في التيقظ أو الثوران، وإن فكرة الشر بدأت تقترن بالغريزة لديه، فأعرف أن الوقت قد أزف، وإنه يجب عليّ أن أعجل بتنوير ذهنه، وإلا فإنه سيلتمسها وينشدها بعيدًا عني ورغم أنفي.

وقد يظن أن المسألة لا تحتاج لأكثر من حديث صريح ثم ينتهي الأمر.. ولكن الزرع المثمر يحتاج إلى عناية وبذور الفضيلة عزيز نباتها، والأرض معادن، وقد لا تجدي الموعظة إذا كانت لا تلائم طبيعة الشخص، ولا يكون الشاب متهيأً لسماعها عندما تضطرم شعلة حواسه فتطيح بعقله وتستبد بإرادته. فلا تخاطب العقل في الشبان إلا بعد إعدادهم لإدراك ما تقول. ومثل الشاب الطائش كمثل من يسير في نومه على حافة هاوية، إن أيقظته فجأةً كان حريًا أن يتردى فيها. وستكون خطتي مع تلميذي أن أجعله بمنجاة –وهو في نعاس جهالته– من المخاطر التي لا يراها؛ فإن أنا أيقظته فجأة هلك، وسأجعل مسعاي أن أبعده عن الهاوية ثم أوقظه لأريه إيّاها عن بعد.

والحياة الرخوة والكسل ومخالطة النساء والشبان سبل خطيرة تعرض للمزالق، ولذا سأحيد به عنها وأورده سواها؛ لأن الأعمال الشاقة المضنية تخمد ثورة الحس وتحد من شطط المخيلة.. وتعب الجسم من الإرهاق والجهد خير صارف للقلب عن شبوب الرغبات. والمدينة مرتع خصب يذكي مشاعر الحس، ولهذا سأذهب بتلميذي إلى الخلوات ليكون بعيدًا عن الغواية والمغريات، وإن لم يبعده ذلك عن ذكراها وأخيلتها، لأن الغواية

لها عامل داخل النفس، ولذا سأشغله بهواية توافق مزاجه إلى أن يحين وقت المصارحة.

وسأتخير المناسبة الملائمة والزمان الملائم عند المصارحة وأحدثه ببساطة ورزانة من غير جفاف، بل بحيث يدرك أني مشترك معه في الإحساسات.. أحدثه عن الحب والنساء والملذات لأكسب قلبه وأكون موضع سره فيما بعد. ولن أضع سدًا بينه وبين فطرته، بل سأوضحها له مبينًا مواطن الخطر. يخطئ من يريد تأمين الشاب ضد فخاخ الشهوات بتصوير الحب في صورة الجريمة؛ لأن ذلك خداع لا ينطلي عليهم ولن يجني قائلها سوى السخرية. ولهذا سأصور له الحب على حقيقته.. سأقول له أن السعادة في الحب، وأنه يضفي على الرغبات الحسية سحرًا وجمالًا، وإن الغريزة من غير حب امتهان وابتذال. وسأنفره من الفجور، وأجعله يهفو بعواطفه نحو الحب، فلا بدّ أنه سيحب يومًا ما ويتزوج من يحب.

وسأقول له وأنا أبصره بالحياة الاجتماعية:

– إن قلبك بحاجة إلى رفيقة تؤنس وحشته وتسعده، فهيا ننشد من تلائمك.. وربما نجد عناءً في ذلك لأن الفضيلة الكاملة الحقة نادرة، فعلينا بالتروي لنعثر على ضالتنا.

وسيحافظ تلميذي على الآداب الاجتماعية لتحرر فكره، ولأنه لا يميل إلى إيذاء الناس أو امتهانهم، وهكذا بعد وقت قصير سيتعلم السلوك الاجتماعي المهذب.

حسن التذوق

الشخص الذي يحب يريد أن يكون محبوبًا.. و«أميل» يحب الناس، ولهذا يهفو إلى الفوز بإعجابهم وبخاصه النساء منهم، وهو مقبل بكليته على هذه الرغبة.

والحب عند الرقعاء ألفاظ معسولة ورخاوة، أما عند «أميل» فحب النساء أعمق جذورًا لأنه صادر من القلب ورقة الإحساس.. وهذا هو الفارق بين المحب الحقيقي والفاجر من طلاب الشهوات.

وسأتوقع ل «أميل» الخجل والارتباك في أول الأمر لقلة خبرته، ولكن هذا سيزيد من جاذبيته للنساء.. بيد أنه لن يلبث أن تزول عنه هذه الأعراض بمرور الوقت. وسيكون شديد الاحترام للمتزوجات، بالغ الرقة والحيوية مع الفتيات، ويكون مثالًا للتواضع والحياء، خفيض الصوت، بعيدًا عن التطرف والادعاء. ولئن كان رصيده من خفة الدم أو براعة النكتة ضئيلًا، فسوف يعوضه عن ذلك، الاتزان وصفاء الذهن وسداد الرأي، ولهذا سيحبه الناس.

ولن يندفع وراء البدع الشائعة لأنه ليس سطحيًا في تفكيره، بل يحسن تقدير الآراء.. وآفاق معرفته مقصورة على المفيد النافع، وهذا يجعل طريقه محدود الاتساع، فلا يغريه شيء بالانحراف عن السبيل السوي، وهذا كفيل أن يحظى بالاحترام والتقدير.

وحب الإعجاب فطري في جميع الناس، لهذا سيسعى «إميل» للحظوة بالإعجاب من أجل صفاته وخصاله المتأصلة في نفسه. وهو يحب أن يتفوق في مجال الرياضة والعمل ولا يهمه التفوق في ذلاقة اللسان أو براعة النكتة، كما لا يعنيه كسب الاحترام لعراقة النسب أو الثراء أو الجاه.. يحب الناس لأنهم أناس مثله، وأحبهم إليه أشبههم به في الذوق والخلق.. وتقديره لهم على أساس دراسة أخلاقهم وسجاياهم وأذواقهم، لا على أساس مراكزهم أو ثرائهم.

وهنا يجمل بنا تعريف الذوق وتحديده، والواقع أن تعريفه من أشق الأمور وأكثرها تخبطًا، والمفهوم البسيط له أنه ملكة الحكم على ما يعجب السواد الأعظم من الناس أو لا يعجبهم.

والذوق لا ينصب على الأشياء التي نحبها لنفعها أو نكرهها لضررها، بل على أشياء تتصل بالمتعة والكماليات لأن الضروريات لا تحتاج إلى ذوق للحكم عليها؛ لأنها تخضع للفطرة والرغبة الطبيعية.

والذوق فطري في جميع الناس ولكنه ليس متساويًا لديهم، وهو عرضة للتغير في مراحل العمر.. فالحساسية والثقافة والبيئة لها أثرها فيه، والأوساط المتخمة بالعمل ومهام الأمور لا تهتم بالملذات والمسرات، بل بالمنافع والمصالح.. وحيث يتفشى الترف والبذخ يسود الذوق الفاسد.

ويبدو الذوق في فساده أو صلاحه على أوضح صورة في العلاقات بين الجنسين، فحينما تسود تلك الصلات المتعة المبتذلة نجد الذوق منحلًا، فالتبذل يقترن بفساد الذوق، والخلق الحميد يقترن بحسن الذوق.

والمرأة خبيرة بأمور الحس، لهذا يرجع إلى ذوقها في الأشياء المادية.. أما الرجل فلخبرته بأمور الفكر فيرجع إليه في الأشياء المعنوية. والمرأة تكون صائبة الحكم إذا التزمت حدود ميدانها التي خصصتها لها الطبيعة؛ فإن تعدتها فذلك آية الفساد.. وسأتكلم في فصول تالية عن المرأة وتربيتها.

وسأجنب «إميل» المجتمعات المخنثة التي تسيطر فيها المرأة على الأذواق، وكذلك المجتمعات المترفة التي يطغي فيها المال على الفنون، ويطمس فيها البذخ الجمال الطبيعي. وسيعينني الذوق على الدخول إلى القلب مباشرةً، وسأطلعه أولًا على كتابات الأقدمين المستلهمة من النزعات الطبيعية والإحساس الفطري، ثم على مؤلفات المحدثين الزاخرة بالسخافة والتكلف الممقوت، فلا يلبث أن يطرحها نافرًا منها. وبعد دراسة الأدب إرتاد به المسارح؛ فإنها مدارس للذوق بما تستهدفه من المتعة والترفيه والترويح.. فهي تقام لتهذيب العواطف والمشاعر، ولهذا تصلح تمهيدًا لدراسة الشعر، الذي يقوم على التعبير عن العاطفة، ففنون الشعر والمسرح هي المحراب الحقيقي للجمال وتنمية الذوق.

وسيكون هدفي الأساسي أن أعلمه كيف يحس الجمال بجميع أنواعه وكيف يحبه، فبهذا تزدهر عواطفه وذوقه، ويلمس السعادة في الجمال لا في الثروة وما تتيحه من متاع رخيص.

وسأجعل أسلوب المعيشة يتفق مع مستوى الذوق، ويجب أن يتابع الطبيعة ويلازمها عن كثب، ولذا لن نقيم في قصر، فلن تكون بنا حاجة لأكثر من حجرة واحدة، ذات أثاث متواضع، وتكون حياتنا خالية من مظاهر الترف.

عجبي لمن ينفق المال والوقت في بناء قصر شامخ يتقيد به لا يبرحه! وتقلبات الحياة لا تسمح بذلك.

سأجعل العالم مسكني، وسأستخدم ثروتي في توفير أسباب الراحة، لا في إثقال حياتي بمظاهر الوجاهة التي لا داعي إليها.. وسأعوّد «إميل» بساطة الملبس، حتى لا ينظر إلى نفسه بعين الغرور.

والصلة التي يجدر به أن ينميها هي صلة الصداقة القائمة على توافق الأذواق.. والصداقة لا تُشترى، والصلة التي تقوم على التملق سخيفة، وكذلك الحب لا يًشترى، وإن كان من السهل شراء النساء بالمال.. ولكن هذا ليس حبًا. والذي يفعل ذلك يهون على المرأة فلولا المال لما فتحت له ذراعيها.. والمتعة التي تُشترى رخيصة مبتذلة لا تروي قلبًا.

فإذا تربى «إميل» على الذوق هكذا، أكون قد أشرفت على المرحلة الأخيرة، مرحلة البحث عن شريكة لائقة جديرة به. وعندئذٍ يجب المبادرة إلى البحث، حتى لا يتهالك على أول فتاة يخالها ضالته التي ينشدها.

وفي سبيل هذا البحث، سأرحل مع «إميل» عن باريس ومجتمعاتها، فهي مدينة الصخب والدخان والوحل، حيث النساء فقدن إيمانهن بالشرف، وحيث فقد الرجال إيمانهم بالفضيلة.

وسنبحث عن الحياة والسعادة والطهر في فسحة الريف النظيف.. نبحث عن ذلك في صورة فتاة مثالية نموذجية، نسميها منذ الآن «صوفي».

الكتاب الرابع

صوفي أو المرأة

تنشئة الفتاة

لم نبلغ بعد مدى الشباب وإن كنّا قد وصلنا إلى المرحلة الأخيرة منه، وليس من الحكمة أن يعيش الرجل وحيدًا. وقد أضحى «إميل» رجلًا، وسبق أن وعدناه بشريكة لحياته، فينبغي ألا نحنث بالوعد وأن نمنحه إيّاها.

وشريكته هي «صوفي».. ولكن أين نجدها؟! لكي نعثر عليها يجب أن نعرف أولًا ما هي، ثم من هي.. وبذلك نوفق إلى العثور عليها، بيد أن ذلك لا ينهي الإشكال؛ إذ يجب أن تكون «صوفي» حائزة لكل ما يتفق وتكوين نوعها وجنسها، وتصلح لملء مكانها جسديًا وخلقيًا، وللوصول إلى ذلك ينبغي أن نبدأ بفحص مواطن الاتفاق والاختلاف بين جنسها وجنسنا.

المرأة رجل في كل ما لا يتصل بالجنس، لها أعضاؤه وحاجاته وقدراته، فالآلة البشرية في المرأة والرجل واحدة. أما فيما يتصل بالجنس، فبين المرأة والرجل صلات من جميع النواحي واختلافات من شتى النواحي. إننا نعلم أن ما بينهما من قسط مشترك مستمد من اشتراكهما في النوع البشري، وأن ما بينهما من اختلاف راجع إلى تباين الجنس، ولعل من آيات الطبيعة أن يجتمع التشابه والتباين في كائنين.

والصلات والاختلافات لها تأثير على الجانب الخلقي، والمرأة والرجل من حيث الجانب المشترك بينهما متساويان. أما من حيث جانب التباين، فلا وجه للمقارنة بينهما، ويسهم الجنسان معًا في الأمور العامة ولكن لكل

منهما أسلوبه. ومن هذا التباين يتولد أول اختلاف في الصلات الخلقية، فينبغي أن يكون أحد الجنسين إيجابيًا قويًا والآخر سلبيًا ضعيفًا، فيكون أحدهما مريدًا قادرًا فعالًا، ويكفي أن يبدي الآخر مقاومة يسيرة.

وتبعًا لهذا المبدأ تكون المرأة قد جعلت أساسًا لإرضاء الرجل.. ولئن كان للرجل أن يرضيها، فذلك عن ضرورة أو لأن ميزته الأولى هي قوته.. إذن فهو يروق للمرأة لقوته. وهذا قانون الطبيعة وليس قانون الحب، وهو سابق على الحب ذاته.

ولئن جعلت المرأة كي تروق للرجل وتخضع له، فيجب عليها أن تسعى للفوز برضاه لا أن تتحداه.. فعنفوانها قائم في مفاتنها، وبتلك المفاتن يجب أن تأسره وترغمه على شحذ قوته. ولا شكّ أن خير وسيلة لإيقاد جذوة تلك القوة هي استثارتها بالمقاومة، ففي هذه الحالة تتحد الكرامة مع الرغبة، ويكون انتصار أحدهما مؤزرًا للأخرى. فيتولد الهجوم والدفاع، وجسارة أحد الجنسين وخجل الآخر، أو ذلك الخفر الذي زودت به الطبيعة الجنس الضعيف كي يسترق الجنس القوي.

لقد أراد الكائن الأعظم في كل أفعاله تكريم النوع البشري، حين منح الرجل ميولًا لا حدّ لها وأعطاه قانونًا ينظمها بحيث يكون حرًا وخاضعًا لذات نفسه، وهذا القانون هو العقل. ومنح المرأة رغبات غير محدودة، شفعها بالحياء والخفر كي يحد منها ويلجمها. ومن تلك الآيات أيضًا أن جعل ثوابًا فعليًا على حسن استخدام الرجل والمرأة لوظائفهما الطبيعية الحيوية، وذلك الثواب هو النكهة الطيبة التي نجدها في ممارسة الأمور بشرف.

وهناك ظاهرة أخرى للصلات بين الجنسين هي أن الجنس الأقوى هو السيد في الظاهر، بينما هو في الواقع معتمد وتابع للجنس الأضعف. وليس ذلك للمجاملة ولا عن سماحة، بل عن قانون راسخ من قوانين الطبيعة.. أعطى المرأة ذلك اليسر في إثارة الرغبات أكثر مما يسر للرجل إرضاء تلك الرغبات، وبذلك أصبح خاضعًا لهواها، ساعيًا إلى التقرب إليها كي تسمح له أن يمارس حقّه.

إن أمتع ما يستمتع به الرجل في نشوة انتصاره هو ذلك الشك اللطيف، فهو لا يعلم عن يقين هل الضعف هو الذي إاتسلم للقوة، أم أن ذلك الإستسلام جاء عن إرادة وطواعية.

والواقع الخالد أن دهاء المرأة المعهود يجعلها تترك ذلك الشك قائمًا على الدوام بينها وبين الرجل، وذكاء النساء متفقٌ في ذلك مع تكوينهن الجنسي؛ فلا يأنفن من ضعفهن بل يفاخرن به. ويتملكهن الخزي من الظهور بمظهر القوة ليس لكي يظهرن بمظهر الرقة فحسب، بل ليمهدنّ لأنفسهن العذر –عند الحاجة إليه– للاستسلام!

لقد قادتنا دراسة البدن إلى مجال الأخلاق دون أن ندري، ومن غلاظة الاتصال الجنسي تنبت شيئًا فشيئًا أرق قوانين الحب.. فسلطان النساء ليس وليد إرادة الرجال، بل وليد إرادة الطبيعة. وهو لهن بحكم الطبيعة لا يمكن انتزاعه منهن مهما أسأن استخدامه، ولو كانت إساءة الاستخدام كافية لسلبه أو فقدانه لفقد النساء سلطانهن على الرجال من أمد بعيد.

وليس ما بين الجنسين من تقابل رهينًا بفترات معينة، فالذكر ليس ذكرًا إلا في بعض اللحظات، أما الأنثى فهى أنثى طوال حياتها أو طوال شبابها، فكل شيء يدموها دوامًا إلى تذكر جنسها كي تحسن القيام بوظائفه.

يجب أن تتوفر لدى المرأة لتربية أولادها مزايا الصبر والحنان والهمة والعاطفة، فهي صلة الوصل بين الأطفال وأبيهم، وهي التي تجعله يحبهم، كم هو رائع ذلك الحنان وتلك الهمة التي تناط بالمرأة كي تربط الأسرة برباط الوحدة. ويتحتم أن يكون ذلك عن ميل وطبع لا عن خلق وفضيلة ذلك لأن الطبع بإلزامه هو الذي يحمي النوع البشري من الانقراض وليس ترك الأمر للاختيار.

وتخطيء المرأة حين تشتكي من غبن عدم المساواة في الوضع الذي وضعها فيه الرجل؛ لأن عدم المساواة هذا ليس نظامًا بشريًا أو وليد الأهواء بل هو وليد العقل.. فالجنس الذي اختصته الطبيعة ليكون مستودعًا للأطفال، مسئول عنهم أمام الجنس الآخر، وهو الذي يغمرهم بحبه وحنانه. والزوج الخائن الذي يحرم زوجته من ثمرة واجبات جنسها، رجل غاشم متوحش. أما المرأة الخائنة فجرمها أنكى؛ لأنها بخيانتها تحطم الأسرة وتقطع جميع روابط الطبيعة.. لأنها حين تعطي الرجل أطفالًا من غير صلبه، تخون أكثر من طرف وتقرن الخيانة بالخديعة.

وليس أمعن في البشاعة من موقف أب تعس محروم من الثقة في زوجته، فهو عاجز عن إطلاق العنان لعواطفه نحو بيته، يساوره الشك في انتسابهم إليه، فيكونون بمثابة الدليل على عرضه الملوث. ليس المهم أن

تكون المرأة أمينة فحسب، بل يجب أن يحكم زوجها بأمانتها وكذلك الناس.. ومن المهم أن تكون ذات حياء وتحفظ، ولئن كان من الجوهري أن يحب الرجل أطفاله، فمن الجوهري أيضًا أن يحترم أمهم. وهذه هي الأسباب التي تجعل مظهر المرأة موضع العناية، وتجعل سمعة الشرف لا تقل أهمية عن الطهارة. ويترتب على هذه المبادئ اختلاف أخلاق الجنسين، ويترتب كذلك حافز جديد للواجب والسلوك، يفرض على المرأة خصوصًا الحذر التام والتدقيق في السلوك والحركات. وحيث أنه ثبت أن الرجل والمرأة ما كان ينبغي لهما تكوين واحد، ولا خلق واحد، ولا مزاج واحد.. يترتب على ذلك أنه لا ينبغي لهما تربيةٌ واحدة.

وإذا اتبعنا توجيهات الطبيعة وجدنا أنه يجب أن يكون بين الرجل والمرأة توافق وتناسق، من غير أن تناط بهما أمور واحدة وأعمال واحدة.. وإن كانت الغاية من أعمالهما مشتركة، ولكن الأعمال نفسها متباينة، وبالتالي تكون الأذواق والطباع التي توجه تلك الأعمال متباينة.

لقد حاولنا أن نُكون الرجل الطبيعي في شخص «إميل» فلكي نتم عملنا، علينا أن نظهر كيف ينبغي أن تتكون أيضًا المرأة التي تلائم هذا الرجل.

عليك باتباع إرشادات الطبيعة إذا أردت حسن التوجيه وكل ما يتميز به الجنس يجب أن يكون موضع الاحترام باعتباره من مقررات الطبيعة.

إن جميع الملكات المشتركة بين الجنسين ليست موزعة بينهما على السواء، ولكنها تتكامل هنا وهناك.. فالمرأة أكمل في خصائص المرأة منها في خصائص الرجل وكلما حاولت سلب خصائصنا، تخلفت وراءنا فيها!

ويضر بالمرأة ضررًا بالغًا تنمية خواص الرجل لدى المرأة، وإهمال خواصها الأصلية. والماكرات من النساء لا يفوتهن هذا المغزى؛ فيجتهدن وهن يحاولن سلب مزايانا أن يحافظن على مزاياهن الأنثوية الخاصة.. فيُنقل هذا المجهود المزدوج عليهن لتباين الجانبين، فيتخلفن في الميدانين.

لا تجعلي أيتها الأم من ابنتك رجلًا؛ فإن هذا يكون بمثابة تكذيب للطبيعة التي خلقتها امرأة.. بل اجعليها امرأة صالحة أمينة، وثقي أنها ستكون بذلك أصلح لنفسها ولنا.

هل سيجعل منها الرجل خادمًا له أكثر من اتخاذه لها شريكة؟ هل سيحرم بالقرب منها من أعظم مناعم الصحبة والمشاركة؟ وهل سيتذرع الرجل بمنعها من كل إحساس ومن كل معرفة؟

كلا ولا هراء.. فما بهذا قالت الطبيعة حين أعطت النساء ذهنًا لماحًا مرنًا، بل أرادت الطبيعة بتلك المنحة عكس ذلك.. أرادت أن تفكر النساء، وأن يحسْن الحكم على الأمور، ويحببن، ويعرفن، وأن يجملن عقلهنّ كما يجملن ظاهرهن وهيئتهن. فهذا هو السلاح الذي منحته الطبيعة للنساء ليعوضهن عن القوة البدنية التي تنقصهن، ولكي يواجهن به قوتنا..

وينبغي أن تتعلم النساء أمورًا كثيرة، وكل ما هنالك أن يقتصر تعليمهن على تلك الأمور التي يليق بهن معرفتها. وسواء نظرت إلى غاية الجنس، أو إلى ميول الجنس، أو إلى واجبات المرأة، فكل ذلك يعين على إرشادي إلى صورة التربية التي تلائم المرأة.

لقد جعل كل من المرأة والرجل للآخر.. ولكن تبعيةكل منهما للآخر ليست متكافئة؛ فالرجال يتبعون النساء عن طريق رغباتهم. أما النساء فيتبعن الرجال عن طريقين: عن طريق رغباتهن وعن طريق حاجاتهن. فنحن الرجال أقرب إلى القدرة على البقاء بدونهن منهن على البقاء بدوننا فلكي يحصلن على الضروري للمعيشة وللمظهر الاجتماعي، يجب أن نعطيهم نحن هذا الضروري، وأن نراهن جديرات بذلك، وهن كذلك خاضعات لعواطفنا ولتقديرنا لمحاسنهن الجسدية وفضائلهن الخلقية.

شاء قانون الطبيعة أن تكون النساء تحت رحمة آراء الرجال، فلا يكفي أن يكن جميلات وحكيمات بل يجب أن يرقن لرجال، أما الرجل فلا يخضع إلا لذات نفسه!

وتكوين الأطفال يتوقف على حسن تكوين الأمهات؛ فعنايتهن هي أساس تربية الرجال، وعليهن تتوقف أخلاقهم وعواطفهم وأذواقهم وطباعهم ومسراتهم ولذاتهم وسعادتهم. وعلى ذلك فإن واجبات النساء هي إرضاء الرجال، وتحري محبتهم وتكريمهم ونفعهم، والتسرية عنهم، وتربيتهم صغارًا ورعايتهم كبارًا.

وهذا ما يجب تلقينه لهن منذ طفولتهن.. والفتيات الصغيرات يملْن إلى الزينة منذ حداثتهن، فلا يكفيهن أن يكن جميلات، بل يردن أن يجدهن الناس كذلك، ولذا يسهل توجيههن عن طريق إثارة اهتمامهن بما يقال عنهن. وأول تهذيب يجب أن يكون للجسم، فهو يعطي الرجل قوة واتساقًا، والمرأة قوة ورونقًا ورشاقة، فذلك يساعد كلا منهما على القيام بمهامه.

وإفراط المرأة في الرخاوة يسبب رخاوة الرجال؛ لأنه يجب أن يكون فيهن قوة تكفي لإنجاب رجال أقوياء. ولهذا فإن تربية الأديرة الخشنة والمدارس الداخلية تفضل تربية البيوت حيث النعومة والترف، مما يورث الرخاوة ويؤدي إلى الإنحلال.. حتى أن بنات إسبرطة تعلمن التمرينات العسكرية، لا للقتال ولكن لإنجاب رجال أقوياء. وكان بنات الإغريق يظهرن في المجامع العامة غير مختلطات بالفتيان، ومتى تزوجت الفتاة منهن، جعلت دنياها في بيتها وقصرت جهودها على تربية أولادها. وهذه هي الطريقة التي توحي بها الطبيعة والعقل في شئون الجنس، ولذلك كان نساء الإغريق في القمة حكمةً واتزانًا وخلقًا وجمالًا.

مما لا شك فيه أن الثياب المريحة لا تعوق حرية البدن وتتيح له التناسق.. فليس أخر للنساء من تلك المشدّات التي ترهق الأجساد التماسًا للرشاقة.. بيد أنه لا ضير فيها في بعض الأحيان عندما يكون الثدي متهدلًا أو البطن متضخمًا، لهذا يجب أن تكون أذواقنا مسايرة للطبيعة؛ فإن كل ما تناقضها ينمّ عن ذوق فاسد فالاهتمام بالصحة وهدوء الأعصاب والراحة يجب أن يكون لها المكان الأول، فلا رشاقة بغير صحة.. واعتلال الصحة يثير الشفقة أما الرغبة فلا تثيرها إلا النضارة والحيوية.

وألعاب التسلية عند الفتى تختلف عنها عند الفتاة.. فالفتى ينشد الحركة والضجة والأسلحة والمركبات، أما الفتاة فتنشد تسليتها في المرايا والحلي والشرائط والدمى، والأخيرة هي المفضلة عندها مما يدل على تأثير الغاية الجنسية وغريزة الأمومة عند الفتاة منذ حداثتها. والفتاة تزين

دميتها، لا شخصها؛ لأن تكوينها لم يتم ولم ينضج بعد، فهي تصرف كل خلاعتها وتبرجها إلى دميتها، انتظارًا للحظة التي تغدو فيها دمية نفسها، ولا يخفي ما في ذلك من فائدة، فتنمية الذوق عند الطفلة من هذا الطريق خدمة كبرى تستقبلها في قالب لهو.

وجُبلت الفتاة على حب إشغال الإبرة أكثر من حبها للقراءة أو الكتابة؛ لأنه يساعدها على إتقان التزين في مستقبل الأيام.. وللفتيات ميل إلى فن الرسم لأنه يتصل مباشرة بزينة الثياب والأناقة. والبداهة السديدة متساوية عند الجنسين، والفتيات أسلس قيادًا من الفتيان، لهذا ينبغي سياستهن بمزيد من السلطة من غير أن نطالبهن بشيء لا يقتنعن بمنفعته.

وأني وإن كنت أرى إجبار الفتى على تعلم القراءة فإنني أرى عدم إكراه الفتاة على ذلك قبل أن تحس هي بفائدتها. وما أكثر من يسئن استخدام تلك المعرفة.. أما تعلم الحساب فقد يكون ألزم للفتاة وأجدى عليها من القراءة والكتابة. وأحذر مشددًا من الفراغ للفتيات؛ لأنه أخطر الأخطار التي ينجم عنها أوخم العواقب.. لهذا أريد للفتاة أن تكون نشيطة لا تنتهي من عمل إلا لنبدأ غيره.

ويجب تعويد الفتاة منذ الصغر على تحمل الضيق والمتاعب وكبت النزوات، ففي ذلك ترويض لرغباتها حتى يتلاشى لديها جموح تلك الرغبات، ويمحي هذا الدلال الذي يفسد أخلاق النساء.. فالفتاة المدللة تعجز عن كبح جماح نفسها.. وهنا موطن الخطورة؛ فحياة المرأة الفاضلة حياة صراع متصل ضد نفسها.

ولا يدهشك أن أنصح بأن يكون السأم ممزوجًا باللهو في ألعابها، حتى لا ينقلب اللهو موضوعًا للشهوة؛ لأن المسرات المسموح بها للفتاة تكون فرصة لاندفاعها فيها مما يشكل أخلاقها وطبعها تشكيلًا جامحًا يؤثر في حياتها تأثيرًا خطيرًا.

ويجب كذلك وضع حد لتقلب ذوق الفتاة في ملاهيها؛ لأن هذا التقلب هو الأساس الأول لطباع الخفة والنزق، مما يعاب عليها عندما تصبح امرأة ويجعلها عرضة للشكوك والشبهات.. فيراعى تعويد الفتاة على تلقي الأمر بالكف عن ملهاة وهي في ذروة النشوة بها لننصرف إلى أخرى تختلف عنها من غير تردد أو تذمر.. وخليق أن ينجم عن هذا الضغط نوع من الدمائة اللازمة للمرأة أن تجعلها تخضع لرجلها.

والرقة أهم مزايا المرأة؛ لأنها خلقت لإطاعة كائن ناقص هو الرجل الذي كثيرًا ما يكون طافحًا بالرذائل حافلًا بالعيوب.. فيجب أن تتمرس على الخضوع للغبن والظلم، وكيف تتحمل أخطاء زوجها بغير تذمر. فمن أجلها أولًا، ومن أجلها هي لا من أجله يجب أن تُربى على الرقة والدمائة.

ومما لاشك فيه أن حدة الطبع والعناد في المرأة يزيدان على الدوام من شرور الأزواج وشذوذ طبعهم، بل ويتشبثهم بما هم فيه سادرون.. لأن الأزواج يشعرون له ما بهذا السلاح يكون قهرهم، ولا بهذا الأسلوب تكون سياستهم.

ما خلقت السماء المرأة ضعيفة كي تتحكم أو تطغى أو تستعلي، ولا خلقتها رقيقة الملامح كي تشوهها بالحدة أو بالغضب.. فعندما تغضب

المرأة فإنها تنسى نفسها، وقد يكون الحق في جانبها عندما تتذمر أو تشكو.. ولكن ذلك لا يعطيها الحق في اللوم والتقريع والخروج على قانون الطبيعة؛ فكل جنس ينبغي أن يحتفظ بالطابع الذي اختصته به الطبيعة.

إن الزوج الرقيق اللين أكثر مما يجب قد يجعل المرأة متبجحة، ولكن مهما يكن الزوج وحشًا ضاريًا أو فظًا طاغية؛ فإن رقة المرأة ودمائتها كفيلتان أن ترداه إلى سواء السبيل عاجلًا أو آجلًا.

المرأة والمكر

إذا كنا نريد للفتاة أن تكون على الدوام ممتثلة مطيعة خاضعة، فليس معنى ذلك أن تكون الأمهات خاليات دوامًا من الرحمة بهن.. إذ ليس من الضروري لترويض الفتاة على الامتثال أن نشقيها، وليس من الرحمة لكي نعلمها خفض الجناح أن نقسو عليها دائمًا.

ليس هذا من رأيي؛ فإني لا أمانع في أن ندع للفتاة فرصة الالتجاء إلى شيء من الحيلة، لا للروغان من العقاب حين تستحقه بشقها عصا الطاعة، بل للإفلات من واجب الطاعة. فليس الموضوع متعلقًا بتنفيرها من وضعها، وتنغيص إحساسها بالتبعية.. بل يكفي أن تجعلها تحس تبعيتها مجرد الإحساس وتروض نفسها عليها.

والمكر والحيلة من مواهب الجنس الطبيعية، ولاسيما جنس المرأة. وجميع الميول الطبيعية طيبة ومستقيمة، لهذا أرى أن تنمي موهبة الدهاء الطبيعية كما تنمي سائر المواهب الأخرى، ولكن بشرط الحذر من سوء استخدامها.

وإليكم مثلًا من الأمثلة التي تدل على الدهاء عند الفتاة، فمن الشائع أنه يحرم على الأطفال طلب شيء وهم على مائدة الطعام، والذي حدث أن الغلام الصقر ضاق ذرعًا بذلك وصرخ طالبًا النوع الذي حرم عليه، أما الفتاة فإنها عمدت إلى الحيلة دون أن تعرض نفسها للزجر أو

العقاب؛ فنظرت إلى الصنف الذي لم يقدم إليها والذي تحبه جدًا، وهي تشير بإصبعها إلى كل طبق مما أكلت منه حتى إذا وصلت اإلى الطبق المحرم أشارت إليه دون أن تتكلم، وعندئذٍ سألها أحدهم:

– ألم تأكلي من هذا؟

فغضت جفنيها في دلال وتنهدت قائلة:

– كلا للأسف..

حقًا إن هذا منتهى الدهاء في الوصول إلى الطلب من غير طلب ومن غير تعرض للعقاب.

إن هذه المهارة الخاصة المتاحة لجنس المرأة إنما هي تعويض عادل عن القوة التي حرمت منها، ومن دون هذه المهارة لا تصلح المرأة أن تكون شريكة للرجل، بل تغدو مجرد تابع له. وهي بهذا الدهاء تتمكن من حفظ مركزها ندًا له، بل وأكثر من ذلك تحكمه من حيث تطيعه.. إنها في وضع جائر، ترى نفسها في مواجهة أمور أناهضها منها عيوبها وخجلها وضعفها، ولهذا فسلاحها في حيلتها وجمالها. والجمال ليس حظًا مشاعًا بين النساء، وقد يذهب لسبب من الأسباب أو يذوي بفعل السنين، وعلى ذلك فالسلاح الفعال هو سعة الحيلة التي تساعد على تحسين ظروفها وسلوكها.

هذا ويضفي دهاء المرأة اللطيف سحرًا على حياتنا وعلاقتنا بها، كما أنها تستخدمه في حالات نزق الأطفال وكبح جماح الأزواج ذوي الفظاظة، والدهاء ميزة أساسية عند المرأة، ولولا حسن حيلتها وكياستها لتبدد شمل الأسرة.

وإن كان بعض النساء الخبيثات يستخدمن الدهاء لأغراض سيئة، فلا ينبغي أن ندمر هذا العامل الحيوي من عوامل السعادة خشية أن يستخدمه الخبثاء والأشرار للإساءة والإضرار.

وإن كانت زينة المرأة تلفت النظر وتبهره، إلا أن الشخصية في الواقع أقوى منها وهي التي تظفر بالإعجاب.. ولهذا ينبغي أن نكونها في الفتاة، ونفهمها أن المرأة تنشد الزينة لتستر عيوبًا فيها.

وولع المرأة بتبديل الأزياء من فساد الذوق، لأن الوجوه لا تتغير بتغيرها، وما يلائم الوجه مرةً خليق أن يلائمه على الدوام.

وإنه لتأخذني الدهشة للمرأة التي تعيش في زينة متبرجة تخفي بها قوامها؛ فأحكم عليها بأنها عاطلة من الجمال، فلو أنها كانت جد جميلة لما عانت كل هذه المشقة. وإن كان هناك وجوه تحتاج إلى التزين؛ فإن ذلك لا يبرر المبالغة والبذخ فيه. والمرأة التي تقضي الساعات الطوال في إخفاء معالم وجهها بذلك الذي يسمونه تزين لا يمكن أن تبدو أجمل من أختها التي لا تنفق في زينتها أكثر من نصف ساعة.

وعندي أن العلاج الشافي هو أن نربي المرأة تربية صالحة بحيث نطبعها على حب مهام جنسها، والإشراف على بيتها، والتسلي بأعمال التدبير وفنون البيت والأولاد والأسرة.. فعندئذٍ سوف تنهار عادة التبرج الذميمة، وتغدو المرأة أبهى منظرًا وأرقى ذوقًا.

والفتاة حين تشب عن الطوق تدرك أن الجمال لا يكتسب حسب

المشيئة، وليس بوسعها التفنن في التبرج.. لهذا تعمد إلى حركات خاصة مميزة، كرنة معينة في الصوت أو خطوة معينة في المشية لإبراز محاسنها أو مفاتنها بقصد اجتذاب الأنظار.

واتباع سياسة التزمت مع الفتاة تنجم عنه أضرار بالغة، وكم أخشى أن الصغيرة التي نرغمها على قضاء حداثتها سجينة في صومعة للتزمت سوف تقضي شبابها في عكس ذلك، وتعوض بالإباحية ما فاتها بالتزمت.. ولهذا يجب أن تستمتع الفتاة بحياتها تبعًا لسنها.

إن الذوق يتكون بالموهبة والاجتهاد، وبالذوق يتفتح الذهن لاشعوريًا لمعاني الجمال بكافة أنواعه، ثم للمعاني الأخلاقية التي ترتبط به، ولعل هذا في جملة الأسباب التي تجعل إحساسات اللياقة والشرف تتأصل لدى الفتيات في سن مبكرة عن تأصلها لدى الفتيان.

وموهبة الكلام تحتل المكان الأول بين فنون الإعجاب، وبالكلام يمكن إضافة سحر جديد إلى سحر الحواس؛ لأن تتابع الإحساسات والأفكار في الذهن يبعث الحيوية في الوجه عند التعبير عنها. والفتيات أسرع إلى تعلم الكلام من الفتيان وأشد منهم طلاقة وذلاقة لسان، وللفم والعين وظيفة واحدة عند الفتاة، وهي تتوخى التأثير بكلامها وليس الإقناع.

ومن الملاحظ أن آداب الرجال أقرب إلى الجد والرسميات، بينما آداب النساء أقرب إلى الرهافة والرقة والنعومة واللطف، وهذا الاختلاف ليس نتيجة العرف بل هو وليد الطبيعة؛ فالرجل حين يجامل ينشد أن يقدم لك خدمة، أما المرأة فإنها حين تجامل فإنها تنشد أن تسرك.

ولهذا فإنه مهما يكن من أمر طبائع النساء، فإن تهذيبهن أقل غشًا من تهذيبنا؛ لأن تهذيب المرأة ليس إلا بسطًا لغريزتها الأولى. وحين يزعم رجل أنه يفضل مصلحتي على مصلحته، فمهما موه تلك الأكذوبة؛ فإننى سأدرك أنه يكذب عليّ فيما بزعمه. والدرس الأول في تهذيب الفتاة يأتيها من الطبيعة، أما الاكتساب فلا يأتي إلا سندًا للطبيعة وتوجيهًا لنبوغها الأصلي في مجاري العرف والعادات الاجتماعية.

وحين تخلو النساء إلى أنفسهن، ترتد مجاملاتهن فاترة محفوفة بالنفور، ولا يكدن يخفين ضيقهن ببعضهن البعض. بيد أن الفتيات كثيرًا ما تنعقد بينهن صداقات أشد صراحة وإخلاصًا، ويربط بينهن اللهو البريء والمرح الصادق.

وإن كان الطفل في السؤال محرمًا على الفتيان، فهو من باب أولى محرم على الفتيات، ولا سيما أنهن أشد فطنة إلى مواطن الأسرار التي نخفيها عنهن. ومع ذلك يجب أن نعلمهن إتقان فن الحديث لكي يتجنبن المواطن الشائكة، فهذا سر رشاقة الحديث ولباقته.

وعقلية النساء عقلية عملية تتيح لهن الوصول إلى هدفين المحدد ببراعة، ولكن هذه العقلية تعجز عن تحديد ذلك الهدف لنفسها. ومن حسن الطالع أن العلاقة الاجتماعية بين الجنسين تكمل هذا النقص؛ فيخرج لنا من المجتمع شخص أخلاقي، المرأة منه بمثابة العين والرجل منه بمثابة الذراع، وكل منهما مرتبط بالآخر، بحيث تتعلم المرأة من الرجل ماذا ينبغى أن تراه، ويتعلم الرجل من المرأة ماذا ينبغي أن يفعل.

ولو أن المرأة استطاعت أن تصعد كالرجل إلى المبادئ في يسر، ولو أن الرجل استطاع أن يصل كالمرأة إلى الدقائق والتفاصيل، لما عاش الاثنان في توافق تام. ولما استطاعت شركتهما أن تصمد على الزمن. أما وهذا التوافق التكاملي قائم وسائد، فكل منهما يكمل نقص الآخر، ومن ثم يحتاج إلى الآخر.

وإذا جعلنا قانون المرأة الأوحد هو العرف العام؛ فإننا نبخسها قدرها، وبالتالي ننقص من قيمة ذلك الجنس الذي يحكمنا ويسوسنا.

وهناك قانون أساسي لدى النوع البشري بأسره سابق على العرف، ويجب أن تخضع له جميع القواعد لأنها تتفرع منه، فله السيادة على العرف نفسه. ومالم يتفق رأي الرجال مع ذلك القانون، لايكون لرأيهم أي قيمة أوسلطان علينا وعلى المرأة.

وهذا القانون الأعلى هو الإحساس الداخلي.. وتكون تربية المرأة شوهاء مالم يسيطر عليها هذا القانون إلى جانب احترام العرف العام وآراء الرجال خاصة.

وإذا نمى الإحساس الداخلي لدى المرأة دون مراعاة للعرف، شبت خالية من رقة الروح التي تزدان بها الأخلاق الفاضلة في المجتمع. أما سيطرة العرف من غير إحساس داخلي لدى المرأة فإنها تجعل منها امرأة فاسدة غير فاضلة، ومنافقة تستعيض عن الفضيلة الحقيقية بالمظهر المموه.

وبناءً على ذلك ينبغي أن يكون لدى المرأة حاسة خاصة توفق بين

القانونين، قانون الإحساس الداخلي وقانون العرف العام؛ لأن ضميرها عندئذٍ لايضل، وتقوم من أخطاء العرف التي يقع فيها أحيانًا. وهذه الحاسة الخاصة في العقل، وما أكثر المشكلات التي تثار حول عقل المرأة، أهي قادرة على التفكير المنطقي والمناقشة العقلية؟ وهل من الواجب تثقيفها عقليًا؟ وهل تفسد الثقافة العقلية ماينبغي للمرأة من بساطة؟

يرى البعض أن تقتصر أعمال المرأة على الحياكة وأعمال البيت، فكأنها رئيسة خدم في بيت مولاها الزوج.. والبعض يهيل عليها حقوقها وحقوق الرجل معًا، وبذلك تستولي على الأفضلية التي منحتها الطبيعة للزوج.

إن العقل الذي يدير دفة الرجل ليس شديد التعقيد، والعقل الذي يوجه المرأة إلى معرفة واجباتها أكثر بساطة. فالطاعة والوفاء اللذان تدين بهما لزوجها، والحنان والعناية بأولادها إنما هي نتائج طبيعية ومعقولة لحالتها التي لا تستطيع انكارها أمام إحساسها الداخلي الذي يسوسها.

وأنا أوافق على أن تقتصر المرأة على أعمال جنسها، وأن تجهل وتنأى عن كل ما عداها. وفي هذه الحالة يجب أن تكون ساذجة وسليمة البنية ومتخلفة في طريقة معيشتها. بيد أنه من السهل جدًا غواية مثل هذه المرأة في المدن وسط من فسدت أخلاقهم.. إن معرفتها لأحوال الدنيا أحفظ لها من شرور الرجال وألاعيب الغواية؛ لأنها لن تخدع بمعسول الأقوال. والمرأة مع خضوعها لأحكام الرجال جديرة بتقديرهم، وعلى الأخص تقدير زوجها، وينبغي أن تبرر أمام الناس اختياره لها، ولا يخفى ما في ذلك من تكريم وتشريف للزوج يضفي في الوقت نفسه عليها.

ولا أدري كيف يمكن للمرأة أن تنهض بأعبائها، وهي جاهلة بالنظم والتقاليد والعرف ومجريات الأحوال، والمبادئ التي تقوم عليها آراء البشر، والعواطف التي تسيطر على تلك الآراء.

وبما أنها خاضعة لضميرها الشخصي ولآراء سواها، لذا يجب عليها أن تقارن بين هذين القانونين وأن توفق بينهما، ولا تغلب قانون الضمير على قانون العرف إلا حينما يتعارضان تعارضًا لا حيلة فيه.

إنها في هذه الحالة تغدو قاضية لقضاتها؛ لأنها هي التي تقرر متى ينبغي أن تخضع لهم، ومتي ينبغي أن ترد سلطانهم. وقبل أن ترفض العرف يجب أن تزن الموضوع وتراجعه، عسى أن تجد لها مخرجًا من العصيان ومندوحة من المخالفة التي تجلب ملام الناس.. ولا يتسنى لها ذلك من غير ثقافة الروح وثقافة العقل.

ويجب أن تكون دراسات الفتاة متصلة بالعمل مباشرة، وليس عن طريق آراء مجردة وصيغ علمية؛ لأن مجالها تطبيق المبادئ التي يكتشفها الرجال وتجميع المشاهدات والفطنة إلى الملاحظات. ويجب أن تدرس النساء طباع الرجال ونفسياتهم والمعلومات الخاصة بفنون التحبب والامتاع.. فهن ميسرات بطبعهن وذوقهن لذلك.

والمرأة ضعيفة بطبعها، وعواطف الرجال تكسبها قوة. والحيلة وسيلتها للحصول على ضرورياتها ولكل ما يجلب سرورها؛ لهذا يتحتهم عليها دراسة نفسية الرجل الذي تخضع له بحكم القانون أو بحكم العرف، دراسة تشمل الرجال على الإطلاق والرجال المحيطين بها، لتستشف

نفسيتهم من أقوالهم وأفعالهم ونظراتهم وحركاتهم وإشاراتهم وإيماءاتهم، ويجب أن تكون أقوالها وأفعالها ونظراتها وحركاتها قادرة على تحريكهم لفعل ما تريده منهم دون إن يفطنوا إلى ذلك.

والرجل أكثر من المرأة عبقرية، ولكنها أشد منه فطنة... إنها تلاحظ، أما هو فيفكر، ومن تكامل ذلك ينتج الذهن البشري أكمل العلوم.

والدنيا للمرأة كتاب إن أساءت استعماله لنقص فيها، أو لهوى يعميها، فالذنب ذنبها. والأم المثالية ليست في أن تكون سيدة مجتمع، بل هي من تشبه في عزلتها الراهبة التقية المتبتلة في صومعتها.

وعلى الأمهات أن يهذبن نفوس بناتهن منذ صغرهن، وأن يؤسسن أخلاقهن على الطهر والصدق والشرف، وأن يطلعوهن على حقيقة متعة الدنيا حتى لا يتهافتن عليها بعد الزواج تهافت المحروم؛ فيندفعن وينزلقن. والمرأة كي تحب حياة المنزل الهادئة يجب أن تكون عرفتها واستطابت طعمها وهي فتاة في بيت أبيها والفتاة التي لم تذق السعادة في كنف أمها هيهات أن تسعد أطفالها.

وهناك لغة يستعملها المتزمتون في مخاطبة الفتيات في شئون الحياة والشباب والنزعات الطبيعية للجنس، وهي لغة طنانة تملأ آذانهن من غير أن تصل إلى إقناعهن؛ فيقعن فريسة لأول مبتذل يحاول إغراءهن. أما الفتاة التي ربيت تربية قويمة؛ فإنها تملك أسلحة ضد الغواية.. لهذا أرى أنه إن لم تكن المواعظ مقرونة بالحجج الدامغة، فلا جدوى منها. ويمكن أن يتأتى ذلك بإبراز العفة والطهر بأن يصور للفتاة الرجل الفاضل الذي تحلم

أن يكون لها زوجًا وحبيبًا، وإن هذا الرجل لن يقدّر إلا الفتاة الطاهرة العفيفة، وإن الجمال الجسدي وحده لا يكفي لكسب قلب الرجل واحترامه وإن كان كافيًا لتحريك شهوته وإثارة نزوته؛ فبهذا تحب الفتاة العفة وتحترم نفسها وتحتقر الرذيلة والتبذل والاستهتار.

على هذا النهج، وبهذه الروح، ينبغي إن تُربى «صوفي» تربية فيها من العناية أكثر مما فيها من العناء، ومن السعادة أكثر مما فيها من التزمت.. والآن أنتقل إلى شخص «صوفي »، الزوجة التي تسعد «أميل».

صوفي

إنني لا أتحدث هنا عن النوابغ، فليس «أميل» نابغة وليست «صوفي» كذلك نابغة.. فهو رجل كسائر الرجال وكذلك هي امرأة كسائر النساء، وحسبهما هذا تيهًا ومفخرة. ففي هذا الموقف الذي اختلطت فيه مميزات الجنس للرجل العادي والمرأة العادية، يكاد يكون من عداد النابغين الأفذاذ من يحافظ على خاصة جنسه، ويسير في الحياة قدمًا لا يتأثر ولا يتعثر.

و«صوفي» من بيت عريق، طيبة الفطرة جميلة السجية، ذات قلب مرهف شديد الحساسية، وذهنها ثاقب وتفكيرها عميق أكثر مما هو دقيق. أما مزاجها فلطيف، وإن كان غريب الأطوار، وخلقتها ناعمة وادعة فوجهها ينم عن روح، لا تعرف الكذب قط. يتصل بها المرء في مناسبة عابرة، فلا يفارقها من غير أن يتأثر.

وقد تكون عاطلة من مزايا يتمتع بها كثيرات غيرها.. وقد تتوفر عند غيرها مزايا أكثر مما عندها، ولكن ما من واحدة أخرى تتسق أشتات المزايا عندها بالشكل الذي تحظى به «صوفي» والذي يدل على طبع موفق سعيد؛ فإنها تعرف كيف تستفيد من عيوبها، فلو كانت أكمل مما هي لكانت أقل حظوة لدى الناس.

وليست «صوفي» جميلة، بيد أن جلساءها ينسون في محضرها باهرات الجمال، وجميلات النساء في محضرها لايرضين عن أنفسهن!

إنها لا تكاد تبدو للرائي جميلة لأول وهلة، ولكنها تزداد جمالًا بتكرار النظر إليها، فهي الفائزة بالإعجاب دون غيرها، ومن يراها مرة لا ينكر جمالها بعد ذلك إطلاقًا.

قد يصادف المرء عينين أجمل من عينيها، وفمًا أدق من فمها، ووجهًا أبهى وأروع من وجهها.. ولكنها تنفرد بقامة جميلة من العسير أن تنفق لغيرها، ويندر أن تكون لغيرها بشرة أجمل من بشرتها، ويد أشد بياضًا من يدها، وقدم أدق من قدمها، ونظرة أعذب وأرق من نظرتها، وتقاطيع وجه أبعد تأثيراً مما عندها.. فهى تؤثر من غير أن تبهر، فتسحر حيث لا يدري المسحور ماذا سحره!

و«صوفي» تغرم بالزينة والأناقة وهي خبيرة بفنونهما ولها رصيد كبير من الذوق، ترفض الملابس المرسلة غير المنسقة فملابسها تجتمع فيها البساطة والأناقة، وهي لا تحب مايبهر أو يلفت النظر بل مايعجب ويريح، تعرف أفضل الألوان التي تناسبها.. فهي في ملبسها أبسط تكلفًا وأكثر اتساقًا.

و«صوفي» ذات حياء في ملبسها، بيد أنها متبرجة في الوقت نفسه.. إنها لا تُبدي مفاتنها ولا تكشف عنها بل تسترها، ولكن بصورة تساعد المخيلة على إبداع تصورها.. وكأنها تستشف من داخل ملابسها مفاتنها ومحاسنها؛ فيخيل إلى الناظر أنه يراها رأي العين!

وتتمتع «صوفي» بمواهب طبيعية، تشعر بها ولا تهمل أمرها.. بيد أنها لم تستطع تنميتها كما ينبغي؛ فقد اكتفت بتدريب صوتها على الغناء بشكل ينم عن ذوق جميل، وتدريب قدميها الدقيقتين على المشي في خفة

ورشاقة. وأخذت «صوفي» نفسها على الانحناء بأدب في كافة المواقف من غير تحرج أو اضطراب.. وكان والدها أُستاذها في الغناء ووالدتها أُستاذتها في الرقص، وقام بتلقينها مبادئ العزف جارٌ كريم، فنمت حساسيتها وعشقت الموسيقى بدافع من الذوق.

وحرص ذووها على تعليمها الفنون النسوية فحذقتها، فلم يكن هناك من فنونها ما لم تحذقه، وكانت المحرمات أحبها إلى نفسها.. كما كانت ماهرة في كافة أعمال المنزل من طهو وتدبير، دقيقة في ضبط الحساب. فهي مديرة ممتازة، ومثال نموذجي لربة بيت.. لأنها ستعرف كيف تدير بيتها؛ أي بيت زوجها.

و«صوفي» تخفف عن أمها جانبًا من أعبائها، بيد أنها لم تكن تقوم بجميع الأعمال بدرجة واحدة من السرور؛ لأنها كانت من حيث ما يمس النظافة شديدة الحساسة.. وهي لهذا كانت لا تميل إلى مراقبة البستاني لأن الأرض تبدو لها شيئًا قذراً ورائحة السماد تزعجها. وأمها هي التي غرست فيها حساسيتها نحو النظافة والبعد عن كل ما هو قذر، فليس أبعث على التقزز من منظر امرأة قذرة.. فكان لهذا التشديد أثره في الفتاة وكان فزعها من القذارة غريزيًا وصار كل همها المحافظة على النظافة.. فهي في جملتها تتصف بالنقاء والطهر، كما تتصف بالنظافة وطيب العرف.

وثابت «صوفي» إلى الاعتدال في الأكل بعد أن أدركت أضرار النهم، وكانت من قبل تتسلل إلى مخزن الطعام ولا تخرج بيدها فارغة، وتتسلل إلى حجرة أمها فتختلس كميات من الحلوى إلى أن ضبطتها أمها

وعاقبتها بالصوم وأقنعتها أن الحلوى تفسد الأسنان وتفقد الخصر رقته والقوام رشاقته.. ومما هو جدير بالذكر أنها لم تذق في حياتها كلها طعم النبيذ أو الخمور.

وتتمتع «صوفي» بقريحة صافية وإن لم تكن وقّادة، وتفكيرها سليم وإن لم يكن عميقًا.. وهي تحرص على ألا تنتابها النزوات أو تغيرات المزاج، ولكنها على درجة من الحساسية لا تمكنها من الاحتفاظ باعتدال المزاج دون أن يتغير. وحين يتعكر صفوها لا ينصب ذلك على أحد سواها، فقلبها يدمي حين تسمع كلمة تؤلمها دون أن تقطب جبينها؛ فتبادر بالانزواء وتذرف الدمع، وسرعان ما تنسى كربها لو ناداها أبوها أوأمها أثناء نوبة بكاء وترضاها؛ فتقبل على الضحك واللعب. وإذا عوقبت على خطأ أذعنت ولم تتمرد، وركبها الخزي لا من العقاب بل من الخطأ. كما أنها مستعدة لطلب الصفح حتى من خادم تكون قد ارتكبت خطأ في حقه، فلا تجد في ذلك غضاضة. بيد أنها تتحمل خطأ الناس في حقها بجلد، ولا ترد الإساءة بالإساءة.. فهي ذات سماحة. وهذه هي فطرة المرأة الأصيلة قبل أن نفسدها بمظالمنا؛ فالمرأة خلقت لتخضع للرجل وتتحمل منه أخطاءه وجوره.

وقد عودها والداها منذ حداثتها على الخشوع والإجلال لهما. و«صوفي» شغوفة بالفضيلة، وتعتقد أنه ليس في الحياة ماهو أجمل وأسمى منها لأنها تاج المرأة ومجدها ولأن المرأة الفاضلة صِنْو الملائكة.. وهى تحبها لأنها الطريق الوحيد إلى السعادة الحقيقية. والمرأة الساقطة لا تجني سوى الشقاء والعناء.. فلهذا أقسمت على الاستمساك بأهداب الفضيلة.

واكتملت تربية «صوفي» بمعرفتها نفسية الرجال وعيوبهم، وكذلك رذائل النساء.. إذ يجب على المرأة أن تعرف أن الزوج مخلوق ناقص لتوطن نفسها على معاشرته وسياسته. والنساء قادرات على الحكم على الرجال بسبب استعدادهن الطبيعي.

و«صوفي» تعرف أن النساء يهوين الغيبة والنميمة ولكنها لا تذكر أحدًا إلا بالخير ولاسيما النساء. والنساء لا يظلمن إلا عندما يتحدثن عن بنات جنسهن، أما رأيهن في الرجال ففي أغلب الأحوال نزيه لتجرده من الغرض.

وهي لطيفة اللقاء رغم ندرة ارتيادها للمجتمعات، مهذبة تهذيبًا عميقًا ورشيقة في كل ما تصنعه، تكره ألفاظ المجاملة التافهة ولا تبالغ في التحيات أو التشكرات وكلمة الشكر اليسيرة منها تزخر بحرارة الصدق وسحر اللطف.

وهي في مجالسها محافظة على الصمت والاحترام مع النساء والرجال المتزوجين وكل من هم أكبر منها سنًا. وتعرف سلفًا حقوق السن فلا تتقدم أحدًا يكبرها؛ لأنها تعلم أن السن المتقدمة توحي بالحكمة، والحكمة واجبة التوقير.

أما مع الشباب من أقرانها وأترابها فالأمر مختلف.. فمن كان منهم محتشمًا في تواضع، فهي معه لطيفة متبسطة ترفع التكليف، واجتماعاتها معهم يسودها المرح البريء. أما من كان منهم جادًا أو جامدًا؛ فإنها تخالطه في حدود معينة، ومن أروع خصالها أنها لا تقبل ولا تسمح بالخوض في

نواحي الغزل المألوفة.. فإن حدث أن فاتحها شاب جميل وإطراء محاسنها على عادة الشبان؛ فإنها قمينة أن تقاطعه في أدب قائلة:

– سيدي.. أخشى أن أكون ذات دراية بهذه الأمور خيرًا منك؛ فإن لم يكن هناك موضوع أطرف من هذا نخوض فيه، فإنى أعتقد أن من الأفضل الاكتفاء من مقابلتنا بهذا القدر.

ثم تنحني في تحية بالغة، وتبتعد على الفور، ذلك لأنها لا تستريح إلى المدح أوالإطراء الذي يستخدم فخًا للفتيات.

و«صوفي» في الخامسة عشرة من عمرها، ولكن نضوج تفكيرها يجعلها في حكم ابنة العشرين.. لهذا بصرها والداها بواجبات الشباب التي ينبغي أن تدركها الفتاة في هذه المرحلة من العمر، ولعلهما قالا لها في معرض الكلام:

– ها أنتِ ذي قد غدوت شابة يا «صوفي».. ونحن نريد لك السعادة، نبتغيها لك لا لنا، فسعادتك هي سعادتنا، وسعادة الفتاة الشريفة في أن تُسعدَ رجلًا شريفًا فيجب التفكير في أمر زواجك في وقتٍ مبكر، فمصير الحياة يتوقف على الزواج، وما أصعب اختيار الزوج الصالح، ولكن اختيار الزوجة الصالحة أشدُّ صعوبة. وستكونين يا «صوفي» نموذجًا للزوجة الفاضلة، فيكون في ذلك فخر حياتنا وسعادة أيام شيخوختنا. وستجدين رجلًا صِنْوًا لك في المزايا، يشرفه ويسعده الحصول على يدك. بيد أن هناك كثيرين يشرفونك أكثر مما تشرفينهم، ومن بين هؤلاء يجب اختيار واحد يناسبك، نوفق إلى معرفته ثم نعرفك به. واعلمى

يا ابنتي أنك على عقلك الراجح وسلاحك واستقامتك وتقواك وتحليك بجميع مواهب المرأة الشريفة الفاضلة، فتاة فقيرة.. ولكن عرض الدنيا عرضه للضياع، أما رصيدك من الفضائل فلا يمكن أن يضيع، وجدير بالذكر أن أنصحك ألا تتزوجي رجلًا أرقى منك مكانة.. بل تدخلين في أسرة تجد في مصاهرتك شرفًا لها. ولا أعني أن تتزوجي رجلًا ساقط القيمة، بل يجب أن يكون موهوبًا متصفًا بالكثير من المزايا جديرًا باحترامك واحترام الناس.

وجدير بأن تكون ل «صوفي» حرية الرأي والاختيار، فهي مطبوعة على الحرية، ولذا ستتوخى الدقة في اختيار «سيدها» الذي تتنازل له عن حريتها عن طواعية!

وتنفيذًا للفكرة، واستجابةً لرغبة الوالدين، تقوم عمة لها أو خالة بتقديم «صوفي» للأسرات الكريمة، وتصحبها إلى المجتمعات والحفلات، كي يراها الناس. وهي بجمالها وذوقها وبساطتها تسحر الأفئدة وتجتذب القلوب، فيتهافت الشبان على معرفتها.. بيد أنها بعد حديث أو حديثين، تشعر بالنفور منهم لأنهم لا يوافقون هواها أو لأنها وجدت فيهم ما يتعارض مع مزاياها.

وتمضي الأيام التي لا تتوقف عجلتها، وتظهر على«صوفي» أعراض الشرود والهزال، فتضطرب أمها، وتقبل عليها حانية تسألها ماذا بها وما خطبها، وبعد مراوغة سببها الخجل تعترف «صوفي» لأمها بحقيقة متاعبها:

– يا لتعاستي ياأماه.. ما أشقاني.. أشعر بالحنين إلى الحب، ولا أرى شيئًا يسليني عن هذا الشعور، وقلبي ينفر من جميع من يجتذبون مشاعري وحواسي.. أجل ما من واحد ممن رأيتهم إلا وأثار رغباتي. ولكني لم أرَ منهم واحدًا جديرًا باحترامي.. ورغبة بلا احترام لا يمكن أن تتقبلها الحياة.

وصدقت «صوفي» فيما قالت، فليس ما يلزمها رجل أيًّا كان، بل يلزمها رجل معين تحس صورته في قلبها، ولا تستطيع أن تحب أحدًا سواه. إنها تفضل الهزال والعناء، بل الموت والشقاء، على الحياة مع رجل لا تستشعر له الحب في أعماقها، فمثل هذا يشقيها ولا تسعده.

وتأخذ الحيرة الأم، وتضبطها ذات يوم تبكي وعلى صدرها كتاب.. فتتناول الأم الكتاب وتتصفحه، فإذا به مغامرات «تليماك» ولا تفهم الأم السر في أول الأمر، وبعد أخذ ورد ومراوغات ومناورات تدرك أن ابنتها تعشق الفتى «تليماك» بطل القصة عشقًا ملك عليها حواسها، ولا شفاء لها منه.. فتضحك أمها، ويضحك أبوها، من هذا الحب الخيالي، وظنًا أن بوسعهما صرفها عن ذلك الحب بالحيلة والإقناع، بيد أنهما لم يلبثا أن اكتشفا صواب ذلك، وقد سطعت أمامهما الحقيقة ناصعة الوضوح، فالفتاة متمسكة بحبها تتعبد في محرابه تهيم بحبيبها وترفض أن تحول أنظارها إلى أحد من بنى آدم الأحياء، وحجتها في ذلك:

– إن كان هناك من سمت مزاياه إلى درجة الكمال مثله، فإليّ به وأنا على استعداد للزواج منه، وبغير ذلك أعذروني ولا تلوموني.. لست مخبولة كما قد يتبادر إلى أذهانكم، بل إنني شقية عاثرة الحظ.. هل يمكن أن

يخضع القلب للإرادة؟ ما ذنبي إن أحببت رجلًا لا وجود له؟ ليس في ذلك مغالاة.. لست متطرفة في مطامحي فأتزوج من أمير، ولا أطمع في الزواج من «تليماك» فإنه مجرد صورة خيالية. ولكني أبحث عن شبيهٍ له، فهل يتعذر العثور على ذلك الشبيه؟ إنني أشعر أن قلبى صِنْو لقلب «تليماك».. إنني لا أسيئ الظن بالبشرية، فهي لم تعقم، وليست الفضائل الإنسانية السامية محض أوهام أو وليدة خيال، فلا شك أن صاحب تلك الفضائل حي موجود. ولعله يبحث عني الآن، يبحث عمن تعرف كيف تحبه وتسعده، ولكني لا أدري من هو ولا أين هو؟ والذي أعلمه أنه ليس واحدًا ممن رأيتهم. وأغلب الظن أنه لن يكون من بين من سأراهم.. أواه يا أماه.. لماذا أوغلت في غرس حب الفضيلة في قلبي هكذا؟ إنه ذنبك وليس ذنبي إن كان ذنبًا لأحد، إنني لا أستطيع أن أحب سوى الفضيلة.

سبق أن كررت القول أنه لا يليق بالرجل أن يتزوج من طبقة تعلو طبقته، بل ممن هم دونه قليلًا أو في مستواه، والمهم مراعاة الكفاءة من حيث الثقافة العقلية؛ فإن المرأة الجاهلة السقيمة الفكر لا تصلح زوجة لرجل ذي عقل وفطنة ولا تصلح أمًا لأطفاله، ولست أريد في المرأة نبوغًا يجعل لها مجداً شخصيًا يغنيها عن التماس الفخر في انتسابها إلى زوجها.

والشكل أول ما يهتم به الرجال، مع أنه آخر ماينبغي الاهتمام به.. فحريّ بالرجل العاقل البعيد النظر أن يهرب من الجمال المفرط إذا كان ينشد زواجًا مستقرًا؛ لأن قيمة ذلك الجمال عند جدته، وبمضي الوقت يفقد تأثيره في مالكه، ولكن أخطاره تبقى ما بقيت صاحبته!

ويخطئ من يقول أن زوج الحسناء الفاتنة سعيد، فالواقع أن الجمال المفرط سيخلق له المتاعب والهواجس والأعداء. ولهذا فإن خير ما أوصي به هو الشكل الوسط المقبول؛ أي الجمال الهادئ الذي لا يثير الرغبة بل الطمأنينة.

وهذا ما أنشده في «صوفي» التي تربت على الطبيعة كما تربى «أميل»، فهي مخلوقة له أكثر من أي امرأة أخرى، وهى ند له في كل مزاياه وفضائله..إنها لا تسحر الناظر لأول وهلة، ولكن سحرها يزداد على مر الأيام وينبلج بالمعاشرة والمخالطة، فيستشعره الزوج أكثر مما شعر به سائر الناس.

ولم تكن «صوفي» مفرطة في الدرس، فقد حبتها الطبيعة ذوقًا يغنيها عن التعمق، ومواهب بغير صقل وسداد رأي بغير معرفة واسعة.

إنها أرض خصبة لا ينقصها إلا البذرة الصالحة كي تنبت نباتًا حسنًا، وسعيد من سيتولى تثقيفها بعد الزواج، فستكون تلميذته لا أستاذة له، تتشكل بذوقه وطباعه.

اللقاء

رحلنا عن باريس بعد أن أفعمت نفس «أميل» بالسأم، وبعد أن قطع الامل في العثور على ضالته في تلك المدينة.. فألقينا بأنفسنا وسط الحقول نسير فيها على هوانا، نسرع وقتما نشاء، ونتمهل إذا أدركنا التعب، وكان مزاج «أميل» معتدلًا لا تستبد به لهفة أو تأكله رغبة. ولم يكن همنا من السفر أن نكون فيه على عجل، ولم نكن كالمسافرين في مركبات تعلو وجوههم الكآبة، بل كنا نستمتع بالهواء الطلق وقد أحاطت بنا مناظر الطبيعة الساحرة. ولم يكن «أميل» يسافر في عربة البريد إلا إذا كان على عجل من أمره، أما الآن فكل ما تهفو إليه نفسه هو الاستمتاع بالحياة.

وأنا أفضل السير على الأقدام؛ فإن في وسع المرء أن يرحل وقتما يشاء، وأن يتوقف عن السير عندما يريد، وأن يجتلي مناظر الطبيعة وأفانينها، يروق له أن يسير على أحد الشواطئ أو يستظل في غابة. وأعتقد أن ذلك من رأي الفلاسفة؛ إذ يروق فيه اجتلاء محاسن الطبيعة والتعرف على كنوزها.

وفي هذه الوسيلة تجتمع أروع المتعات، فضلًا عما تضفيه على الصحة من حيوية ونضارة، وعلى المزاج من بهجة، وعلى الرحلة من مرح.. يقبل بعدها المرء على الطعام في لهفة واستمتاع، وعلى النوم في نهم وإشباع.

واستهوتنا مناظر الوديان ومنعرجات الجبال بعد بضعة أيام، وتوغلنا في المسير إلى أن فقدنا معالم الطريق وعجزنا عن العودة، ولكننا لم نفزع.. فأي سبيل في نظرنا جميل ما دام أنه ينتهي بنا إلى خير. ورأينا رجلًا صحبنا إلى كوخه حيث أكلنا بشهية ما قدمه إلينا من طعام. وكان واضحًا أن التعب قد نال منّا وكذلك الجوع؛ وإذ لاحظ الرجل ذلك قال لنا:

– لو أنّكما بلغتما السفح الآخر من هذا التل، لوجدتما نعمًا أكثر عند أصحاب الدار التي هناك فهم من أهل السخاء، شيمتهم الطيبة، وعلى كل حال سوف تجدان أنهم أيسر مني حالًا.. ويُعرف عنهم أنهم كانوا على ثراء فيما مضى.

وهفا قلب «أميل» لسماع ذلك، فقال وهو يرنو لي بنظرة ذات مغزى:

– لنجعل تلك الدار قبلتنا يا صاحبي، ويكفي مايشهد به الناس لأهلها، إنه ليبهجني أن أراهم وربما لاتضايقهم رؤيتهم لنا، وأغلب الظن أنهم سيكرموننا.

وعلى ضوء إرشادات الرجل يممنا شطر الدار مخترقين الغابات، وفاجأتنا الأمطار فإضطرتنا إلى البطء في السير.. بيد أننا ثابرنا ولم نتوقف إلى أن بلغنا البيت المنشود في المساء، وكان على بساطته يبدوذا رونق وسط الضيعة التي تحيط به.

وطرقنا الباب، فأقبل رب الدار وإستفسر أمرنا في تواضع وأدب، بيد أننا لم نوضح له حقيقة الغرض من رحلتنا.. وكان الرجل وقورًا ينم مظهره عن عز سالف. وبانت في نظراته الفطنة التي أدرك بها كنه ضيفيه من طريقة كلامهما. وبادر يدعونا إلى الدخول، وقادنا إلى جناح من الدار صغير، وعندما أشعلت النيران وشمل الضوء المكان، وجدنا فراشًا ناصع البياض يخرج منه عبير طيب، فقال «أميل» في دهشة:

– كأنما كنا على موعد معه، حقًا لقد صدق الرجل.. فيالها من رعاية، ويالهُ من كرم الغرباء مجهولين!

ثم ذهبنا إلى قاعة الجلوس بعد أن جفت ثيابنا من ماء المطر، واسترحنا قليلًا، ولحق بنا رب البيت وقدمنا إلى زوجته التي استقبلتنا مثله في دمائة ولطف. وقد ركزت نظراتها على «أميل»، تتأمله في إمعان.

وهيئ العشاء مبكراً من أجلنا، وكان على المائدة خمسة أطباق، ولما كنا أربعة فقد ظل مكان شاغرًا لفترة قصيرة أقبلت بعدها شابة حيتنا في أدب جم، وجلست في خفر في المكان الخالي دون أن تتكلم. وبعد أن حياها «أميل» انصرف إلى تناول الطعام وإلى الحديث مع رب الدار حول تخبطنا في الطريق بسبب عدم معرفتنا لمنعرجات الجبل، فقال رب الدار ل«أميل»:

– سيماؤك ياسيدي تدل على أنك شاب عاقل، وأعتقد أن التعب قد نال منكما.. مما يذكرني بأبطال قصة «تليماك».

ولم يجب «أميل» لأنه خالي الذهن عن هذه القصة، ولاحظت تضرج وجه الفتاة التي غضت من نظرها. ولمحت الأم ارتباكها؛ فأومأت إلى الأب من طرف خفي فبادر إلى تغيير دفة الحديث، وراح يتنقل من موضوع إلى موضوع، يحدثنا عن عزلته وفقدان ثروته وإخلاص زوجته وأنها خير عزاء له، كما حدثنا عن الحياة الهادئة التي يعيشها.

ولم يشر بكلمة عن الفتاة.. بيد أن حديثه كان ممتعًا، مما استرعى انتباه «أميل».. وعندما امتدح الرجل زوجته وفضلها عليه وعلى سعادته صافح «أميل» الرجل وزوجته في حماسة وحرارة. وتأثرت الفتاة لبراءة هذا التصرف، فجعلت ترمق «أميل» بنظرات مختلسة وتتأمل ملامحه، وأذهلها أن وجدت فيه وجوه شبه كبير بفارسها «تليماك» فتملكها شعور مبهم وحياء خفي.

وكانت الأم تراقبها بعين يقظة، فما إن رأت إضطرابها، حتى إنتحلت عذراً لتبعد الفتاة عن المكان، فنهضت ثم عادت بعد فترة وجيزة وفي عينيها أثر لبكاء، فعاتبنها أمها قائلة:

– أما من نهاية لهذا يا«صوفي»؟

وكان لذكر الاسم وقع شديد في أذن «أميل»، فهو الاسم الذي اصطفاه وجعله رمزًا على المرأة التي ينشدها، وجعل يدقق فيها النظر في حذر. لقد اختلط عليه الأمر، فهو لايرى الملامح التي تخيلها، ولا يدري إن كانت تلك التي أمامه أفضل ممن ينشدها.. وأخذ يدرس كل لمحة وكل حركة؛ فاشتد اضطرابه وزادت حيرته، وتمنى أن يسمع صوتها.. ثم نظر إليّ، كي أخف لنجدته.

ولم يكن «أميل» يعرف التكلف أو التمويه، فمن العسير أن يخفي اضطرابه أمام أناس يرمقونه. ولعل الفتاة كانت أقلهم انتباهًا إليه في الظاهر، بيد أنها كانت أكثرهم اهتمامًا به ومراقبة لحركاته؛ فأسعفتها فطنتها إلى معرفة حالته، وأدركت أن هذا القلق ليس معناه الحب، ولكن ماذا يعنيها من ذلك الآن، يكفيها أنه شغل بها.

وعيون الأمهات ثاقبة عميقة، ولذا ابتسمت الأم إذ عرفت نجاح الخطة التي رسمتها، وأدركت أن هذا الشاب المهذب هو خير من يلائم ابنتها، فعليها أن تنتهز الفرصة، فاستحثت ابنتها على الكلام.

وراحت الفتاة تتحدث في عذوبة وفي حياء ضاعف من سحر صوتها وتأثيره، ومن أول عبارة نطقت بها الفتاة أيقن «أميل» أنها ضالته المنشودة. وتجسست فتنة هذه الحسناء الصغيرة، وتدفقت على فؤاده تدفقًا غمره بالنشوة وملك عليه مشاعره، فوجم لا ينبس بكلمة ولا يجيب عن سؤال؛ لأنه لا يرى سوى «صوفي» ولا يسمع سوى «صوفي».. يرى فيها كل دنياه، فإن قالت كلمة فغر فاه وإن طرفت عينها طرفت عينه، فكأنما في لحظةٍ واحدة ارتبطت روحه بروحها فاندمجتا في بعضهما!

وهكذا زايلت «أميل» حريته وإنطلاقه، وصار نهبًا للقلق تلفه الحيرة، يخشى أن يتلفت فيجد العيون ترمقه أو ترقبه، ويخجله سلوكه هذا فيزداد خجلًا وارتباكًا.

أما «صوفي» فكان اضطرابه يشيع في نفسها الطمأنينة، وهي مزهوة بذلك.. وهي وإن كانت لم تغير شيئًا من مسلكها الظاهري إلا أن قلبها كان يخفق سروراً رغم حيائها.

ومن البديهي أن النوم لم يطرق جفن «أميل» في تلك الليلة، بل قضاها مسهداً يحدثني عن «صوفي».. ترى ماذا أصابه حتى يجعله يغامر بمصيره ويُفتن بفتاة لم تمض على معرفته بها سوى ساعات، ولم يتحدث إليها من قبل.. انتظر أيّها الشاب وأمعن النظر، فإنك لاتعلم شيئًا من أمر القوم، إن من يراكَ يعتقد أنك قد حزمت الأمر وربطت نفسك بهم!

وليس المجال مجال وعظ، فلن يتخلف عنه سوى شبوب عاطفته ومضاعفة ولعه ب «صوفي». وقد تحقق ما توقعته إذ لاحظت عند الصباح أنه عني بمظهره ما وسعه ذلك على غير عادته، وتوقعت أن أجد «صوفي» قد تفننت في زينتها هي الأخرى. ولكن خاب ظني، فإنها ليست ممن يلجأن إلى التبرج الرخيص، وكانت على عادتها من الزينة أو أقل. وأدركت على الفور أنها ذات فطنة ثاقبة، تهدف إلى غاية بعيدة، فهي تريد أن يكون سحرها في شخصها لا في زينتها وزخرفها.. إنها تضع في الاعتبار، الجوهر لا المظهر؛ لأنها تدرك تمامًا أن المحب الحقيقي يسعى وراء الجوهر ولا يبالي بالمظهر. و«صوفي» واثقة من سحرها وسلطانها، فأرادت أن تفرض ذلك السلطان في بساطة دون اللجوء إلى الاصطناع.

وأعتقد أن والدي الفتاة لا بدّ قد تحدثا في ليلتهما تلك في شأن «أميل».. إذ أنهما رحبا بمعاودة زيارتنا عندما أبدينا لهما ذلك. ولكن «صوفي» لم تتكلم لأن الحمرة التي تضرج بها وجهها أغنت عن كل تعبير. وكان طلبنا معاودة الزيارة ينطوي على مغزى لا يخفى، وإن وراء إجابته استجابة لهذا المغزى.

لقد رحبا بمعاودة الزيارة ولكنهما لم يدعوانا للبقاء؛ فتقديم الطعام لأمرئ أمر مستساغ، ولكن أن يسمح لعاشق بالمبيت في دار معشوقته أمر لا يقره عرف.

وخطر ل «أميل» حين غادرنا الدار أن نقيم على كثب منها، في أقرب كوخ، ولو أن الأمر ترك لهواه لرحب بالبيت بجوار حائط دار محبوبته، ولذا أشفقت عليه وقلت له:

– أهكذا يؤثر فيك الحب؟.. هل ذهب بك إلى حد عدم تقدير الأمور، وهل طمست العاطفة بصيرتك؟.. ألا تقيم وزنًا للعقل؟.. إنك تعتبر نفسك عاشقًا.. فهل يرضى المحب أن يلوك الناس سمعة محبوبته؟ ماذا يقول الناس إذا بات شاب ليلة في دارها ثم غادر الدار ليقيم عن كثب منها متشبثًا بالجوار.. أهكذا يُجزى الكرم؟

فقال في حماس وحدة:

– وماذا يعنيني من كلام الناس وشكوكهم؟.. إن تعلقي بها يضفي عليها العزة ولا ينقص منها!

فعانقته في حرارة وأنا أقول:

– فكر فيها مثلماتفكر في نفسك.

ثم جعلت أبصره بما سيلحقه بها من خدش للسمعة، وفزع «أميل» حين أوضحت له الأمر، من الأثر السيء على الفتاة التي اصطفاها قلبه وأحبها. وسرعان ما اقتنع ووجدته يضاعف من سرعة الخطى كي يبتعد عن

المكان. وخشي أن تلتقط نجوى قلبه أذن متطفلة، فإنه ليؤثر أن يضحي بسعادته على أن يعرض شرف محبوبته وسمعتها لأهون ضرر!

وهكذا شبّ الفتى وهو يعرف كيف يحب حبًا صادقًا منزهًا.

وجعلنا مأوانا في بلد بعيد، كي لا يكون مقامنا فيه موضع ريبة، وهناك طفح قلب العاشق الولهان هيامًا، وفاض أملًا..وقام «أميل» على تدبير ما يلزم لاستقرارنا، وما إن فرع من ذلك حتى امتطينا الجياد وقصدنا في خيلاء –وبأقصى سرعة– محراب حبه. وكانت هذه أول مرة أراه يسرع فيها بغية الوصول، شأن الحب الذي يتفتح قلبه فلا يعيش إلا في دنيا غرامه.

وبلغنا الدار، وكان استقبال القوم لنا أكثر بساطة وأقل حرارة، فلم نعد غرباء. وتبادل العاشق ومعشوقته تحية صامتة فيها كثير من الحرج والخجل والحياء؛ لأن الحديث الذي يتوقان إلى تبادلة لا يحتاج إلى رقباء، ونزلنا للنزهة في البستان الزاخر بأشجار الفواكه المثمرة والأزهار اليانعة. وبعد فترة قصيرة لم يستطع الشابان المتحابان أن يحدا من سرعة سيرهما، ومسايرة سيرنا؛ فإذا بهما وقد سبقانا بمسافة طويلة.

وكانت «صوفي» تبدو متيقظة في هدوء، أما «أميل» فكان يتحدث ويلوح بيديه في حرارة، ويبدو أن الحديث بينهما كان حديث قلوب.

وقضينا ساعة في نزهتنا، رأينا بعدها أن نعود، وناديناهما فدارا ولكنهما أقبلا ببطء. وكان واضحًا أنهما يريدان أن يستمتعا بأطول وقت

ممكن. وأخيرًا توقف الحديث بينهما فجأة، قبل أن يكونا على مرمى سمعنا وعندئذٍ ضاعفا من سرعة خطاهما ليلحقا بنا.

وبدا «أميل» حين وصل إلينا منشرح الصدر، تفيض عيناه بالبهجة، والتفت إلى أم «صوفي» في شيء من القلق، ليرى كيف سيكون استقبالها له بعد هذه الجولة.

أما «صوفي» فلم تكن جذلانة مثله، بل كانت شديدة الاضطراب لأنها كانت في خلوة مع الشاب. وقد كانت في مثل هذه الخلوة مع كثيرين جدًا غيره، دون أن يظهر عليها شيء من الضيق.

وهرولت «صوفي» نحو أمها وقد تلاحقت أنفاسها وأخذت تغمغم بضع كلمات، وأدركت الأم بفطنة الأمومة أن حديث الخلوة قد رفه عنها كثيرًا وخفف عن قلبيهما الشابين.

ولاحظت أنا أن «صوفي» تبدي نحوي احترامًا بالغًا، وتحدثني في مودة واهتمام، وتسعى لإدخال البهجة على نفسي؛ فأدركت أن «أميل» لا بدّ حدثها عني.

وتكررت الزيارات... وتوالت الأحاديث الانفرادية بين الشابين، حتى ثمل «أميل» بخمرة الحب، ومع هذا لم يظفر منها بما يشعره بأنها تحبه. فلما لم ير منها سوى الصمت، طلب منها أن تسمح له بالتماس يدها من والديها، فلم تعارض.

وقمت أنا بهذه المهمة باسمه وفي حضوره، وأذهله أن يعلم أن الأمر بيد «صوفي»، وأن لها وحدها أن توافق وتستجيب وتسعده. فبدا «أميل» يعجب ويحار في فهم سلوكها، وأخذت ثقته تتضاءل وتنحسر، وفزع إذ رأى نفسه أقل حظوة مما كان يقدر.. ولم يستطع أن يحدس العقبات التي تعترض سعادته، ف «صوفي» أشد عزة وأنفة من أن تصارحه بشيء من ذلك.. إنها فقيرة و«أميل» ثري، فكيف يبدو تقديرها له نزيهًا؟

وإذ ربيت «أميل» على أن يعتمد على قلبه ولا يقيم وزنًا لثروته، فإنه لم يستطع أن يدرك سر إحجام «صوفي» وعزا ذلك إلى عيب قد تكون في نفسه لا يعرفه.. فتأثرت صلته بها حتى صار يرتجف عند رؤيتها، وعمل على كسب عطفها بإثارة شفقتها. ويبدو على «صوفي» أنها أحست بما يعتمل في نفسه من انفعالات.. بيد أن كل أثر لضيقه كان يتلاشى حينما كانت ترنو إليه بنظرها.

ولما أعيته الحيلة في ذلك العناد وذلك الجمود، جاء يفضي إليّ بمكنون قلبه، ويطلب العون والإرشاد:

– إنها مهتمة بشأني، يسرها لقائي ويسوءها انصرافي، وتأمرني كأن لها الحق في ذلك، ولكنها تأبى أن تستجيب لتوسلاتي، إذا فاتحتها في الزواج لاذت بالصمت وفرضته عليّ. وإن عاودت الحديث غادرتني، إنها سرٌّ غامض، في يدك تفسيره.. فهل أنت فاعل؟

وتحدثت إلى «صوفي» وعرفت السر.. ووافقت بعد عناء على إطلاع «أميل» بالأمر، فدهش دهشة بالغة، وخطر له أن يتنازل عن ثروته

ليحظى بالزواج من «صوفي»، وضايقني تفكيره هذا؛ لأنه لا ينطوي على تعقل أو رزانة. وقد يزيد هذا التصرف الأمر تعقيدًا؛ لأنه يضخم الحوائل ويضاعفها.. فهي رغم أنها لاتقبل أن يقول أحد أن زوجها أضفى عليها كرامة بماله، لا تقبل أيضًا أن يصبح معدمًا من أجلها.. ونصحته بالاقتصاد حتى لا يدور في خلدها أنه يسعى إلى كسب حبها ببذخه، كما نصحته بأن يثبت لها عظمة قلبه كي تؤمن أن سمو روحه ترجح بكثير كفة ثروته. وأفهمته أنه بالمثابرة والأناة سيتغلب على مقاومتها، فينسيها صفاء روحه ضخامة ثروته.. وأن عليه أولًا وأخيرًا أن يبين لها أن عواطفه نحوها ليست وليدة نزوة طارئة أوشهوة عارضة، وإنما هي نابعة من أعماق قلبه.

وكان لنصائحي وقع السحر على نفسه؛ فانتعش بالأمل والثقة. وهكذا صرت موضع ثقتهما، وأدرك الوالدان هذا فازداد تقديرهما لي، ووكلا إليّ الكثير من شئونهما، وشملتني الفتاة بكثير من رعايتها.. وما كنت لأغفل عن ذلك، فهي تحدث «أميل» في شخصي، فتفضي إليّ بما تشتهي أن تفضي به ل «أميل»!

وبمرور الأيام ازدادت جرأته، فصار يتمسك بحقوق المحب فيلح ويعاتب. وزالت الكلفة بينه وبينها، فصارت تلقي إليه بالأمر بدلًا من أن ترجوه، فيلبي أمرها دون تردد أو معارضة أو مناقشة.

وأمسى متلهفًا على الظفر بإعجابها، فبدأ يشعر بقيمة مواهبه.. إنها تحب الغناء فيغني معها، ويلقنها شتى الفنون. ولهذا التعاطف متعة محببة، فهو يشيع المرح في الروح ويبعث فيها الحيوية. واستغل «أميل» إتقانه فن

الرسم في صنع مناظر مصورة من جمال الطبيعة المحيط بمنزلها، زين بها الدار، فذكرت هذه الروائع والدي «صوفي» بيسارهما القديم.

وراح «أميل» يشرح لها كل شيء في حماس ولهفة، ويعطيها دروسًا في الفلسفة والرياضيات والتاريخ وشتى العلوم في آنٍ واحد، و«صوفي » تسر لذلك وتجتهد في الاستفادة منها.

وفن التفكير ليس غريبًا على النساء.. ولكن ينبغي عليهن عدم التعمق في العلوم العقلية، ولدى «صوفي» ثروة من المعلومات، ولكنها لا تعي في ذاكرتها الكثير منها. وأعظم ما تحرزه هما مزيتا الأخلاق والذوق وإلمامها بعلم الطبيعة لا يتجاوز المعلومات العامة عن نظام العالم. وكثيرًا ما كانت تأخذ «صوفي» و«أميل» أعاجيب الطبيعة، يتأملانها في نزهاتهما فيتجه قلباهما نحو مبدع الكون.

ولم يكن يخلو الأمر من حدوث خلافات أو مشاحنات طفيفة بينهما، فل «صوفي» ميول و«أميل» لا يخلو من حدة في الطبع. ولكن هذه العواصف كانت تمر سراعًا، وكانت تزيد من توثق ارتباطهما، فصار لا يخشى من تلك العواصف؛ لأنه يستشعر متعة في الصلح الذي يعقبها أكثر من الألم الذي تحدثه في نفسه.

وكان «أميل» أبعد ما يكون عن الجرأة، ومن ناحية أخرى، لم تكن «صوفي» تسمح له بتجاوز الحدود معها. وحدث أن واتته الجرأة ذات مرة في إحدى خلواتهما، فقبل ثوبها خلسة، وأسعده أن تتجاهل هي ما حدث أو تتظاهر بأنها لم تره. ثم تكرر ذلك بضع مرات.. وحين أراد أن يفعل

ذلك على مرأى منها صدته؛ فأصرّ فغضبت ونهرته في حدة وقسوة. وانقضى يومهما وهما في خصام.. ولجأت «صوفي» إلى أمها وكشفت لها عن أساها لأول شقاق بينها وبين حبيبها، وأفضت لها بخطئها، فنصحتها أمها بأن تصلح ما أفسدته.. وبهذا أيضًا نصحها والدها.

وحضر «أميل» مبكرًا في اليوم التالي على غير عادته لأنه ظل طول ليله قلقًا بسبب خصام الأمس، وكانت الأسرة في حجرة الأم، فدلف إليها «أميل» في أدب واحترام وحياهم. واتجهت «صوفي» إليه ومدت له يدها وهي تسأله في رقة عن حاله، ولكنه تلقى يدها دون أن يقبلها، فاعتراها خجل شديد وجذبت يدها في ارتباك، وغالبت انفعالها. وقد حاول أبوها الترفيه عنها، ولكن دمعة طفرت من عينيها، فما إن رأى «أميل» تلك الدمعة حتى جثا على ركبتيه وتناول يدها وأمطرها بقبلاته، فضحك الأب وصاح:

– كم أنت طيب يافتاي، لو كنت في مكانك لما تهاونت إزاء سخافاتهن... ولأنزلت العقوبة الملائمة بالفم الذي أهانني.

وكأنما شجع كلام الأب «أميل»، فرمق الأم بنظرة استعطاف، وخيل إليه أنه يرى على وجهها أمارات الرضا، فاقترب في وجل من وجه «صوفي»، فأشاحت برأسها وعرضت له –كي تتفادى قبلة الفم– صفحة خد في نضارة الورد، ولكن«أميل» لم يقنع بها، فقاومته مقاومة لايمكن أن تسمى مقاومة.. ويالها من قبلة ملأته انتشاءً.

وبعد هذه العقوبة الفريدة في نوعها، تعلل الوالد بشأن وخرج، وأرسلت الأم «صوفي» طالبة منها أداء أمر، ثم راحت تحدث «أميل»:

– أعتقد يا سيدي أن شابًا يتحلى بهذه الأخلاق السامية والتربية الطيبة لايسمح لنفسه بأن يمسنا بسببه ضرر أو عار. وإني أهيب بك أن تلجأ إلى أستاذك ليبصرك بواجباتك، وبالفرق بين الأمور البريئة التي يسمح بها في حضور الأبوين، وبين الحماقات التي قد يقدم عليها البعض في غيبتهما، مستغلًا في ذلك ثقتهما، ومستهينًا بمعايير الأخلاق، فينجم عن تلك الحماقات أوخم العواقب.

وإذ ختمت الأم هذا الدرس الأخلاقي الذي كان موجهًا إلى أكثر مما هو موجه إلى «أميل»، غادرتنا على الفور. وقد أعجبت ببعد نظرها الذي جعلها لا تكترث بتقبيل فم ابنتها على مرأى منها قدر اهتمامها وتوجسها من تقبيل ثوبها في خلوة، ثم ناقشت «أميل» وأبصرته بما للأمانة والثقة من أهمية.

وجنحت «صوفي»، وقد شعرت بسلطانها على«أميل»، إلى شيء من الحرية في تصرفاتها.. لأن المرأة حين تجد من يتعلق بها في حب جدي، لا تهتم كثيرًا بالتحفظ مع الشبان، لانها لا تخشى منهم خطرًا.. ترى هل شعر «أميل» بالغيرة؟ يجب أن نضع ذلك موضع الاعتبار في موضوع التربية.

أعتقد إن «أميل» لن يفتات أو يجمح، بل سيكون رقيقًا متوجسًا؛ لأنه سيشعر نحو المسألة من حيث أن سعادته هي المهددة، وليست كرامته في الجريحة.

ماذا فتنه في «صوفي» فأحبها؟ إنها الفضيلة والتمسك بأهداب النزاهة والحساسية، وقد ازداد حبه لهذه الفضائل بحبه ل«صوفي». وأحبت

هي فيه مزايا الزهد والبساطة والنزاهة وعدم الميل إلى الترف والبذخ وبذلك تمّ التآلف بين الحبيبين في الأمزجة والأهواء، ولن أخشى عليه تغيرًا بعد ذلك.

الهيام

لم تكن «صوفي» تسمح ل «اميل» أن يقدم لزيارتها إلا مرتين في الأسبوع الواحد. وما كانت هاتان المرتان كافيتين لارواء أشواق المحب الهائم.. ولكنه لم يكن ممن يستسلمون للحسرات، فلم ينفق بقية أيام الأسبوع في التسكع والبطالة وأحلام اليقظة، بل كان ينصرف إلى ألوان نشاطه السابقة ومنها الزراعة، يرتاد الحقول ليدرس على الطبيعة ويكتشف خصائص الأرض ومنتجاتها، وإذا عنت له فكرة أو ابتدع تحسينًا أرشد الفلاحين إليه وجربه على الطبيعة، وكان لا يتورع عن مشاركة الفلاحين ولا يضن عليهم بخبرته وصداقته وسخائه، وكثيرًا ما كان ينفق على تحسين أحوالهم الصحية، يشتري المواشي لمن ليس عنده.. كذلك كان حكمًا عدلًا بين الفلاحين.

وتولد عن حبه عطف على جميع المحبين؛ فإن سمع بمن يعوزه المال منهم، أمدّه بنفقات الزواج، وكذلك العطف على الثكالى والمنكوبين، فقد حدث أن تناهى إلى سمعه أن امرأة ثكلت في ابنها الوحيد، فذهب إليها وأسبغ عليها من عطفه وتعزيته ما خفف عنها لوعة الأسى.

وهو لا يتقزز من المساكين، فكثيرًا ما شارك الفقراء –الذين كان يزورهم ويعطف عليهم– طعامهم.

رأيت أن عليّ واجبًا وقد بلغت العلاقة بين «صوفي» و«أميل» إلى هذه المرحلة.. وواتتني فرصة انقضاء يومين لم نقم فيهما بزيارة «صوفي»،

فدلفت إلى حجرة «أميل» وفي يدي رسالة وقلت له:

– ماذا يكون أمرك إذا حمل إليك شخص نبأ وفاة حبيبتك؟

فروع الفتى وصرخ مفزوعًا ونهض منزعجًا وراح يحدق فيّ، فقلت:

– لم تجبني عن سؤالي، وأريد أن أعرف..

وأذهله هدوئي وضاق بي ذرعًا، فدنا مني وقد تطاير الشرر من عينيه، وتجمعت على وجهه معالم القسوة والجمود والوعيد، وقال:

– تسألني ماذا يكون الأمر؟ إنني لا أدري.. ولكني لا أتوقع أن يُحمل إلى هذا النبأ فقلت له وأنا أبتسم:

– هون عليك..إنها في أتم خير، وهي مشغولة عليك كما أنها تنتظرنا هذا المساء، ولكن أحب أن نسير قليلًا ونتحدث.

لقد طغى حبه العنيف على فكره، فلم يعد في مقدوره استيعاب المحادثات العقلية.. ولذلك يجب أن أنتهز هذه الفرصة لأتمم رسالتي التربوية. ولذا كنت واثقًا –بذلك التمهيد المروع– أنه سيصغي في انتباه لما أقول:

– السعادة غاية كل عاقل وهي الأمنية الأولى التي تفرضها علينا الطبيعة، ولكن أين نجد السعادة؟ كلنا يبحث عنها دون أن يوفق إليها.. ينشدها الناس ويصرفون عمرهم في ذلك ثم يقضون دون أن يبلغوها. والحكمة تقضي بالكف عما نجهل ما يجب علينا عمله، ولكن الإنسان يتجاهل ذلك أو يجهله.. والبحث عن السعادة دون معرفة مكانها قد

يبعدنا عنها. بيد أنه ليس في استطاعة كل إنسان أن يركن إلى السكون، فهو يفضل العمل مع التخبط على ذلك.. وسأجتهد أن أتجنب التخبط في البحث عن السعادة.

وقد آثرت أن أسلك معك طريق الطبيعة؛ لأنها وحدها التي ستدلنا على طريق السعادة، لقد توخيت أن تشب بريئًا من الحقد ومن العبودية، حرًا عادلًا نزيهًا.. ومما لا شك فيه أن الألم والعناد يولدان الرذيلة، والإنسان يكون شريرًا حين يكون تعسًا. لقد كانت طفولتك سعيدة وأتمنى أن تظل ذكراها إلى شيخوختك.. إنك ستذكرني بالخير كلما تذكرت طفولتك. أحب أن تتجلد للألم وتُقبل على العمل وتستوعب كتاب الطبيعة الكبير، وتملك زمام عواطفك، لا تنحدر إلى إحلال الترف فالشجاعة واجبة للسعادة، والكفاح والصراع لازمان للفضيلة.. والفضيلة صِنْو القوة، والقوي بإرادته من يمكنه أن يتصف بالفضيلة.. والفاضل هو الذي يتحكم في عواطفه وشهواته لأنه يسير بوحي من عقله وضميره. ستكون الآن حرًا، سيد نفسك تملك زمام عواطفك وزمام قلبك. وهذا كفاح ويحتاج إلى رياضة شاقة؛ لأن ما ينالنا من أنفسنا أمره موكول إلينا.. فالشهوات منا، فإلينا أمرها وعلينا مقاومتها.

لقد كان حبك ل«صوفي» أولى عواطفك الجديرة بك.. فاحرص على أن تكون الأخيرة، لأنها عاطفة نقية، ولا تسمح لنفسك بأن تزل بك القدم. ومن الخطأ تقسيم العواطف إلى حلال وحرام؛ لأن كل عاطفة نبيلة طالما أننا مسيطرون عليها وشريرة طالما كنا مستعبدين لها. ومن الحماقة أن

نتمادى في عواطفنا حتى تتجاوز مدى قدرتنا فيفلت زمامها من يدنا، ونشتهي ما ليس لنا إليه سبيل أو ما يحظره علينا الضمير. ولئن لم يكن في وسعنا أن نُحِب أو لا نُحَب، ففي مقدورنا أن نسيطر على حُبِنا.

وهذه هي الفضيلة. وكل عاطفة تحت سلطاننا مشروعة وعلى العكس من ذلك كل عاطفة تكون تحت سلطانها آثمة.. فكن رجلًا وتحكم في قلبك وإرادتك وعواطفك؛ فبذلك تعيش سعيدًا وفاضلًا، ولا تسمح لقلبك أن يعلق بالجمال الزائل، واجعل واجبك أولًا ثم هواك.. وضح بكل عزيز في سبيل الفضيلة، فستكون سعيدًا رغم قسوة القدر وثوران العواطف.. ستكون مالك نفسك ومالك، وليس عرض الدنيا هو الذي يملكك.. وعندئذٍ لن يضيرك أو يؤلمك فقدان ملذاتك، فالدنيا في نظر العاقل الحكيم تافهة لا تستحق إن يأسو عليها.

وأصغى «أميل» في انتباه وقلق، وتوقع خاتمة محزنة.. فسألني:

– ماذا تهدف من كل ذلك؟ وماذا تقصد برياضة التحكم في عواطفي وقلبي؟

– إنني لا أريد.. بل أوجب عليك فراق «صوفي»!

– رباه.. ماذا تقول؟ أفارق «صوفي» فأكون خائنًا نذلًا!.. خائنًا بالعهد؟!

– مهلًا.. مهلًا.. هل مني أنا يمكن أن تتعلم هذه الأمور؟

– لن أقبل أن أتعلمها منك أو من سواك، محافظةً على المبادئ التي غرزتها في نفسي.

وكنت قد توقعت منه هذه الثورة، فانتظرت حتى عاد إليه هدوءه وقلت:

– أتعتقد أن هناك من هو أسعد منك الآن؟ لقد رشفت السعادة واستنفدتها قبل أن تتذوق لذائذ الحياة. فليست هناك سعادة أكثر مما ذُقتَ.. ذلك لأن لذة البدن عارضة وليست شيئًا إلى جانب لذة القلب.

أمدّك الأمل بما لم يمدّك به الواقع، ولكن الإنسان إلى زوال وكل شيء موقوت؛ حتى السعادة إذا امتدّ بها الأمر ذهب طعمها، فيتغير القلب. وهكذا ابن آدم، إن لم تزايله السعادة زايلها. إن الشتاء وشيك، وهذا يقتضينا تغيير نظام معيشتنا الحالي الذي لا يمكن أن يدوم.. تريد أن تتزوج «صوفي» وفترة معرفتك بها لا تتجاوز بضعة شهور. إنك تسعى إلى ذلك وتتمناه لا لأنك تراها تناسبك، بل تروق في نظرك.. كأنما الحب معصوم من الخطأ.. وكأنما الزواج عن حب لا تعرف الكراهية إليه سبيلًا. إنها فاضلة ما في ذلك شك، ولكن ليس في هذا الكفاية، والشرف وحده ليس أساسًا للزواج.. وطبع المرأة من العمق بحيث لا يبدو في فترة قصيرة.. وربما كان الاحتجاب عنها كافيًا لسلوانها ونسيانها من ناحيتك أو ناحيتها؛ لأن العواطف لا تعرف المبادئ. إنني أرجح أنها ستظل حافظة للعهد.. ولكن لا بدّ أن يكون ذلك بالتجربة.. فأقدم عليها. إنكما لا تزالان حديثي السن، والأبوة والأمومة يلزمهما النضوج. والحمل في سن صغيرة

ينتج أطفالًا ضعفاء. ويجب أن يكتمل نمو الأم قبل أن تحمل لأن نموها يتوقف والحمل، فإن كنت تحبها حقًّا وتؤثر مصلحتها على أي أمر آخر فينبغي عليك أن تؤجل هذا الزواج، وألا تسرع حتى لا تتعثر. ووسيلتك إلى ذلك الأسفار، لكي تبتعد عن «صوفي» إلى حين، لا أن تتخلى عنها بل لتعود إليها وأنت بها جدير وبذلك تكون على ثقة من سعادتك وقدرتك على إسعادها. وخطرت للمحب الولهان فكرة ظن فيها حلًا للمسألة، فقال متوسلًا:

– أتزوجها ونسافر معًا!

– تذكر أن الرحلة تمهيد للزواج بها.

– إذن أتزوجها ثم أسافر.. وبذلك أطمئن أنا وهي.

– وكيف يكون ذلك؟ إنني استسيغ أن يعيش محب بعيدًا عن حبيبته.. أما أن يعيش زوج بعيدًا عن زوجته دون مبرر فأمر لا يستسيغه عقل. ولكي لا تكون مخادعًا وأنت تنهى إليها بعزمك على السفر، أذكرك بوعدك بأن تطيعني إلى أن تتزوج.

فشرد لحظة ثم غض من بصره، وأخيرًا قال في عزم:

– ومتى نرحل؟

– بعد ثمانية أيام، فمن الضروري إعداد «صوفي» لتقبل سماع نبأ هذا الرحيل؛ لأن النساء مرهفات الحس.. لذا يجب أخذهن بالرفق لتخفيف وقع الصدمات عليهن.

وكان الوقع شديدًا على «صوفي»، ولكنها قابلت الأمر في تجلد مستعينة بقدرة النساء الفطرية على إخفاء شعورهن.. وقمت بتخفيف الأمر عليها مؤكدًا أن «أميل» سيظل أمينًا على عهدها.

وكان الوداع مؤلمًا ولاسيما حين قبلتني والدمع ينهمر من عينيها، وأوصتني أن أسهر على راحة «أميل» وأن أرعاه.. وكان وداعها له بالغًا من الروعة، ما يعز على الوصف.

خاتمة المطاف

حان الوقت الذي نطرح فيه الكتب لأن فائدتها تقتصر على حشد أقصى ما يمكن من المعلومات في الرءوس والعقول... إن من يخلد إلى مكان لا يبرحه لا يعرف من شئون الحياة كثيرًا أو قليلًا. وإذا عنى لي إن أتساءل عن مزايا الأسفار أو جدواها؛ فإنه يقترن بهذا السؤال سؤال آخر وهو: هل يكفي للمرء أن تقتصر معرفته على مواطنيه وبني جلدته فحسب، أم ينبغي أن تتسع دائرة معارفه فتشمل البشر عمومًا؟ وهو سؤال من السهولة والوضوح بحيث لا تختلف فيه الآراء. وإذا أردنا أن ندرس البشر فهل يقتضينا ذلك أن نجوب أركان الدنيا ونسير في شعابها، ندرس الأفراد فرادى؟ ليس من شك في أن كثيرين من الناس يتشابهون، فمن رأى حفنة من الأفراد في أمة فكأنه رأى شعب تلك الأمة بأسره، وإن كان ذلك لا يصح أن يكون ميزانًا لجميع الدول.

إن لكل شعب طابعًا خاصًا يتميز به يمكن معرفته بالاستقراء، بملاحظة جملة أفراد وليس فردًا واحدًا؛ لأن الفرد الواحد لا يمكن أن يكون مصداقًا على شعب. ولا يكفي للمعرفة والثقافة أن تجوب الأقطار والديار، فكم من رحالة سافر وعاد دون زاد.. بل يجب أن نعرف كيف نسافر «وكيف» هنا لا تنصب على طريق السفر بل على مرماه.. وكل ذي عينين، بهما يشاهد ويلاحظ، يستخدمهما للتزود من الموضوع الذي يريده. فهناك أناس يسافرون ولا تفيدهم أسفارهم لأنهم عاطلون من فن

التفكير، وإذا لجأوا إلى الكتب ينقادون لرأي المؤلف انقيادًا أعمى.

ومما لا يحتاج إلى إيضاح أن البون شاسع بين السفر لمشاهدة بلد وبين السفر لمشاهدة شعب.. يهتم بالأول المتطفلون ومن تدفعهم غريزة حب الاستطلاع، وهؤلاء لا يهمهم الشعب في كثير أو قليل. أما من يسافرون طلبًا للمعرفة وسعيًا وراء الحكمة فهم على عكس ذلك... الطفل يبدأ بملاحظة الأشياء إلى أن يكبر فيلاحظ الناس، أما الرجل فينبغي أن يبدأ بملاحظة الناس فإن بقيت له فسحة من وقته يلاحظ الأشياء. وذو رأي سقيم من يقول أن لا جدوى من الأسفار. وإذا اتفقنا على الاعتراف بجدواها، فهل يستتبع ذلك أنها تلائم جميع الناس؟ إنني أقول «لا» فإنها لاتلائم إلا أقل القليل منهم، فهي لا تلائم إلا ذوي الحزم على أنفسهم، أولئك الذين يستخلصون من أخطاء الشعوب دروسًا ويجدون العبرة في الأيام والرذائل دون أن يقعوا في الأخطاء أو ينزلقوا في الرذائل. والأسفار عندئذٍ تبلغ الذروة في فوائدها؛ لأنها تؤدي إلى صلاح المرء أو فساده، فالذي يعود من سفره يتقمص الصورة التي يبقي عليها ما عاش، إما صالحًا وإما فاسقًا، بصورة ليس فيها غموض.

والشاب الذي ساءت تربيته، تغدو الأسفار مجالًا لإشباع فساده، يلتقط شر ما لدى الشعوب.. أما من طابت تربيته فالتثقيف مرماه، يعود وقد نهل من الحكمة والمعرفة والفضيلة من أوسع ميادينها، وعلى هذه الصورة ستكون أسفار «أميل».

ومن يسافر لمجرد السفر مجرد أفاق.. أما من يسافر سعيًا وراء التثقيف، فله هدف معين. لهذا أُود أن يكون هناك اهتمام محسوس بالثقافة، على صورة مصلحة... وإثارة الاهتمام أو المصلحة أسلوب أمثل للتطبيق في التربية.

والمدن الكبرى لا تعطي صورة حقيقية لخصائص الشعوب المميزة، بل تتشابه الحياة في جميعها على اختلاف مواطنها.. لهذا لن تمنحنا الرحلة إليها مزيدًا من علم أو خبرة بأخلاق الناس. وسنجعل أسفارنا إلى صميم الريف، فهناك تكون خاصة الشعب واضحة، فشعب أي دولة لا تجده في عاصمة تلك الدولة على حقيقته، بل في صميم الريف.

* * *

تمت أسفار «أميل» وحان موعد عودته إلى «صوفي» وقد نمت مداركه واتسع أفقه ونضجت عواطفه، وتعلم في هاتين السنتين كثيرًا من اللغات، ودرس على لوحة الطبيعة التاريخ والأخلاق، وأخيرًا قلت له:

– لعلك تذكر الهدف من رحلاتنا، وقد شاهدت الكثير.. فما نتيجة ذلك، وأين ستختار الإقامة؟

ومالم أكن مخطئًا في الأسلوب الذي انتهجته في التربية سيكون جوابه:

– أين تريدني أن أقيم؟ إن نفسي تأبى خلًا جديدًا إلا ما قيدتني به الطبيعة. أرى الناس يزدادون عبودية وهم يسعون إلى الحرية، وقد علمتني

كيف أكون حرًا حين علمتني كيف أرضخ للضرورة بلا مقاومة. وقد بحثت عن موضع أقول أنه ملكي، فإذا كل موضع تحيط به شهوات الناس. ولذا وجدت نفسي مرتبطًا بأرضي، وحياتي مشدودة إليها. والحرية تتعارض مع السلطة، فلا أريد أن يكون للأرض عليّ سلطان. وأنا لا أستطيع أن أكون سيدًا إلا بالنزول عن سيادتي على نفسي، سأبدأ بالقضاء على تأثير ثروتي في نفسى، بجعلها هينة عليها لا يسعدني وجودها أو يؤسيني زوالها.. بذلك سأكون حرًا، غنيًا كنت أم فقيرًا، لا يعنينى أين أقيم فالناس جميعًا إخواني، وسأتخلى عن ثروتي إذا عاقت حريتي وأعيش بعرق جبيني. هذا ماعقدت عليه العزم مدركًا أن التحرر من الشهوات أول مراتب الحرية.. لا أريد سوى شريكة حياتي؛ فإنها القيد الوحيد الذي أرحب به وأفخر بحمله!

وسأقول له معقبًا:

– من دواعي فخري أنك غدوت رجلًا حقًا، فها أنا ذا أسمع كلامًا جديرًا بالرجال. لقد كنت موقنًا أنك ستدرك ما وراء المظاهر، وأن الحرية في قلب الحر تلازمه أينما كان. وجدير بالذكر أن اقول لك أن لمسقط رأسك عليك حقًا وواجبًا تؤديهما، فمنه نهلت مقومات الحياة. وأن لوالديك عليك حقًا، فأنت مرتبط بموطن وأهل، ويجب أن تكون خدماتك لبني وطنك وذويك قبل غيرهم ونصحيتي أن تنأى عن المدن الكبرى والحياة البراقة وإخوان السوء؛ لأنها تفسد الأخلاق وتؤدي إلى الانحلال بما فيها من مجافاة للطبيعة وخداع ونفاق وانحدار وتهالك على الرذائل وكل ماهو نقيض للفطرة.

وإني أتخيل «أميل» و«صوفي» وقد أقاما في ذلك العش القائم في أحضان الريف، الهادئ الجميل، ترعاهما أسرة «صوفي».. فإن في أبويها قدوة هي خير قدوة لمن يبتغون حياة سعيدة كريمة فاضلة تقوم على حبِّ الخير والتمسك بأهداب الفضيلة والبعد عن الترف والمظاهر الوخيمة العواقب.. فهناك تحيا القلوب ببرّهما، وتزدهر الحياة بهما وفيما حولهما، فتؤتي أينع الثمر وتمنح أعظم السعادة.

* * *

لا أجني شيئًا بالاسهاب في وصف لقاء «صوفي» و«أميل» وإن لم يخل ذلك من المتعة، وحسبي أن اعترف أن حبهما قائم على التقدير الدائم ما دامت الحياة، وعلى الفضائل الباقية على الزمن حين يتلاشى الجمال وتذهب السن والأيام بسحر الفتنة.

رأيت في أجمل أيام «أميل» أسعد أيامي، حيث أتممت رسالتي وتوجت بالنجاح، وبدأت أتذوق الثمرة.. إنه يوم زواجهما برباط لا ينفصم، عقده القلب.

ويوم الزفاف يوم فريد حافل تشيع فيه البهجة، ولا يتسلل إليه العبوس الذي يبعث الكآبة في النفوس. وقلّ بين الناس من يستطيعون أن يتحدثوا إلى عروسين يوم زفافهما، ولكني سأقول لهما على انفراد:

– لو استطاع الناس أن يحتفظوا في ظل الزواج بحب الخطبة وبهجتها، لعاشوا حياتهم في نعيم مقيم. وما من أحد أفلح في ذلك.. فإن كتب لبشر

شيء من ذلك التوفيق، فأنتما أحرى الناس به. وسأنير لكما الطريق وأدلّكما على وسيلة لضمان التوفيق..إنها سهلة ميسورة. تناسيا عقد الزواج لتظلا تشعران أنكما عاشقان، وأحذركما من الضغط والإكراه على الملازمة، فالإكراه يقتل عاطفة الحب، والمتعة أمر لا ينال بالقهر، والرغبة المتبادلة أساس الحق الزوجي، هكذا جعلتها الطبيعة. يجب أن يكون الزواج بالقلب لا بالعين، وبالروح لا بالجسد.. فتقمصا نفسية العاشقين مع الاحترام المتبادل، إنها تسمو في سماء الفضيلة وهي تبذل لك نفسها. ولست أقول أن تبدي لك الرغبة صراحةً، فللمرأة كرامتها وخفرها، ويكفي أن تفطن إلى رغبتها الكامنة ورضاها المستور. واجعل في الاعتبار أن لذة الجسد لا تكتمل في الزواج إلا حينما تكون متبادلة.. وأنه لاغتصاب أن ينال الرجل لذته وزوجته عنه راغبة. ولا يتسرب إلى ذهنيكما أن هذا المبدأ يباعد بينكما، بل أنه سيجعل كلًّا منكما يتحرى رضى صاحبه ليحظى بإعجابه ويصل إلى مشتهاه.. هكذا يُربط الحب بينكما دائمًا.

وعندما يحل المساء، أقول لهما وأنا أتأهب لفراقهما:

– تذكرا أنكما شخصان يشعران وكائنان حران، وأن العلاقة بينكما ليست مجرد واجبات زوجية ومجاملات زائفة فحسب.. بل إن لكما رسالة سامية عليكما أن تؤدياها.

الفهرس

الكتاب الرابع: صوفي أو المرأة